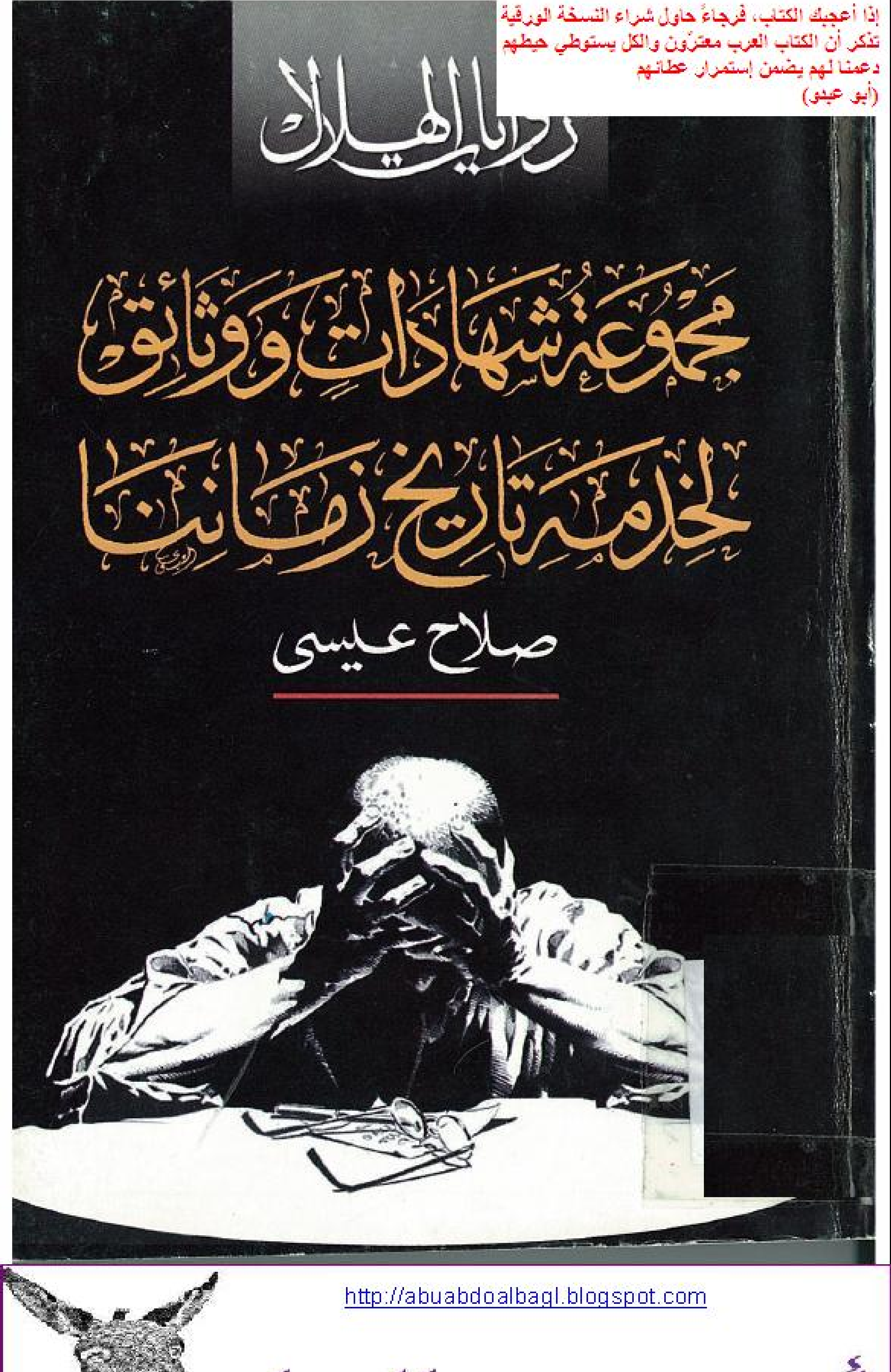

مجموعة شهادات ووثائق
لخدمة تاريخ زماننا
صلاح عيسى



صلاح عيسى

دار الهلال



لوحة الغلاف والتصميم للفنان :

صالح عبد العظيم

إذا أردت الرحمة
قتلناك بلا تحقيق
وإن أردت العدل
قتلناك بعد تحقيق
وإن أردت الحرية
فاقتل نفسك بالوسيلة التى تفضلها »

، نجيب محفوظ
(تحت المظلة - ١٩٦٨)

كاذبة كل الكتب إذ لم تذكر اسمها .

كاذب كل التاريخ.

لم تكن تقرأ أو تكتب

وكانت تربى الزهور والطيور والفراشات والأطفال ..

.... تبذر الحَب .. الحُب

فى قلبها تفرح الشمس ،

ويغنى المطر على الشفاه .

لأول خيوط النهار كانت تصلى ..

.. وللخضرة ونوار الحقول

بالصفراء ماتت .

لذكرى أمى :

مفيدة عبدالله عيسى

أصلى .

صلاح

١٩٧٩/٥/١٩

00

وثيقة إضافية

مقدمة ليست للنشر

لا أنوى أن أكتب مقدمة لهذه الرواية - إذا ما قدر لها أن تنشر - ولكنى فكرت فى أن أسجل بعد التوضيحات حول الظروف التى كتبت خلالها على سبيل التوثيق وأظن أن هذا ضرورى ، ولكنى لا أدرى بالتحديد لمن .

نبتت فكرتها فى ربيع عام ١٩٦٩ بعد حوالى عام من اعتقالى بتهمة المشاركة فى مظاهرات الطلاب التى خرجت فى فبراير ١٩٦٨ تعترض على هزيمة ١٩٦٧، وكنت مرهقا بدرجة ما ، وقد أتاح لى ذلك أن أتابع فى الصحف المصرية ، ما يعرفه الصحفيون باسم الأخبار الخفيفة ، تلك التى تهتم ببعض الملامح الهامشية للمجتمع المعاصر ، وتتحدث فى معظمها عن شخصيات غير بارزة . وعن حوادث طريفة أو مسلية ، وكنت قد تعودت أن أهمل هذه الأخبار فى حمى اهتمامى الشديد بحوادث عصرنا البارزة ، وبأنباء الذين يخططون سياسته ، وتركيزى أساسا على التحليلات السياسية ، والقضايا الفكرية العامة .

وسرعان ما اكتشفت خطأى الشديد ، إذ أننى من خلال المتابعة الدقيقة لهذه الأنباء وجدتها تعكس وضعا اجتماعا وحضاريا بالغ التعقيد ، لم تكن تافهة بالدرجة التى تجعل الإنسان ينصرف عنها نهائيا . وكانت بعض ملامحها تتكرر بكثيرة ، مما يؤكد أنها ليست حوادث فردية أو شخصية ، ولكنها أنماط من السلوك البشرى تظهر ، ويسود بعضها ، معبرا عن

اختناقات متعددة . والذين اهتموا فى حياتهم فترة ما ، بمتابعة السياسة ومجالاتها المختلفة - مثلى - يقعون أحيانا فى هوة الرؤية العامة للظواهر والمسائل ، وكثيرا ما يمرون سريعا على التفاصيل الصغيرة للحياة ، وهذا ضرورى ، ولكنه أحيانا يحدث نوعا من الانفصال عن الحياة ، ذلك ما شعرت به وأنا أحتفظ بعدد ضخم من أنباء عصرنا ، لا أدرى لم . ومن الحق أن أقول أن دهشتى لهذه الانباء كانت مفرطة . وكنت قد تلقيت تأثيراتى الأولي عن الأخلاق من بيئة زراعية مغلقة ومحدودة وشديدة التخلف. وبرغم الصراع الفكرى الضارى الذى تعرضت له فى بداية العقد الثالث من عمرى، فان اثار التأثيرات الزراعية المغلقة ، كانت تلقى بظلها على . وقد لاحظت إن هذا يلون نظرتى لقصاصاتى بألوان لا أحبها . وكان لابد أن أنفى هذا التأثير عن نفسى قبل أن أبدأ فى التفكير فى أى شئ يتعلق بتلك الوثائق التى أحببتها ، وعايشتها طويلا .

وفى أحد أيام الربيع القريبة من الصيف الباكر - غالبا فى أواخر أبريل ١٩٦٩ - سمعت من الصديق الدكتور «عمر مكاوى» القصة الواردة فى الفصل المعنون بـ «جلابية الوليد عزيزة شرف الدين» . وكان ذلك ضمن محاضرة ألقاها علينا ، حول ذكرياته عن العمل بالطب . وقد أثرت فى تأثيرا شديدا . وفى تلك الليلة كنت قد أهتديت لفكرة هذه الرواية . لم تكن الفكرة واضحة تماما . كانت فى البداية مجرد قصاصات صحف وخطابات ومحاضر وصور ونصوص مختلفة . دور المؤلف فيها هو مجرد أن يختار وأن يصنف ويرتب ، على أساس أن تتكلم الوثائق بنفسها وتقول كل دلالاتها . وكنت قد عثرت على اسم كتاب للأب «هنرى عيروط» عنوانه «مجموعة دراسات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا» . وقررت أن أستعيره لمحاولتى الجديدة، على أساس أنه سيتضمن دراسات بجانب الوثائق . كنت أريد أن

تكون قاسية جدا ، وألا أتدخل فيها على الإطلاق لأكتب شيئا . لعلى كنت قد كرهت الكتابة أصلا ، وكنت أحيانا أرى أننا نكتب كأن الكتب - القصص وغيرها - ستغير العالم . كنت قد كرهت البلاغة حتى النخاع ، وأصبحت أبصق كلماتها وأزدريها إلى حد لا يمكن وصفه .

كان الواقع كما تعكسه الأخبار - وليست المقالات - بشعا ومقززا ومرعبا : القتل والجنون والرعب والخوف والآلام التى لا تطاق ، وكل شئ يداس بالنعال : الأخلاق والعواطف والقيم، والأطفال، ونحن نتكلم ، وغيرنا يتكلم .. ولهذا قررت أن أكتب رواية عارية : مجرد وثائق تلطم وحدها كل من يقرأها . وكنت أيضا أحاول أن أخرج نفسى - كقارئ وكمشروع قصاص وروائى - من أسر «الحدوتة» التقليدية التى عرفها أدبنا العربى . والتى يكتبونها لتسلية «النسوان» فى المنازل ، والأفندية فى المكاتب. كنت قد كرهت الرجل المستسلم لمصيره كالشاة ، والمرأة المستنمية للعبودية ما يجعلها تستحق أن تظل فى وضعها المهين . ومما لاشك فيه أن كل هذه الأفكار قد ولدت فى ظل مناخ من الألم النفسى والغضب كانا يحيقان - آنذاك بى .

بيد أننى فكرت بعد ذلك أن أكتب مجرد مدخل يربط الوثائق بعضها بالآخر. وقد حدث بالفعل أن بدأت فى ٢٤ مايو ١٩٦٩ ، بكتابة برولوج هذه الرواية . وظللت طوال الأسابيع التالية أعيد كتابته، حتى لقد كتبته أربع أو خمس مرّات. وكنت قد أعددت لنفسى مكتبا من أقفاص الجريد ، وكسوته بكارتون سميك . وكان يهتز كراقصة مصابة بمغص مزمن، ولكنها كانت امكانيات السجن . وعلى هذا المكتب كتبت أول فصول هذه الرواية . وقد توقفت عن الكتابة بعد ذلك بشهرين ، فقد صودر المكتب فى إحدى الحملات التفتيشية البربرية . وتزايد الضجيج حولى ، وقل بشكل عام حماسى للعمل

. بعد أن كتبت الفصول الستة الأولى .

وقد شغلت بعد ذلك بأعمال أخرى . منها عدد من القصص القصيرة – وقد صدرت ضمن مجموعتى القصصية «جنرالات بلا جنود» التى نشرت بعد ذلك عام ١٩٩٢ – ثم دراستى عن الثورة العرابية التى التهمت بقية عام ١٩٦٩ والنصف الأول من سنة ١٩٧٠ . على أننى وبعد تحسن الأحوال نسبيا عدت للكتابة فى أوائل سنة ١٩٧٠ . وقد انتزعت نفسى أيامها من دراستى عن «الثورة العرابية» إذ شعرت بإلحاح التجربة على . فأعدت جمع بعض الوثائق من الصحف . وكنت أهتم بذلك أحيانا ، وأهمله فى أحيان أخرى .

وفى تلك المرحلة كتبت فصل «صفحة الغلاف الأخيرة لكتاب الموتى» . و«كتابات مجهولة على حائط مرحاض عمومى» ، وأعدت صياغة مجموعة الفصول التى كنت قد كتبتها قبل ذلك فى كيان متماسك . ثم توقفت فى أواخر يناير ، وعدت إلى دراسة الثورة العرابية . وفى يونيو من العام نفسه كررت المسألة ، ولكنى لم أكتب جديدا ، فقط أعدت كتابة الفصول التى كتبتها من قبل مرة أخرى . وأضفت وحذفت ، وأعدت صياغة أجزاء منها ، ثم رتبتها ترتيبا جديدا . وحددت فكرة عامة للخط الذى ستسير فيه الرواية. ولكن صورتها لم تكن مكتملة تماما . وحتى ذلك الوقت كنت قد كتبت نصف الرواية تقريبا .

وفى أوائل أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، أتيح لى أن أقضى يومين فى زنزانة انفرادية عقابا لى لأنهم ضبطوا لدى مسودة دراستى عن الثورة العرابية ، وكانت مناسبة لفترة طويلة من الوحدة المطلقة فكرت خلالها فى إكمال هذه الرواية ، ورسمت تخطيطا كاملا لها وبمجرد عودتى بدأت العمل من جديد . وقد رأيت أن أبدأ بإعادة كتابة الجزء السابق مرة أخرى .

عند ذاك فكرت فى أن أكمل الفصول الناقصة كما أتصورها لكى تكون فى إطار عمل مكتمل وهو ما فرغت منه طوال شهر نوفمبر . وقد عملت هذا الشهر يوميا تقريبا ولمدة ثلاث ساعات من الخامسة حتى الثامنة – بين موعد تناولنا الشاى وموعد العشاء – فى كتابة الفصول الستة الأخيرة . وعندما اتضحت الملامح العامة للموضوع أعدت كتابة الفصول الأولى اعتبارا من أواسط نوفمبر وظللت أعمال يوميا بنفس الطريقة – وأحيانا مع إضافة فترة عمل نهارية – حتى يوم ٩ يناير ١٩٧١ .

وكان وراء الإلحاح لإنهاء هذا العمل اعتبار أساسى ، فقد كنت أظن أن المكان الطبيعى لانجازه هو المعتقل ، إذا أن التجربة فى حد ذاتها تحتاج إلى مثيرات نفسية لها ، وكنت أخشى أن أفقد حماسى له أو انصرف عنه إذا ما ردت لى حريتى .. وربما كان هذا وهما .. لكننى فى الحقيقة كنت حريصا أن أكتبه فى مناخه وفى الظروف التى تتيح لى أكبر تأثر نفسى بموضوعه .

ولقد كبدنى هذا مجهودا ذهنيا وعصبيا وبدنيا شديدا . فمن ناحية فإن ظروف الكتابة فى السجن مرهقة ، وخاصة فى سجوننا المصرية ، حيث الكتابة ممنوعة رسميا ومن حق إدارة السجن أن تصادر كل الأوراق والأقلام ، وقد تعرضت إحدى محاولاتى الروائية وهى رواية «أحزان شارع القمر» للتدمير وأحرقت أمام عينى فى صيف سنة ١٩٦٨ بعد أن كتبت منها ٧٠ صفحة . ومن ناحية أخرى . فليس طبيعيا أن تتوفر دائما حالة الهدوء فى ظروف يشترك فيها كثيرون فى غرفة واحدة ، وتتباين أمزجتهم ، ويتعرضون لضغوط نفسية تجعل هدوءهم مستحيلا . وأيضا فإن المكان المريح – من حيث الجلسة والاضاءة – كان حلما عزيز المنال .

وقد كتبت بعض الفصول بعد مصادرة مكتبى المصنوع من الأقفاص – على منضدة ذات سطح صفيحى . ثم أعدت صياغة الرواية كلها على منضدة خشبية قصيرة وأنا جالس متمدد على «نمرتى» – فراشى بلغة

السجون – وبالطبع فإن النقص فى احتياجات الإنسان كان يؤثر قليلا فى قدرته على العمل [1].

ولست أنوى أن أقيم هذا العمل ، فأنا أترك ذلك لمن يفهمون فى مسائل الجمال خيرا منى ، بيد أننى حاولت بقدر الطاقة أن يكون نويا حقيقيا لروحى . وقد أردت بهذه المقدمة غير المنشورة أن أسجل ظروف كتابتى له لكى لا أنساها [2].

«صلاح عيسى»

السبت ٩ يناير ١٩٧١ – معتقل طره السياسى

---

١ – تداول كثير من الأصدقاء مخطوط هذه الرواية طوال السنوات التي مضت علي كتابتها ، إذ عز علي العثور علي ناشر لها، ورأى معظمهم أن تنشر هذه المقدمة، وقد ذكرت بنوع من الحنين وأنا اقرأها أنني صاحبت في تلك السنوات عددا من زملائي الشيوعيين المصريين . كانوا قد حلوا ضيوفا علي معتقل طره السياسي – بين ١٩٦٨ و١٩٧١ – وبرغم ضجيجهم المستمر ونقاشهم الذي لا يهدأ، فقد أحاطوني بمناخ من الرعاية النادرة المثال ، كنت قد بدأت الكتابة في السجن ونحن أكثر من ثلاثين ، ثم شتت أكثرنا إلي سجون أخري بعد معركة ضارية مع قائد المعتقل وقتها المقدم عبدالعال سلومة – وكان رحمه الله ساديا نادر المثال – وبقي منا في معتقل طره ١١ فقط أضيف إليهم آخرون . لا أدري أين معظمهم الآن في زحمة الحياة ، لكنهم في تلك الشهور الطويلة قدموا لي ما لا يمكن نسيانه : اعفوني من واجباتي المعيشية التي كنا نتساوي جميعا في أدائها «كنس العنبر وتنظيف دورة المياه وإعداد الطعام وغسل الملابس» وقاموا بذلك كله نيابة عني ، وميزوني عن أنفسهم في النصيب القليل من الحياة التي كان أهلونا يكفلونه لنا – إذ كنا جميعا مفصولين من أعمالنا لسنوات طويلة سابقة وشبه جوعي – فأعطوني ضعف ما يأخذون من سجائر ، وجعلوا الكمية القليلة من البن التي تصل إلينا من الخارج من نصيبي وحدي ، واستمعوا جميعا إلي فصول هذه الرواية وأبدوا فيها آراء ، وشاركوا كثيرا في حمايتها من الوقوع في أبدي ضباط السجن أثناء الحملات التفتيشية .. واني لأذكر شاكرا وممتنا وحانا إلي أيام ربما لم تكن بالدقة أسوأ أيام العمر ، زمالتي للأصدقاء ، عبدالمنعم سعودي «كاتب وناقد» زكريا أمام رجب «طالب وموظف كان وقتها عمدة عنبرنا» ، سعد هجرس «طالب» ، سيد فتح الله «عامل نسيج» ، علي الصباغ «موظف» . حسن الساكت «عامل نسيج» ، ماهر الليثي «محاسب» ، خليل الآسي «محام» ، فاضل الأسود «طبيب بيطري» ، مصطفي عبدالعزيز «وكيل النيابة الإدارية» ، محمد حسين هجرس «فنان تشكيلي» . أحمد ماهر «براد» وعندما انتهت الرواية ، هربت إلي خارج السجن ، من خلال خطة شارك في تنفيذها زكريا إمام وحسن الساكت وأحمد ماهر ، حيث وصلت إلي السيدة فريدة أحمد – والدة ابنتي سوسن – التي خرجت بها واحتفظت بأصولها إلي أن أفرج عني بعدها بأسابيع قليلة .

٢ – صدرت الطبعة الأولي من هذه الرواية عن «دار ابن رشد» – بيروت ١٩٨٠ بعد سنوات تسكعت فيها بين دور النشر في أكثر من عاصمة عربية ، رفضت كثير منها نشرها لسبب أو لآخر ، وكادت المخطوطة تضيع أكثر من مرة بين المطارات والموانئ ، وفي مكاتب الرقباء . وذات يوم من أيام عام ١٩٧٢ ، دارت مناقشة طريفة ، بيني وبين رقيبة مصرية في إدارة المطبوعات حول أسباب اعتراضها علي نشرها ، فكرت طويلا أن أضمها إلي هذه الوثائق والشهادات عن تاريخ زماننا .

ومع أن الأستاذ «سليمان صبح» – صاحب دار ابن رشد – تحمس للرواية ، وكان كريما في إخراجها ، وفي دفع حقوق النشر علي عكس معظم الناشرين ، إلا أن لعنة الحرب الأهلية اللبنانية – باعتبارها بعض تاريخ زماننا – لحقت الرواية ، إذ اختل ترتيب بعض الصفحات أثناء الطباعة ، وحل بعضها محل الآخر ، وتفشت الأخطاء المطبعية . وتداخلت الهوامش في المتون . وحين وصلتني نسخة الرواية المطبوعة ، كان كل إصلاح مستحيلا ، إذ كانت قد وصلت إلي أيدي القراء .

ومنذ ذلك التاريخ ، وأنا أفكر في أن أعيد طبعها ، وها أنذا أفعل ، بعد أن نفدت الطبعة الأولي ، وبهذا تصدر الرواية كاملة لأول مرة بعد أكثر من ٣٥ سنة علي كتابتها!

01 برولوج
صديقى محمود حسن السفروت وموقفه الغريب

برغم أن صديقي «محمود حسن السفروت» كان يصاب أحيانا بحالة من الاكتئاب تجعله قليل الكلام بدرجة ملحوظة فإنه يومذاك كان فى حالة من الصحة جعلته يصر على أن يشرح وجهة نظره المتكاملة ، وأن يعرضها موضحة بالأمثلة والبراهين.

وكنا قد بدأنا الحديث مع بداية الشارع الثامن والثلاثين ، عقب ملاحظة بسيطة ، عن لى أن أقولها لفتاة قصيرة ترتدى ميكروجيبا ، إذ انحنيت أمامها بأقصى قدر ممكن من التهذيب ، قلت لها :

– أود أن ألفت نظرك يا آنستى ، إلى أن ركبتيك تثيران الاشمئزاز ، وأن محاولتك لإزالة الشعر فى فخذيك ، واضحة ، لذلك فإنه لا داعى لهذا الميكروجيب على الاطلاق .

والذى حدث أن الفتاة قد نظرت إلى باشمئزاز ، وقذفتنى بكلمة بذيئة ما كانت أتوقعها . ضحك «محمود» طويلا ، وقال أن الرجعيين من أمثالى يستحقون احتقار الحاضر ، وأن المستقبل سيدوسهم بالأقدام ، دافعت عن نفسى على وقع اهتزاز ردفيها وهى تتقدمنا .

«نظرات الاتهام تحوطك من كل جانب ، فكيف تصدّ عن نفسك الكآبة ؟ ومتى تنمحى نظرات الشك من العيون . وكيف اكتشف فخاخ الريبة فى هذا الطريق الأسفلتى الصلب ؟»

نظرت إليه بدهشة . قلت :

- إننى أبدى رأيا فحسب .

أشعل سيجارة محتميا بجدار فى الطريق . واصل الحديث مستمتعا بكلماته المدخنة . أكد أن موقفى من الحياة يحتاج إلى مراجعة شاملة . قلت أن الست «نفيسة المرادية» - زوجة مراد بك - كانت أجمل نساء زمانها ، وكانت تتمتع بفخذين نادرى المثال ، ناعمين كعمودين من الرخام ، طريين كوسادة من ريش النعام ، ومع هذا فإن أحدا - خلا زوجها ووصيفاتها - لم لم ير هذين الفخذين [(١)] .

وعندما وصلنا إلى سينما «راديو» كان صديقى يد بدأ يثبت لى ببراهين جديدة أننى أعانى من تثبيت على المرحلة الفمّية . واستشهد على ذلك بما سبق أن رويته أنا نفسى من أن والدتى أصيبت عقب ميلادى مباشرة بسرطان فى ثدييها ، وقد استأصلهما الطبيب . وتوزعت على صدور عدد من نساء قريتنا . وهو ما تسبب - بتحليل صديقى - فى حنينى الدائب إلى الماضى كمظهر من مظاهر التثبيت على المرحلة الفمية .

قطعت استرساله لألفت نظره إلى أن «باب اللوق» - وهو باب القاهرة الغربى - كان يقع فى هذه المنطقة غالبا ، وأن «نفيسة المرادية» قد دخلت منه ذات ليلة عندما هدأ الحال وكان «سارى عسكر بونابرته الكبير» قد أعلن الأمان لزوجات الأمراء والكشاف إذا دفعن دنانير معلومة حددها ، فصالحت الست على نفسها ومن معها من الحريم بمبلغ مائة وعشرين ألف ريال فرنساوى ، وعادت إلى دارها فى درب عبدالحق . قلت :

- وكانت جركسية فاتنة .. بيضاء الوجه كشمس ضحى الشتاء واسعة

١- ينبغي أن أعترف أنني لم أر فخذي الست «نفيسة المرادية» إذ لم تذكر كتب التاريخ شيئاً من ذلك، ولكني أردت أن أفحم صديقي، وكنت بالصدفة حلمت حلماً جنسيا في نفس الظهيرة، كانت بطلته نفيسة المرادية وكان ممتعاً بدرجة لا يمكن وصفها.

العينين.. مهيبة ، هكذا رأيتها فى الحلم .

فى تلك اللحظة كان المخبر قد تخطانا فأصبح أمامنا . صغير السن كتلميذ لم يغادر مقاعد الدرس . وقف يتفرج على فترينة تعرض أحذية نسائية ، عاودت البنت الميكروجيبية الظهور قادمة من الطوار الأيمن . باطن الركبة كان لينا وطريا تنفر من ليونته عروق زرقاء باهتة اللون . قال «محمود» أن اختيارها البنفسجى الفاتح لونا لملابسها الداخلية يتناسب تماما مع أديم بشرتها الضارب للاسمرار .

قلت – لنفسى أولا ثم لمحمود بعد ذلك – أن «سارى عساكر بونابرته الكبير» وجد الفرصة للمتعة رغم موقفه الحرج ، فأحب المواطنة «بولين فوريس» وتمتع بشبابها الشهى ، رغم الحصار الخانق الذى أحاط به .

تساءلت :

– لماذا نفشل فى تحقيق أى متعة؟ .

ظهر المخبر مرة ثانية . رفعت صوتى لأؤكد له أننا نتكلم فى موضوع تافه . تمنيت فجأة أن تطفر الدموع من عينى – وكان كتف زوجتى بعيدة عنى ، فعلى كتف من أنحنى لأبكى ؟

مقوسا كان أنف «محمود السفروت» . عيناه واسعتان هازئتان . أما قلبه فكان قد انتزع من قبل زمن طويل مع انتزاع أظافره وتحويل بطنه إلى مطفأة للسجاير [٢] . وربما – وهذا مجرد تفسير – كان سبب ضحكته الباردة التى أجاب بها على تساؤلى الساذج :

٢– وقد حدث هذا – كما يذكر السفروت –أثناء اشتراكه في مقاومة النازية بإحدى بلاد أوروبا الشرقية، تلك الفترة التي كتب عنها ملخصا أودعه عندي، وقد رأيت أن أستشهد بهذا الملخص الذي يقدم خدمة كبرى لتاريخ زماننا، فنشرته ضمن هذه المجموعة من الوثائق.

– أنت لا تمشى على الأرض ، بباطنها تسير .

ساعتها تأكد لى – ربما للمرة الألف – أن صديقى وغيره من الرجال ذوى الدم البارد لا يحنون للماضى . لا يأسون على أبطاله . تركته . بدأت رحلتى تحت سطح الأرض . خانقا كان السرداب لكنه قادنى إلى اتساع لعله كان بهو الحفلات بقصر مملوكى قديم : أعمدته رخامية . نقوشه مذهبة . وحيدة على رصيف المحطة كانت المرأة العجوز تقف . تحمل شمسية زاهية . تخفى عينيها بنظارة سوداء . تابعتها عيناى فى لهفة حتى صعدت إلى القطار .

– هذه فاطمة رشدى .

بلا اهتمام قال «السفروت» :

– من ؟

«هذه البنايات ذات الطراز الانكليزى شهدت الطرابيش والبراقع . اخترق التصفيق لفاطمة رشدى حجاب الصمت عبر السنين فسمعته أذنى ، كانت هنا يوما حانة جلجلت فيها الأصوات ضحكا وانطلاقا ، أما هذه الحديقة الواسعة الكبيرة فكانت جزيرة فى بحيرة ، سكنها «الألفى الكبير» ، «وبونابرته العظيم» ، وقتل فى أحد حناياها «كليبر» ، ومارس رجال لا حصر لهم فى زواياها المظلمة الحب والنشوة : شهدت أفراحا لا تعد ، وأحزانا لا حصر لها ، فكيف تزكم الأنوف ؟»

استدرنا حول حديقة الأزبكية عائدين إلى وسط المدينة ، بدأت الدفاع عن نفسى ، تحدث صديقى عن احتضان العالم .

– «قبله حتى تمتص كل ما فيه من نشوات» .

قلت أن شاعرا تحدث عن إنسان فتح ذراعيه للعالم فصُلب . ضحك .

– «مازلت تصدق الشعراء» ؟

تحدثت عن طبيبى المعالج : فى جلسة العلاج الأخيرة، ضحكت حتى طفرت الدموع من عينى . خلع طبيبى منظاره . أطفأ أنوار الحجرة إلا من شعاع خافت . طلب منى أن استلقى على شيزلونج طويل وأروى قصتى . حدثته عن البسمات الزائفة والأحضان الشائكة وفخاخ الطريق . قال : احك لى حكاية عن بنت جميلة . سكتُ طوّيلا . حدثته عن «ألما روزى» تلك التى عرفتها هناك وسمعت فى حلكة الليالى صوتها :

– أكانت جميلة ؟.

– .... صوتها أيضا كان حنونا بدرجة لا توصف ، هل جربت أن تسمع صوت امرأة فى سجن ؟

هز طبيبى رأسه نافيا :

– أجربت أنت ذلك ؟

– سمعتها ورأيتها هناك . لم أكن أفهم إلا القليل من لغتها .

على مقعد بجوار الشيزلونج جلس ، سألنى أن أصفها له ، قلت :

– كانت جميلة ....

– أعلم ذلك ، ولكن هل تستطيع أن تصفها ؟

– طويلة ، شقراء ، عيونها زرقاء صافية ...

– ورأيتها هناك ؟!

– نعم ....

– متى كان ذلك ؟

– هى هولندية ، مغنية أوبرا ، أو شئ من هذا القبيل ... لست متأكدا .

– ماذا قلت عن اسمها ؟

– ألما ... (ألْما روزى).

– وكان ذلك سنة : ..... ؟

– فى بداية ، الحرب : ١٩٤٠ أو ١٩٤١ .. لا أذكر ..

ناظرا إلى السقف : – بطاقتك الشخصية تقول أنك ولدت عام ١٩٣١ .

– ضبط البوليس ثلاث عصابات تزور البطاقات فى شهر واحد ..

– كنت صغيرا جدا عندما ذهبت إلى هناك ؟

– ربما .

أضاء المكان ، قال :

– توجه إلى الغرفة المقابلة لجلسة الكهرباء ..

ظهرت البنت الميكروجيبية . سارت أمامنا تهز ردفيها ، التفتت إلينا بعينين تطل منهما المضاجعة . خامد الرغبة كنت . واصلت الهجوم على طبيبى المعالج . «كالدرفيل يتغذى بصغار السمك ، وبتاريخ الناس . ما حدث «لألما روزى» لم يحرك مشاعره الجليدية» . مالت مقدمة سيارة مرسيدس رصاصية بعنف تجاه البنت الميكروجيبية . تقهقرت فزعة . بالرغم من ليونة ردفيها فأننى لم أحس بهما . ارتبكت مكونات المشهد . أطل شاب قرمزى الوجه من نافذة السيارة . ضاحكا قال :

– آسف ظننتها خالية .

مضى . شكرتنا الفتاة باضطراب مفتعل [٣].

محمود :

– يا للوقاحة .. الأفضل أن نستريح هناك قليلا .

أشارت يده إشارة مبهمة . حملتنا أقدامنا إلى حديقة جروبى : تحدث الصمت فقال إن عينيها واسعتان وأن الكحل يحددهما فيزيدهما توحشا .

٣– عرفت فيما بعد أن ميرفت السويفي، قد شعرت بخيبة شديدة لأن وجودنا قد أضاع عليها ثمرة مجهودها لاستدراج الشاب المرسيدسي.

شامة متوسطة على خدها الأيسر ، تتبعها اثنتان صغيرتان ، تحدد كلها الطريق من عينيها إلى شفتيها . قال الضوء - رغم خفوته - أن «الكريم» الذى تستعمله افتح قليلا من لون بشرتها السمراء ، وأن وجهها معرض أصباغ رديئة . تحدثت الهالات السوداء تحت جفنيها عن ليال طويلة من الإرهاق . تكلم اللسان مرتبكا فى أول الأمر ، ثم متحفظا لفترة. بعد ساعة من بداية لقائنا أصبحنا أصدقاء .. لا أدرى كيف .

ولأن صديقى «السفروت» كان - برغم قلة كلامه أحيانا - محدثا ماهرا خاصة مع النساء ، فقد ألقى محاضرة مبتذلة عن اعجابه بالفتاة الحديثة التى تناضل من أجل حريتها . وأكد دهشته المفتعلة لأن صديقتنا الجديدة «مرفت السويفى» ، تدرس الأدب الفرنسى بالجامعة ، وتعمل بالسياسة والخدمة العامة فى أوقات فراغها، ومع كل ذلك تجد وقتا لتحقيق ذاتها وممارسة الصداقة والحب . وقلت أن «محمود» لاشك حفيد من الدرجة المائة - وربما أقرب من ذلك - لـ «مسيلمة الكذاب» . لم يشعر بغمزة قدمى تحت المنضدة ، استمر يتحدث عن تحقيق الذات وأهميته فى بناء الشخصية الإنسانية . غنت لى «ألما روزى» عن بيوت مضاءة بالدفء فى قلب العاصفة. عدت مبللا بالثلج المبشور . امتصصت الدفء من شفتيها . صرخت معجبا «الله .. الله» . شوَّش صوت «السفروت» على الغناء ، غمزته بقدمى ، اتسعت ابتسامة مرفت :

- حذاؤك من النوع الحدادى . أخشى أن ينتهى اعجابك بأقدامى ببترها .

انكشف المستور ، ضحكا معا ضحكة قصيرة صافية . ذبت خجلا . خاننى دفاعى عن نفسى . خلال الضحك خطر لى أن الاسم الذى زعمته لنفسها ليس اسمها الحقيقى . كانت تلك عادة منتشرة على أيامنا . عزيت

نفسى – وأنا أشرب ضحكتها – بأنها أكذوبة جميلة سيحتضنها صديقى «محمود» بعد أيام . أين ابتسامة كانت تنير حالك الظلمة ، وتؤنس الخائف والمرهق والغريب ؟ . كذلك كانت ابتسامة «ألما روزى» . غدا نفرغ من كل هذا .. لنعود لوحدتنا المقهورة : لجلسات الكهرباء ، ولسنام الجمل فى قفا الطبيب، أما «محمود» ، فها هو يمهد لاحتضان أكذوبتنا الجديدة :

– فى الحقيقة أن صديقى «شوقى» مصاب بمرض نفسى من أهم أعراضه الحنين إلى الماضى ، وهو يحلم بامرأة تكون فى جمال الست نفيسة المرادية ، ولو استطعت أن تنسيه هذا الحلم فسوف تحصلين على شكر خاص من مجلس الأمن .

دهشة :

– أذكر أننا درسنا شيئا عن الأمراض النفسية ، ولكنى فى الحقيقة لا أستطيع أن أشخص دون فحص .

اعتدل «السفروت» فى جلسته . عابث شاربه الستالينى الغزير بسبابته وابهامه . فرقع بأصابعه مشيرا إلى النادل :

– من المؤسف أن المكان لا يصلح لذلك ، وإلى أن تحل تلك المشكلة يمكننى أن أزودك ببعض المعلومات .

شرعت عينيها مستطلعة :

– حرم صديقى من أن ترضعه أمه وهو صغير .. وتلك مأساة فى الحقيقة .

طافت بوجهها سحابة كآبة عابرة:

– يا حرام.

طأطأت رأسي. شكرت حنانها. أسندت مرفقيها على المائدة أمامنا. تناولت الأنبوبة الورقية، امتصت الكوكاكولا بطريقة جنسية. عيناها مشرعتان ككشاف قوى، مع انحناءاتها اتسعت فتحة البلوزة: صغيرا كان نهدها. أكبر قليلا من ملء قبضة اليد. قمته كانت مدغمة فيه. يتدرج لونها بادئا من الاصفرار الداكن، يخف تدريجيا إلى أن يندمج فى لون بشرتها. «نفيسة المرادية كانت ثقيلة الردف والصدر. فى دسامتها يستريح الرأس المضنى بما يقاسي. براحاً كانت الدنيا. كذلك كانت البيوت والمزارع». فى شحوب الضوء غازلت عينها اليمنى «محمود»، وغازلتنى عينها اليسرى. من المؤكد أنها غزلة بارعة. تشهد بذلك لهجتها: فيها نعومة البحر وملوحته، تثنيه وتأوده، هديره المرعب وهمس النسيم لسطحه فى مقلة القمر، وذلك الغنج الخفيف فى أواخر الكلمات – فمن أى شاطئ يا ترى جاءت؟

«ولأن البحر جميل إذا ما سكن، فعلى سطحه تأملت امتع الأفكار، ومرة قلت لنفسي على سطحه أننى سأحقق المستحيل: أين كنا؟.. متى كان ذلك؟.. صيف أى عام؟.. يبدو ذلك قريباً جداً كأنه الأمس ولعله. من يعيد نشوته للذاكرة؟ وحتام نكابد مستحيل الأحلام؟».

ظهر المخبر على مائدة مجاورة. شاب شعره وتجعدت ملامحه. وحيدا يقرأ فى احتضار الضوء صحيفة تحمل أنباءً تذكرت أننى قرأتها قبل شهرين. من خلفها دارت عيناه فى محجريهما تتابعان كل ما يجرى حوله. سيعود إلى بيته منهكا بهوايته السخيفة. رأسه الضخمة تسجل صوراً مبتذلة لحياة عادية تجرى أمامه. قلت أن ملفا ضخما سيضم صوراً لفخذى «مرفت» العاريين، ومحاولات «محمود» للالتصاق بهما. هكذا تمتلئ الأوراق الرسمية بأشياء مما نجده فى محفوظات المراهقين. ويليق بها آنذاك ما كتب على ظاهرها «سرى جداً»، فهل أستطيع أن أقول ذلك حقا؟.

- لماذا ينظر إلى هذا الرجل؟

ضحكت. نظرت إلى دهشة.

- أؤكد أنه معجب بساقيك.

بابتسامة غندورة:

- لم يكن هذا رأيك قبل ساعتين.

مطرقاً برأسى:

- فى ساعتين تحدث أشياء كثيرة.

«يولد أناس وينتحر آخرون، يتضاجع آلاف من الرجال والنساء، وتلد عشرات القطط، ويموت ملايين الذباب».

- .. إنه مخبر وهذا كل شئ.

«السفروت» مقاطعا:

- «شوقى» شبه مجنون فلا تنزعجى.

ضغطت على كفها جاذبا انتباهها:

- لماذا يقلقك المخبر؟

نظرة حائرة فى عينين منهكتين. فما الذى انهكهما هكذا؟.

- ربما.. كان.. أقصد لعله قد يكون من بوليس الاداب!!

فلتت الكلمة.

- .. أو من شعبة المخدرات.. أو مكافحة النشل.. أو مكافحة الجاسوسية.. وربما مكافحة الشيوعية، فماذا يهمنا؟.. هناك ألف سبب لوجوده. وفى مكان كالذى نجلس فيه لابد أن هناك على الأقل قوادا.. وعاهرة.. ونشالا.. وجاسوسا.. وشيوعياً، فالأفضل ألا تشغلى نفسك به؟

هزت رأسها. نقطة عتمة بنهاية المكان، اقتنصت عيناها. دقت الكف أبواب المدن المحاصرة فى سود الليالى. فصدتها نظرات المرتابين. فمتى

تجد القلوب مفاتيحها التائهة؟ آنذاك نلج إلى فردوس الأمان، نلهو، نلعب، نضحك كما نشاء.

– مرة كنت أسير مع خطيبى فى شارع هادئ بالسويس، ظهر لنا من تحت الأرض كائن سخيف، هددنا باصطحابنا لقسم الشرطة.. وزعم.. زعم آ.. كلاما فارغاً.. لم نكن نفعل شيئاً، لم ينصرف إلا وقد أخذ كل نقودنا.. قتلنى الخزى لحظتها.. ظننت أنه سيذيع على الناس أكاذيبه.

– ....؟

بابتسامة محرجة:

– آ.. كان وقحاً جداً، قال ألفاظا منحطة.. كنت صغيرة.. صغيرة جداً.. حاول حبيب.. خطيبى.. أجل خطيبى، حاول إيقافه بشخطة، ألصق الرجل لسانه بحلقه وأصدر صوتا أنفيا بذيئاً.. مضى زمن طويل على ذلك.. والغريب أنه عرض علينا بعدها أن يحرسنا إذا أردنا أن نتمتع بوقت طيب.. ولكن صديقى رفض ذلك.

محمود– مع نظرة إلى المنضدة التى يجلس عليها المخبر :

– هذا خطأ بالغ من صديقك.

اكتشفت أن الشامات الثلاث على وجنتيها، تتدرج فى انتظام هرمى، كرأس سهم تبدو. إذا ما وافقت عيناها، أشار السهم إلى شفتين تنفرجان فى استسلام: فكيف تدهورت أحوال المرور الأمور فى مدينتا إلى تلك الدرجة؟

أكد «محمود» أن قبلتها تدل على أن ألف شفة قد عضت شفتيها منقبل، وأنهما متهدلتان(٤). كنت قد انتهيت من إعداد دفاعى فى نفس الصباح،

٤– وقد أدلي «السفروت» بهذا التصريح بعد مرور حوالي شهرين علي مقابلتنا الأولي، وأن كان قد ذكر أنه قد قبلها بعد أسبوع واحد من لقائه بها. وقد بدا لي ذلك سرعة خارقة للمألوف لكن اتضح لي بعد ذلك أنها بطء نسبي، فمن المتعارف عليه في بعض الأوساط أن يقبل الإنسان صديقته في نفس يوم تعارفهما.

وهو ما أنعشنى [٥] قليلاً لذلك قلت أن شفتى نفيسة المرادية كانتا قويتين مكتنزتين، وأن قوتهما واكتنازهما كانا مبعث خدر لكل من يقبلها.

صاح محمود بنرفزة:

- أزعجتنا بهذه البلوى.. لماذا لا تحب كائنا حياً؟

ابهجنى توتره.. قلت ببرود:

- نام المخبر على المائدة.

التفت حيث أشرت.. كان غطيطه يعكر شاعرية المكان.

- كأنه بعض الأثاث.. وعلى أى الأحوال فلا شأن لنا به[٦].

أمنت على كلامه بهزة من رأسى، قلت أنه لا شأن لنا بأى شئ هنا.

٥- لم أكن بالطبع أثق بقضاتي، وبالرغم من ذلك فقد اجتهدت في توثيق دفاعي، وبذلت جهداً كبيراً في هذا الصدد. وقد استدعي ذلك أن أبحث في أوراقي الكثيفة عن وثائق ومستندات دفاعي، كما أن عدداً من الشهادات المهمة كان يعوزني، وكان لابد من تصوير المستندات لكي أضمن ألا تفقد النسخ الأصلية، وقد كتبت صورة الدفاع الأولي بقلم رصاص حاد. زارتني صديقتي «الما روزي» وأنا منهمك في اعداده. غنت لي أغنية عذبة الايقاع. فكرت أن أقبلها ولكن الخجل منعني من ذلك.

٦- كان المخبر قد أصبح أحد الشخصيات البارزة في مجتمعنا. وككل المجتمعات فأن فترات تاريخية معينة تعطي بعض الفئات مكانة اجتماعية عالية. وبينما تزايدت مكانة المزارع الغني في بعض السنوات، فان شخصية المحامي قد حلت محلها، حيث كان المتوقع دائماً بعد ثورة ١٩١٩ التي قادها المحامون أن كل المحامين سيصبحون وزراء، وقد لمع نجم ضابط البوليس لفترة، وكان يكني بأبي الشريط الأحمر، ثم الطبيب والمهندس، وأخيراً المخبر الذى ساد لسنوات طويلة. ولأن مقياس البروز هو اقبال الفتيات علي التزوج من فئة بعينها، فقد انعكس هذا علي إعلانات الزواج التي كانت تنتشر في عدد من صفحنا المحلية، وخاصة الأسبوعية منها. وقد ذكر لي صديق صحفي -يحرر بعض تلك الأبواب- أن العبارة الشائعة في معظم هذه الإعلانات هي طلب الفتيات التزوج من «رجل ناجح أمامه مستقبل مرموق، قوي الشخصية، مخبر أو ما في مستواه». وبالطبع فإن صديقي كان مهموما لأن البنات الجميلات تفضلن المخبرين. وقد أصبح من الأساليب الشائعة لاجتذاب الفتيات فى مدينتنا الزعم بأن للإنسان قريباً مخبراً، وكان بعض الشبان يتحدثون عن مهنهم أمام الفتيات بغموض متعمد، لكي يوحون لهن بأنهم يقومون بتلك الأعمال السرية الخطيرة.

«جاءت «ألما روزى» إلى زنزانتى، وكانت تحمل الكمان، قالت:

– أأعزف لك؟

هززت رأسى موافقا، أطل واحد من الزنزانة المقابلة، صاح:

– برافو «ألما»..

فى عينيها الزرقاوين سبحت. صبوحا كان وجهها، كأنها بالندى غسلته. تساءلتُ :

– أليس لديك عمل اليوم؟

توقفت عن العزف:

–.. لا.. أمس يوما مرهقا.

فكرت أن أسألها عما يحدث هناك فى العنبر (25A) خشيت أن تنصرف وتتركنى لوحدتى. عادت إلى العزف، تحدثت طويلاً عن هولندا، سمعت بنصف أذن وفكرت فى أنها تتصرف كما لو كانت لا تلاحظ شيئاً: ثابتة، هادئة، رشيقة الخطوات، كما ينبغى لمغنية أوبرا شهيرة. قالت فجأة:

– لقد ضموا ثلاثة أعضاء جدد إلى الأوركسترا... أصبحت أكبر من تلك التى عملت بها فى «لاهاى».

تحدثت عن الشوارع والبيوت هناك. قالت أن العازفين الجدد أحدهم بولندى:

– ومنهم فتاة هولندية صغيرة، وجميلة جداً، تتقن العزف باقتدار. وأمس صرخت وكادت تسبب كارثة.

تحدثت طويلا عن العنبر (٢٥أ) وما يحدث فيه. أحمر كان حد الأفق. طيور قليلة تهرب بعيداً، ارتعدت وهى تروى. فكرت أن احتضنها، ارتجف صوتها شبقا للدفء.

قال صوت فى الزنزانة المقابلة:

- الكلاب..

دمعت عينا «الما روزى» وهى تنظر بعيدا [٧] تعلقت عيناها بلوريات ضخمة تتحرك عند الطرف الآخر من المعتقل قالت:

- سأعود للعمل. يبدو أنهم سيحرقون شحنة كبيرة اليوم..

«فى تجويف الرأس تشاجر اثنان. أخرج أولهما بندقية، أطلق الرصاص. أصاب قشرة رأسى من الداخل، تحسستها فلم أجد دماً، قلت أنه من المأمول ألا يحدث نزيف داخلى، فهل تصلح هذه الحادثة جزءاً من دفاعى؟. وهذا التناثر المفتت لا يجعل لأى شئ شكلاً محدداً. فى شحوب الضوء تبهت الملامح، ولا يصبح هناك فرق بين وجه ووجه، ويسهل الكذب دون خشية افتضاح. ولا أمل إلا فى أن تنشطر ذواتنا كهذا الذى أراه أمامى. وكثيراً ما يبدو «السفروت» مجرد وهم صنعته بنفسى فى ليالى الوحدة الطويلة. من المحتمل ألا يكون جالساً معى، ففى العتمة تبدو المقاعد كالرجال»[٨]

٧- كانت «الما روزي» قائدة أوركسترا المعتقل، وكانت تتلقي تعليمات مشددة لتبدأ العزف مع بداية العمل في الأفران لكي تغطي علي الأصوات والصرخات. وكانت الأوركسترا تقف دائماً في منتصف الطريق بين العنبر «٢٥أ» وبين أفران الحريق. وفي بعض الأيام كانت اللوريات الضخمة تأتي لكي تنقل جثث الموتي ومن نجوا من الغاز من العنبر إلي الأفران. وغالباً ما كان الأحياء يكومون في اللوريات وسط الجثث حتي تغمرهم. ولأن معظمهم كان عجوزاً أو مريضاً لا حراك به. فإن الجثث كانت تتساقط فوقهم وتمنعهم من الحركة. وعندما تسير القافلة الكئيبة لا يصدر عنها صوت ولكن حين تعرج العربات في الطريق المؤدي إلي أفران الحريق، تنهض النساء من تحت الجثث وتطلقن في رعب صرخاتهن الأخيرة.. ولم تكن رحلة الموت تستمر سوي بضع دقائق. ولكن الصرخات كانت تطن دائماً في آذاننا وتتسلل عبر نوافذ الزنازين. إذ ذاك كانت الأوامر تصدر لـ«ألما روزي» لتبدأ العزف بيد أن الفوكس تروت وموسيقي الرقصات المجرية لم تستطيع أن تغطي علي صرخات المسوقين إلي الموت، وكانت «الما» تبحث عن نغمات تكون أكثر ارتفاعا، وقد سألتني مرة عن نغمة من هذا النوع فوعدتها بأن أرسل في استدعاء ندابة قريتنا، بعدما تنتهي الحرب وتصبح الطرق مأمونة.

٨-من المؤكد أنني لست مصاباً بانقسام في الشخصية، وبالرغم من أن «السفروت» هو شخصية منفصلة تماما، إلا أننا نبدو أحيانا كوجهي العملة الواحدة، وأنا أحرص علي تأكيد ذلك حتي لا يستغل ممثل الاتهام هذه النقطة لتشويه دفاعي. إنني أعرف «السفروت» منذ زمن طويل، وأحيانا تبدو لهجتي في الكلام لهجته، وأحيانا يبدو ما حدث له كما لو كان قد حث لي. ولكن هذا لا يعني أننا شخص واحد.

(... تحت الشجرة التى تتوسط حديقة «جروبى»، كان أبى يجلس مكتنزاً بلحمه وشحمه مستنيما للراحة فوق شيزلونج طويل، وقد أخفى صلعته بطاقية جديدة. وبدا طقم أسنانه نظيفاً منتظما، وأحاطت بعينيه نظارة طبية، صوته وحده كان خافتاً. ارتميت مرهقاً على مقعد بجواره، تأملت صف الأدوية الطويل على الكوميدينو. أصوات الدجاج والبط فى باحة السطح. المقابر والمزارع تبدو من بعيد عبر النافذة:

– لم تعد تأتى إلى القرية؟

اعتذرت اعتذاراً سخيفاً لم أعن كثيراً بأن يكون محبوكاً، لم يهتم كالعادة به. سمعته بنصف أذن، فكرت فى أن أسافر إلى المدينة فى المساء. استمر:

– أود أن أفضى إليك بأمر هام. قررت أن أتزوج.

لم تعن الكلمات شيئاً. تذكرت فجأة أنه عجوز جداً.. متى استبدل أسنانه؟. لا أدرى. وأنا أنظر فى عينيه اكتشفت أن لونها بُنى فاتح، لون عينىّ، ولكن فرحتى بالاكتشاف سرعان ما باخت.

كان قد بدأ دفاعه الحار عن قراره. لم أكن قد طلبت منه ذلك. بيد أنه شرح لى الموقف بافاضة شديدة، تحدث عن أمى. عن تقديسه لذكراها. كدت أضحك قلت أن التهاب البروستاتا المزمن يوحى بالحيوية الدافقة فى حين أنه فى الحقيقة نذير الموت.

– السيدة التى قررت أن أتزوجها ملاك حنون، وأنا أحبها.

وأنا خارج، تناولت إحدى أنابيب الدواء:

– هل آخذ هذه؟

بنظرة دهشة:

– طبعاً. لم تقل رأيك؟

سلمت عليه بوقار شديد. وعيناى هاربتان إلى القبور، مضيت).

***

(... ونحن نصعد مرسى الأتوبيس النهرى، واجهنا الشاب الطويل. سلم علينا بحرارة. مضت لحظة قبل أن أعرفه. قال محمود:

- أخى «على». هل نسيته؟

ذلك الطفل الذى كانه: أين ذهب. كيف أنساه؟: كان معها فى ذلك الصباح. آخر من رأى ابتسامتها قبل أن يغتالها الترام. بذاكراته الجهنمية عذبنى طويلاً وهو طفل. عيناه سنجابيتان كعينيها فهل تدق الكف ثانية أبواب المدن المحاصرة؟.. أصبح شابا متدفق الحيوية، الدليل: نظرة خصته بها الفتاة التى معه. بحسرة تأملت شبابه. غبت عن المكان دون أن تفارقه العين. تسمع الأذن موسيقى الزمن القديم: ضحكتها الخافتة الخجول، رنوة العين إذ تضئ الظلام: يخفق القلب حتى لتظنه موقظ الموتى. فلتهنأ الديدان التى التهمت كل هذا.. يقول لشقيقه:

- سأسافر السويس فجراً.. ربما مررت عليك فى المساء.

لمعت النجمة الذهبية على كتفه، بدا وسيما فى زيه العسكرى:

- والأحوال عندكم؟

-.. عال

- تبالغ الاشاعات فى عدد القتلى.. فهل هذا صحيح؟

ضحك..

- ليس بهذه الدرجة. لكن لا حرب بلا قتلى.. المهم أننا نحارب!

وأنا أتأمله فى طريقه إلى الأتوبيس النهرى:

- يتخرج أبناؤنا من الجامعة، ويتزوج أباؤنا للمرة الثانية، أما نحن فنمارس العادية السرية.

ضحك السفروت طويلا:

- لا أمل فى خروجك من قوقعتك.. والحقيقة أن الدنيا مليئة بكل ما هو

مبهج وجميل: زهور وأطعمة ونساء.. فلماذا لا تفتح قلبك للدنيا؟.

سرعان ما يبدو كل شئ خدعة كبرى، وكيف خمد حماسك للكثير من الأشياء؟.

حتى الأطفال يبدون مجرد تكوينات لحمية لا معنى لها، أما المربيات فما أتعس أمومتهن المأجورة، وهى مثلنا فى مركز المراقب: تتأمل الأطفال بشغف، بعكس نظراتنا الملولة، ليمونة صفراء ذابلة. متغضنة الوجه. وليس كشراهة صدرها لالتهام الأنفاس شئ سوى نظراتها للأطفال. لكزنى محمود بمرفقه:

- شوقى.. مومس بلدية.

لم تكن طفولتى سعيدة، حرمت أن أرضع ثدى أمى، ويوما بكى «على» وقذف بالحقيقة المرة فى وجهى «صدمها الترام ونحن عائدان من المخبز»، فكيف أصبح جمالها العذرى بعد كل تلك السنوات؟. سمن الدود، تناسل بفتنتها الشهية.

تفجرت فى صدر «السفروت» رغبة مفاجئة فى العبث، استند على حافة الكورنيش. ظل يترقب نظراتها حتى اصطادها بنظراته. أومأ إليها برأسه. علت الدهشة كل ملامحها كأنها لا تصدق. عندما تأكدتْ من معنى إشارته قامت. خطت فى اتجاهنا. تقدمناها. بين لحظة وأخرى يلتفت «محمود» يشير إليها، أدركت لاشك أننا نخجل من السير معها، بدا هذا فى نظرتها عندما التفت لأراها. طالت الرحلة. أقدامى منهكة. أحاول أن أسأله. يهرب السؤال منى. وجهها يلتهم زحام الوجوه المتصارعة داخل رأسى: أصابعه ثقيلة. نظراته متسولة. بالحزن الصامت اتشحت. يمشى «محمود». تمشى هى. أمشى أنا. يمشى. تمشى. أمشى. نظراتها تشحذ لحظة راحة.. كوباً من الشاى.. غذاء حتى لو لم يكن شهياً . يمشى. تمشى. أمشى.

ماتت «ألما روزى» فى ذلك الصباح: يوم ثلجى عاصف وبلا شمس: فى الفجر جاءت اللوريات، أيقظنى صوتها. ساق السجان جارى إلى العنبر الخامس والعشرين، قاومة الجار. لكمه السجان، حمله على كتفه. مضى به. فى اتجاه أفران الحريق سارت اللوريات. بحثوا عن «ألما روزى». لم يجدوها. استمرت الفرقة تعزف أنغاما عالية بآلات نحاسية ضخمة. تركوا موتورات السيارات تعمل لكى تغطى على الصرخات. سمعت صرخة جارى. ميزت بين الصارخين صوته. توقفت الموسيقى فجأة. جرت قائدة الأوركسترا. بجوار حائط العنبر: وجدوا جثة «ألما رزوى» مطمورة تحت الثلوج. كانت قد انتحرت فى بداية الليل».

....

غمزنى محمود منبها. جرنى لنقفز فى أتوبيس منطلق. نظر عبر نافذة السيارة المنطلقة. لوح بكفه مودعا: قهقه. قهقه. ألصقت وجهى بزجاج السيارة الخلفى. كانت تقف حائرة لم تفهم بعد ما حدث. ملامحها تغيب، السيارة تمضي، وجهى مازال ملتصقا بالزجاج. وجهها يبعد، يبعد.. سألنى «محمود :

– ما رأيك فى هذا المقلب ؟

أخفيت وجهى الخجول فى هيكل السيارة .

***

«ستار من الدخان كان قد ملأ الجو فى المساء. الليلة مظلمة تماماً. رحلتى كانت فاشلة. صرخاتها تدوى فى أرجاء المستشفى. تتسلل عبر الليل والصمت. ماذا فعلت الآن؟. اختنق كل شئ فى الظلمة. سألنى صوت مراهق عن هويتى. قلت أننى نسيتها فى المنزل. مد يده.. أوقفنى بجواره. قال:

– عملك؟

– لا شئ.

– أين تسكن؟

– فى اللامكان. أبحث عن سكن ملائم.

– اسمك؟

نفخت فى الظلمة:

– فى البداية كان اسمى «شوقى». ولعدة سنوات سمونى بأرقام مختلفة «٧» أولاً ثم «١٣» وأخيراً «٢١» اختر ما تشاء [٩]. أما اليوم فاسمى «شوقى الحزيرانى».

لم أتبين آثار كلماتى على وجهه. الظلام خانق. قليل من الناس يمضى مسرعاً. تقول ذلك أصوات الأقدام. تهامس الشاب مع عدد من زملائه. فى الظلام تحركت موجات أصواتهم مشحونة بخوف «مجنون.. مجنون»، «ربما كان جاسوسا»، «يتكلم العربية كأبناء بولاق». عاد الصوت الذى كان يتحدث معى يقول:

– نحن فى حالة حرب.. وأنا آسف.. سأضطر لحجزك حتى تتضح هويتك.

متعجباً:

– انتهت الحرب منذ يومين. عدت من هناك صباح اليوم. كل شئ هادئ

٩- في مدينتنا كما في أي مدينة كبري ينتشر الان استخدام الأرقام -بدلا من الاسماء- للدلالة علي الشوارع والأحياء، وقد انتشر هذا بالنسبة للأشخاص أيضاً. وفي دراسة حديثة قيل أن السبب في هذا يعود إلي الرغبة في الاقتصاد في الوقت والجهد. ويقول مؤلف إحدي موسوعات الخطط - ولا أذكر ما إذا كان «الجبرتي» أو «المقريزي» أو «علي مبارك» - أن أول من استعمل الأرقام للدلالة علي الأشخاص، هم رجال الضبطية أو الجندرمة -أي الشرطة- وكانوا يتبعون هذا مع المساجين والجنود لتسهيل العمل وضمان السرية لبعض التحقيقات. وبالنسبة للمساجين فان المسجون كان يأخذ رقم الزنزانة التي يقيم فيها.

تماماً أما هويتى فقد نسيتها فى السيارة التى عادت بى.

– ماذا أخرجك فى هذا الوقت المتأخر؟!

– ذهبت أبحث عن حانة أشرب فيها فلم أجد. و«الغرزة» أيضاً مظلمة بسبب قيود الاضاءة، كذلك البيت الذى تعودت أن أرفه فيه عن نفسى فى بعض الليالى. وجدته مغلقا. علقوا على بابه لافتة تقول أنه مغلق بسبب الحداد. بكت مدام «صفية» على كتفى طويلاً، وقالت أن عشيقها قتل فى الحرب.

صمت الشبان. قال صوت مختنق بالبكاء:

– أنا آسف، تستطيع أن تذهب حيث شئت.

لم يكن المستشفى هو ما أشاء. تعالى الصراخ قبل أن أغادره كطبول غابات استوائية، فى شلاله: تناثرت مزق منها، ضغطت على قلبى. جرح. فى عتمة قائظة هربت إلى الطريق. مع العودة رأيت الطبيب يدخل الحجرة متثاقلاً، فى انفراجة الباب جاءنى صراخها الأخير. تحركت ببطء. قست طول الممر الرفيع بخطواتى ثم البلاط وقالت أختى أن ما فعلته لا معنى له:

– كيف تترك زوجتك بهذه الحالة وتخرج؟ إلى أين ذهبت؟

....

«رحلة شاقة فى ظلمة قائظة ثم العودة بحصاد خائب. تحقيق مرهق فى عرض الطريق». تعالى الصراخ كالطبول. رأسى ينشطر إلى أبسط مكوناته. فُتح الباب أخيراً. خرج الطبيب بقامته العملاقة والسيجارة فى فمه. أسرعت إليها. كانت شبه غائبة عن الوعى. تفصد العرق فى جبينها: مسحته بكفى. استقرت يدها فى يدى تضغط عليها فى استغاثة. قبلت شفتيها المنداتين بالعرق بينما الوليدة الصغيرة تصرخ بين يدى الممرضة: كومة من اللحم الأحمر الصغير. نظفتها الممرضة بقطنة كبيرة مبللة بزيت البرافين.

ساعتها امتصصت ملامحها الدقيقة. عيناها حمامتان. تصل رموشها إلى منتصف أعلى الوجنتين. نظراتها غير محددة. احتضنت جسدها الرقيق. قبلتها. احتوى الظلام كل شئ فى الخارج. حكت «الما روزى» مرة عن طفل تحلم به، تغنى له، فأين هى الآن؟!. ربتت الممرضة كتفى. تناولتها منى. بدأت تدفع عربة ذات عجلات تحمل زوجتى: غابت فى نوم أشبه بالاغماءة. سرت بجوارها حتى باب المصعد. ضغطت على الزر. نزل بطيئاً. قالت «السستر»:

– نرجس، حجرة المدام رقم «١٢٥أ».

– لا

كأنما لا تفهم:

– أتكملنى ؟

استعدت بعض هدوئى:

– لا داعى لهذه الغرفة.. نريد غيرها؟

– أنها حجرة على النيل!

– لا يهم.. أتشاءم من هذا الرقم.

صمتت قليلا:

– ليكن.

* * *

أنهى السفروت روايته قائلا:

– وأقسمت لى– أعنى «مرفت»– إننى أول رجل فى حياتها، ولكننى لم أصدق.

– أطنان من القسم الكاذب تخرج كل يوم فى قمامة المدينة.

– وأقسمت لها أنها أول امرأة تحرك رجولتى الكاملة، فتظاهرت بأنها لا تصدق.

- لم تكن كذلك «نفيسة المرادية» ولا «شهد دار»- ولا «ألما روزى»!

- ودعوتها لكى تتأكد بنفسها أن قبلتها تثير مراكز الإحساس الذكرى لدى، فضربتنى على يدى وقالت أننى وقح.

- ... زارتنى «نفيسة المرادية» ظهر اليوم وأنا جالس فى مكتبتى، قالت أنها ستضرب «برطلمين الرومى»، كتخدا مستحفظان، لأنه تجرأ وأهان إحدى وصيفاتها.

- وقلت أننى مثلك حرمت أن أرضع ثدى أمى وأنا طفل، وأن هذا يجعلنى ضعيفا أمام صدور النساء.. فابتسمت بخبث.

-... وسألتنى عما إذا كنت مريضا. ربتت رأسى المتعب، ربطته بمنديلها المعطر. حملتنى.. وضعتنى فى سريرى.. طلبت منى ألا أغادره. طلبت منها أن تحكى حكاية.

- وستأتى بعد قليل.. سنشرب بعض الويسكى، ونتحدث عن «فرانسواز ساجان» فهى بها معجبة، ولدى حديث عن المركيز دى صاد، قد يفتح أمامنا أبواباً وأبواباً.

- وحكت لى عن زوجها «على بك الكبير»، وتابعه «محمد أبى الذهب»، وحذرتنى من الخيانة.

- أيها الغبى.. دعك من نفيستك، أصح.

- بكت خيانة التابع الوفى، قالت: كان يوما كالخاتم فى يد زوجى.

«فكيف تختبئ الجيف فى عمق القلوب، وإلى متى ندق أبواب المدائن المحاصرة»؟!.

بنظرة طويلة:

- لا فائدة من الحديث معك.

-.. حدثتها عن الشراك والفخاخ. وجاءت «شهد دار»، فبكت لأن زوجها

خان ذكراها، وهو الذى كان يجن عندما ماتت، ثم تزوج فى عيد الفطر التالى، فأين القلوب التى لا يلوثها الجفاء!

- قلت أن «مرفت» ستأتى بعد قليل..

- أعلم هذا، ولكنى استأذنت «نفيسة» و«شهد دار» فى أن أضم ما روتاه إلى مذكرة الدفاع التى أعدها لتقديمها للمحكمة، فرحبتا بكل سرور!

صائحاً:

- دفاع عن ماذا؟

- من الضرورى أن يكون الإنسان متهما بشئ ما.. أى شئ.. لذلك فكرت فى إعّداد دفاعى.

- احتياط واجب.. ولعلك تفكر فى ارتكاب جريمة.

عدت إلى الخلف. حسوت رشفة كبيرة من كأسى. تخايل عند الباب شبح من الماضى:

- وربما ارتكبته، وامس حدثت صديقتى «نفيسة المرادية» كثيراً عن نظرات الاتهام وفخاخ الشك، وقلت أن العالم أصبح مرهقاً، فقالت إن هذا مرض قديم لابرء منه، فأطلعتها على شهاداتى ووثائقى فضحكت حتى لمعت بالدموع عيناها.

....

«ذلك الطفل كم كان جميلاً. فى زحمة الأتوبيس لحظته عينى المرهقة يشق طريقا إلى النافذة. دعوته إلى. أجلسته على ركبتى. غاب بصره فى الطريق. أهناك شئ فى الحياة يستحق مكابدة العذاب؟. أفقت على يد ضخمة مشعرة تشد الصبى فى غيظ حاولت التدخل. قال: لا شأن لك.. قلت: ولكن الطفل يريد أن يتفرج على الطريق.

بغلظة قال: عيب.. أنت رجل كبير.. تزوج وتب.. قلت: لا أفهم. قال: اصمت وإلا فضحتك، قذر. بصق على الأرض».

....

قهقه السفروت طويلاً وقد سمع حكايتى. أردفت:

– أمس زارتنى تلك المومس البلدية، سألتنى عما فعلنا، قلت: كنا نمزح فلا داعى للحزن، قالت: كنت جائعة وظننت أننى سأجد مكاناً أستريح فيه. عاتبتنى عيناها عتاباً مراً.

– هذه جرائم خطيرة فعلاً.. أنت فى حاجة إلى محام ضخم، «الهلباوى» أو «مكرم عبيد»، ولكنهما ماتا للأسف.

– هذا ما ظننته، لكنى سأدافع عن نفسي، بذلت مجهوداً ضخماً فى تجميع الوثائق والشهادات، ورأيت أن أعرضها عليك!

بدهشة...

– على أنا؟! لماذا؟

– أتهمتنى بالسير بباطن الأرض.

– هذه تهمة لا عقوبة عليها.

– من يدرى..

– لا بأس من سماعها ولن يمنعنى ذلك من سؤالك: أعادت زوجتك من السفر؟!

– ليس بعد.. البنت مريضة.

– ألف سلامة. نستطيع أن نمضى الليلة فى بيتك: نسمع السيمفونية التاسعة ونشرب ونتعشى ونرقص.

أشعل غليونه.. أبعدت وجهى نافراً عن رائحة الطباق الكريهة.

– معقول أن نتعشى ونشرب.. ولكن كيف نرقص؟

– عرفت.

كان الغروب رماديا وداميا عندما بدأت دفاعى :

02 الشهادة الأولى

الحصـــــار

فى يوم ما، من سنة ما، إذ ما أهمية السنوات، سلمني صديقى «الدكتور محمود حسن السفروت» هذه المجموعة من الأوراق، زاعماً أنها تسجيل أمين ودقيق لتجربته فى معتقل «أوشفتز» النازى، وكانت الأوراق موضوعة فى ظرف أصفر نصف فولسكاب، مكتوب على حافته العلوية «الجمهورية العربية المتحدة- وزارة الصحة العمومية» وهو ما أكد لى أن صديقى قد اختلسه من عهدته المصلحية. أما الأوراق نفسها فكانت من القطع المتوسط، والكتابة بقلم رصاص خفيف، وفى كل صفحة ٢٥ سطراً، وبدون عناوين جانبية أو علامات ترقيم، وقد اضطررت لوضعهما لتسهيل القراءة.

وفيما بعد ناقشت صديقى فى محتوياتها، ذاكراً له – فى شك- أن الحوادث الواردة بها ترجع إلى عام ١٩٤٠، وإنه كان فى الثامنة يومذاك. فأكد أنها حدثت بصرف النظر عن التاريخ والمكان، ومن المحتمل- كما زعم- أن يكون قد عاصرها وهو جنين ببطن أمه. وإذ عجبت لذلك ذاكراً له أننى عرفته حتى وهو جنين ببطن أمه [1] . وأن النازية قد اندحرت تماماً ونحن أطفال صغار، فأفاق العالم من كابوسها الرهيب ومضت دون أن تهرس رؤوسنا الغضة، أو تغتال أحلام طفولتنا . يومذاك. ضحك طويلاً، وقال أنه قرأ فى قصيدة أخيرة لصديقه الشاعر «أمل دنقل» بيتا يقول:

«لا تحلموا بعالم سعيد»

«فخلف كل قيصر يموت.

«قيصر جديد..» وأردف :

١- هذا مجرد تشبيه بلاغي لاغير.. ولا يعني أنني والسفروت توأمان أو أننا شخص واحد ولكننا نعرف بعضنا من زمن طويل.. طويل جداً. وهذا شيء ثابت في بعض محاضر الشرطة.

– ليس مهما متى حدثت ولا أين. ربما كانت حلماً أو كابوساً . أنني أعطيك إياها لأنني أعدت قراءتها فوجدتها سخيفة ومملة – وهى تحدث كل يوم على مدار الزمن ، كالولادة والموت .

[تحدث طبيبى المعالج – بين جلستين من جلسات الكهرباء – عن بعض الناس الذين يتقمصون عادة ما يقرأون أو يحملون أنفسهم مسؤولية شيء لم يرتكبوه ، وقال أنه نفسه غامره هذا الشعور مرة ، وأنه يحدث غالبا لبعض من يتعرضون لتجارب حادة او مفاجئة . وسألني يومها عما إذا كنت قد أعجبت بشخصية روائية أو تاريخية اعجابا مفرطا «أعنى إلي حد أن تعيش معها ليل نهار أو تتخيل نفسك أحيانا فى ملابسها أو تردد كلماتها. عجزت عن الإجابة. دعانى إلى جلسة الكهرباء وهو يبتسم ابتسامة خافته].

ولفترة ، ظننت أننى كنت هناك فى «اوشفتز» ذلك أن الوقائع الواردة فى الوثيقة لم تكن غريبة على . بل وقد وجدت آثار القيد الحديدى علي رسغى ، وأكثر ما عجبت له، أن منطقة البطن فى جسدى التى تبدأ – ككل الأجساد – من أسفل القفص الصدرى إلى ما قبل منطقة الحوض بقليل ، كانت تبدو كتضاريس جبل وعر، مليئة بالمنخفضات والمرتفعات ، ولون جلدها شديد الاحمرار، كأنها سلخت يوما . وكنت أغطى تلك المنطقة بطبقة سميكة من المشمع الطبى اللاصق، ولم يكن أحد يراها . حتى أنا نفسى كنت استبشع منظرها . فإذا خلعت ملابسى لاستحم أغمضت عيونى. وهو ما كان يحدث فى كل مرة استبدل فيها المشمع بآخر. ومرة قرأت فى مجلة طبية مقالا عن «الحروق فى منطقة البطن» وكان مزودا بنماذج مصورة منها. بعضها شديد الشبه بتلك التى كانت ببطنى . ولكنى بالطبع لا أذكر أن أحدا قرب نارا من هذه المنطقة. وبرغم أن حماسى لما كتبه «السفروت» كان قليلا، فقد رويته يوما لصديقتى «شهد دار» ، وكانت قد جاءت شهية الحسن،

معطرة . غنت لى على عودها أغنية حزينة. سمعت وثيقة «السفروت». قالت:

– ولكن لا جديد فى هذا سمعت منه الكثير.. وقد حدث لزوجى «المقرّ الشهابى أحمد ابن الجيعان » فى سنة ١٥١٧ ميلادية على يد ملك الأمراء «خاير بك» .

باخت حماستى للوثيقة ، فكرت فى أن أمزقها . لكن الجلسة الأولى فى محاكمتى كانت قد عقدت فى المساء. وكان ذلك فى شرفة منزلى، كان القفص مليئا بالمتهمين.

قال القاضى :

– المتهم «يوجين ليامز» من مدينة «فورت بيرس» بولاية فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية.

وقف زنجى اسود طويل القامة، شاب النظرات ، قال :

– موجود يا أفندم . والتمس التأجيل .

– سننظر فى الطلب ، المتهم «شوقى عطية السباعى» ، المولود فى قرية بشلا مركز ميت غمر . دقهلية – مصر .

وقفت ، نظر الى القاضى نظرة طويلة .. قلت :

– موجود يا أفندم .

وضعت أمامه على المنصة ، أوراقى فى مظروفها نفسه .. قلت :

– أقدم هذه الشهادة .

أخرج القاضى الأوراق . قال بعد أن نظر اليها نظرة طويلة :

– ولكنك لم توقعها من أثنين من الموظفين .. لا يقل مرتبهما الشهرى عن عشرين جنيها .

لم أرد .. هبط الليل ثقيلا .. والقاضى يأمرنى .. بقراءة نص شهادة «السفروت» .

[«عملاقا» كان. له ألف ذراع، احتضننى . ضغط بذراعيه القويتين كيانى النحيل . نظر إلى بعينين يطل منهما احمرار كقلب الجحيم. استمر يضغط ويضغط . من أين ظهر ؟ . كيف جاء ؟ ضربته لاكما. آلمت عضلاته الصلبة كفى المضمومة .

« .... ذلك العطر أعرفه جيدا .. تنتشى من عبيره حواسى. تسلل مع نسمات ليل الخريف عبر الصالة. جاء ممزوجا بنغم «الجرامفون» يهمس بجوار سريرنا . فى مواجهة الشرفة استلقيت علي شيزلونج طويل أتأمل عبر ستارتها الشفافة مسطحا فى سماء مدينتنا يخترقه جزء من المئذنة المواجهة لشرفتي . سيجارتى تحترق دون أن ارثى لها . تنشق الأنف عبير «لافام» كما تنشقته أول مرة رأيتها ، وأول مرة قبلتها ، حتى حين مرغت وجهى بين نهديها . عطرها كان صديقى . أراها فيه . أشمه فيها . لحظة زفافنا كان البحر يهدر فى الخارج. صوت أمواجه يعلو. كانت تتوشح بخجلها رغم سنوات طويلة من الحب والألفة . انسدل شعرها يخفى احمرار وجنتيها .

فوّاراً كان البحر . اقلعت سفنى . نشرت شراعها فى مواجهة الريح العاصفة ، أدرت دفتها بمهارة . فى الصباح كان الشط قد غسل، رماله البيضاء كالحرير ناعمة . أقدامنا أول الآثار التي داست فوقه ، شجيرة خضراء فى قمة تل الرمال ، نحلة تحوم حولها. تستقر فوق زهرتها البيضاء. تقضمها بسرعة. تطير علي ارتفاع ضئيل. تعود لتكرر مافعلته ..

كانت ستأتى بعد لحظة . أفسحت لها مكانا بجوارى على الشيزلونج ، هذا الدبيب الخافت دبيب أقدامها . هى لاشك تحمل صينية صغير فوقها عشاؤنا . هذا الصوت الساخط صوتها وهى تزجر قطتنا . سارت بين أقدامها كالعادة ، لمحت برصا صغيرا. تسلل من خلف دولابنا . جرى

مسرعا . اختفى اطفأت المصباح. أضأته فجأة، ضبطته يجرى .

فى تلك اللحظة احتضننى العملاق. ضغط بذراعيه القويتين كيانى النحيل. نظر الى بعينين واسعتين بلا رموش . حاجباه ناحلان حتى أننى لم أرهما. استمر يضغط يضغط أين هى؟ . هذه الصرخة المرتعبة أهى صرخة القطة؟ .. أداس عليها الجمل ؟

ماتت لا شك !! » ..

....

كنت عطشانا . قبل أن أنام أخفيت وجهى فى الوسادة كى أحمى عينى من وهج المصباح . اليد التي تهز البدن مشعرة كيد القرد . بيد أن الوجه هو نفس الوجه ، سمينا متكورا . غليظ الشارب . أزرق العينين كذئب برى :

– لماذا تتكلم وأنت نائم ؟

– ماذا قلت ؟

اشعل سيجارة :

– يريدونك فى المكتب .. تكلم هذا أفضل لك .

مضى. الزنزانه نفسها . الطول عشرون شبرا ، العرض خمسة عشر الارتفاع بمثل طول الزمن. فى مواجهة العين أعلى الباب وعلى مقربة من السقف مصباح ضخم. النافذة صغيرة . الصمت طلاء كل شىء.

سبعة اسماء متناثرة حفرت علي الحائط . ظل الشمس مقياس الزمن الوحيد. مسح الملل الذاكرة فلم تعد تتذكر أى شىء، لا الوقت ولا التاريخ .

كم مضى علينا فى هذا الفراغ ؟ شهر. شهران ؟ ربما أكثر .

فى انتظار الذئب يصبح لكل شىء معنى. حفيف النسيم . صوت الصمت . هل يستدعونك حقا أم أنها لعبة ككل مرة ؟. لن تتكلم فماذا سيفعلون ؟ .

فى المواجهة مشجب حديدى أسود . مسامير ضخمة لرؤوسها شكل القناع تبرز منه . على الحائط شعارات بلغات مختلفة ، قرأت القليل منها وأعوزتنى اللغات . بأظافرى أزلت طبقة من الطلاء .

وجدت أسماء كثيرة. أين صاحب هذا الاسم الآن ؟ . هل يتعشى مع زوجته بملهى على شاطئ بحر ؟ . دوت صرخة طويلة ، هبط حجابى الحاجز . أسرعت وتعالت دقات قلبى، فسمعتها أذنى فى موات الصمت الذى أعقب الصرخة. من هو ؟ . ابتسم المسمار الكبير فى جسم المشجب. دققته بكفى المضمومة ثائرا . واصلت دورانى داخل الحجرة. لف رأسى . دخت. ارتميت على الارض الجرداء . وسادتى بعض ما كنت أرتديه من ملابس. علي المشجب بنطلون ناحل وقميص نصف كم . علت أصوات موتورات. جاءت السيارة بشحنة جديدة. في شحنة كهذه جاءوا بى . توقف اللورى على حافة الغابه، مساحات شاسعة من الفراغ المسور تتوسطها المبانى. فى السيارات سمعت كل لغات الدنيا، لو تسعف الذاكرة ، لألفنا قاموسا عن الخوف فى اللغات الحية . حيا الحراس ضابطا كان فى استقبالنا ، تأمل القطيع بنظرة متغطرسه . صفونا صفين . واحدا للنساء ، والآخر للرجال . باردا كان الجو . حبات من الثلج تتناثر . تجمعت الأمهات وأطفالهن ، وعددا من العجائز. كانت «ألما روزى» تقف فى الصف المقابل، غبت فى عينيها . جميلة مقرورة . وددت لو احتضنتها . انتهى صف المسنين . قال الضابط بالانجليزية :

– هل بينكم مرضي بأمراض مستعصية ؟

كررها بالفرنسية . تردد الجمع لحظة ..

– نرجو أن تساعدونا ، نود أن نوفر لكم الرعاية الطبية اللازمة.. سل أو سرطان أو سكر .. روماتزم أو كلى .. أى مرض ؟!

غادر الصفوف عدد آخر . ألحقهم بصف المسنين . عدهم الحارس بسرعة مذهلة . سلموا كلا منهم قطعة من الصابون الفاخر. دعاهم الضابط فى أدب جم الى مبنى قريب. لافتة ضخمة كتب عليها بلغات متعددة.. «الحمامات وغرف خلع الملابس » توجه الجميع فى صف طويل. تابعتهم بالحسرة . كنت أتوق الي حمام ساخن. ظللنا واقفين حتى انتهى الصف.[٢] اكفهر الجو فجأة. سمعت صرخة طفلة لم أفهم سببها لكنى لم اهتم بذلك. قلت أنهم أدخلوا الأمهات مع المرضى. لم يبد لذلك معنى .

«بكت ابنتى الصغيرة، كانت نائمة بينى وبين زوجتى. استيقظت ضجرا. هززت بقدمى قدمى زوجتى . آزاحت قدمى عنها. ارتفع صراخ الطفلة . أعدت محاولتى، انقلبت زوجتى على جنبها . بعدت عن مرمى قدمى زاد سخطى. لعنت البنت وأمها. فقط وعندما اضأت النور وانحنيت علي الطفلة . خفت صوتها وتقلبت بضيق. وكانت قطتنا قد تركت مرقدها تحت الاقدام . ووقفت على الوسادة فوق رأس الطفلة تتأملها بنظرة مشفقة. طار غضبى فجأة. كانت زوجتى نائمة وقد ازيح عنها الغطاء. تأملت وجهها . كان

---

٢ - عرفت بعد ذلك، عندما استدعيت مع آخرين لكي نصلح الآلات الكهربائية في ذلك المبني الأحمر، أن حسرتي كانت بلا مبرر، وكانت اللوريات قد أتت في صباح ذلك اليوم بشحنة كبيرة، وبمجرد أن فتحت الأبواب رأيت عدداً ضخماً من الجثث الزرقاء متصلبة في حالة تدل علي صراع رهيب.. صراع تسلق فيه الضحايا الأبواب والحوائط علي أكتاف الآخرين المحشورين في الصالة.. وماتوا وأفواههم فاغرة وعيونهم قد جحظت من محاجرها.. وملامحهم تحمل معني الرعب القاتل.. في تلك الصالة الضخمة التي تحمل لافتة «الحمامات وغرف الملابس»، كانت تنفذ أحكام الأعدام الفوري بالغاز القاتل «السيلكون» في المسنين والمرضي بأمراض مزمنة الذين لا يرجي لهم شفاء. ولم يكن بها شيء سوي مصابيح كهربائية ضخمة مثبتة في مواجهة السقف، وحين تغلق أبواب الصالة علي آخر القادمين، يرتفع غطاء جهاز مثبت في مقدمتها، يبدو وكأنه جهاز تكييف، وتخرج منه سحب زرقاء متقطعة من الأبخرة. آنذاك لا مهرب لأحد فالحوائط ملساء..

يستنيم لراحة عميقة كأنما ينفض عنه ارهاق عمر كامل. دثرتها. تبسمت وهى نائمة فور شعورها بالدفء. نازعتنى رغبة صبيانية فى أن أقبلها. لثمت خديها. وعندما أبدلت مُلابسها استعادت الطفلة الهدوء. عادت عيناها تبرقان. تملكتها حالة عبث. استجابت القطة لمداعبتها. قاومت رغبتى فى النوم فترة. اطفأت النور وأخذت الطفلة وقطتها فى أحضانى ونمنا.» .

زحف شىء على وجهى، وأنا مستلق مسحت بكفى جانب الوجه. عادت يدى وبها «بقة» سمينة. ألقيتها على الأرض. نمت على بطنى، أخذت أتتبعها بدقة. غرست ابهامى فى الارض عموديا أمامها. توقفت عن المشى فى حيرة. لفت جسمها المتكور. عادت مرة أخرى فى اتجاهى. قبل أن تتقدم عدت فاعترضت طريقها. ابتسمت وأنا أكرر التجربة أكثر من مرة ..

– لا مفر .. أين ستذهبين ؟

رن صدى صوتى فى فراغ الزنزانة. يبدو لسانى ثقيلا. فقد – لا شك– بعض مرونته. الأصوب أن أتكلم قليلا حتى يظل متحركا. رفعت صوتى مغنيا. بدا جميلا جدا.

حزينا كان الغناء.

* * *

«فتحت باب شقتى. رددت الباب بهدوء. اضأت النور. تأملت المكان بنظرة تحفظ كل تفاصيله. كانت القطة مستكينة على غير عادتها.. نظرت الى نظرة متوجسة، ارتميت على مقعد أريح كيانى المتعب. بعد لحظة بدأت تتحرك. لم أهتم كثيرا بها. لفتت كثرة حركتها نظرى. كانت تطارد صرصوراً كبيرا. جرى أمامها ثم سكن كالميت. ربضت على مبعدة منه وعيناها ثابتتان عليه، فى اللحظة التالية تحرك مسرعا ينشد الفرار. قفزت قفزة هائلة. لطمته بكفها لطمة خفيفة. انقلب على ظهره. أعادته الى وضعه

الطبيعي . وعادت تربض متربصة. انتهز فرصة انشغالها بعود ثقاب أشعلته فجرى ، ادركته. انقلبت على ظهرها. أمسكته بقدميها الاماميتين ، وأخذت تعبث به. تقذفه فى الهواء . تعود فتتلقفه ، خطر لى ساعتها انه معذب جدا. قلت أن على أن أنقذه. تكاسلت . فيم كان ارهاق الليلة ؟. فى إحدى القفزات جرى. تسلق ستارة مسدلة على نافذة الغرفة. انطلقت خلفه بسرعة مذهلة، تسلقتها وراءه. تجاوز الستارة الى الحائط. جرى مسرعا . أصبح فى سقف الغرفة . وقفت القطة علي حافة الستارة العلوية حائرة . ظلت تنظر اليه غير قادرة علي التقدم أو العودة. امتعتنى حيرتها . تأملتها فترة . تفجر فى صدرى ضيق مفاجيء من الصرصور . قذفته بحذائى. جاءت القذيفة صائبة تماما. سقطا معا. ربضت القطة فوقه. التهتمه بتلذذ . مسحت شفتيها بلسانها تثاءبت اتجهت الي . مرغت رأسها فى ساقى » ..

....

قال صوت مرتفع :

– ابن الكلب الذى يغنى يسكت .

من أين نبع الصوت ؟ هذه النافذة الضيقة. ؟ الباب ؟ . ولكنه فى داخل الزنزانة . مسحت بعينى كل ذرة فيها. هل هو وهم ؟ .. بالتأكيد نعم .

كان الفراش وثيرا . والريح . فى الخارج تصطفق بالنوافذ . المدفأة تشيع الدفء فى كل مكان. لحظتها جاءوا . أين ذهب بقية الأصدقاء . هل هم هنا فى هذا المكان أم فى مكان آخر؟ . وما مدى علمهم بالموضوع كله ؟ .. من أين جاءتنا الضربة ؟. تحرك المفتاح فى باب الزنزانة . تناومت مسرعا. رن صدى الصوت دار المفتاح دورة ثانية. إذا دار الثالثة فسيفتح ويأتى الذئب . توقفت حركة المفتاح . حبست أنفاسى . دارت الثالثة . سيدخل الآن . سيجدنى نائما وقد يذهب . كم مضى من الزمن ؟ . ثوان لا

أكثر . احترقت شعرة سوداء في مقدمة رأسي. دارت الرابعة . صمت تام. إذن فقد أغلق الباب . سمعت خطواته تمضي مبتعدة .

تنهدت .. ضحكت بصوت عال . كتمت صوتي بكفي .

- اسكت ايها الغبي فقد يأتي بهم صوتك .

كنت المتكلم والمستمع . في السقف كانت كوة صغيرة يتسلل منها الهواء . الريح عاصفة . ظمئت. ليلة صيف حاره جاد فجرها بنسمات منعشة. قمت لأشرب . آنيتان صغيرتان في ركن المكان . في إحداهما ما تبولته في اليومين الماضيين . كان مركزا ذا رائحة نفاذة. وإلى جواره دلو الماء الفاتر ..

....

«فتحت الثلاجة هبت ريح مثلجة جففت عرقي. رطبت جسدي . على زجاجات المياه رذاذ خفيف . شربت نصف الزجاجة . شعرت برطوبة في معدتي. تثاءبت . نافذة الشرفة مفتوحة . أوقفني صوت هامس . أمامي وفي المواجهة كان ضوء الفجر الضنين يلقي أشعته على مؤخرة رجل . عجفاء مشعرة . امرأة تحيط خصره بين ساقيها . بقية جسديهما تحولت إلى كومة لحم مندمجة ومتحركة . قالت منضدة بشرفتيهما عليها بقايا أكواب وزجاجة براندي كل شيء . لم أسمع الكلمات السكرى التي قالتها المرأة . قرأت ما يقوله الصمت مسطرا علي وجهها الناضح بالعرق ، خصلات شعرها المبتل به تناثرت مع حركة رأسها المنتشية ، في انفراجه شفتيها واغماض عينيها نظرة نشوة متسولة. بالضبط كانا ينتظران شيئا مفرحا للغاية. كانا يحاولان أن يبعداه ليستمتعا بانتظاره . جارتي سيدة وقور . لم أرها ابدا إلا محتشمة. زوجة هي وأم قبل سنوات طويلة. لهاثها المتتابع الآن شيء جديد. كانا يحاولان المؤاءمة بين جسديهما في شكل آخر . قضيا في ذلك

وقتا قصيرا. وأصبحا أقرب ما يكون إليّ. وجه المرأة فى مواجهتى تماما. أعطانى الرجل ظهره المقوس محاطا بساعديها الطويلتين. تحركت قليلا داخل شرفتى كى أكون فى أقرب نقطة أستطيع منها أن أتابع وأسمع. مع تحركى فوجئت بصرخة هائلة تنطلق من تحت قدمى. دست على قطتى وأنا أتحرك. قبل أن أتنبه لشىء. كانت عينا المرأة المرتعبتان قد انغرستا فى عينى. رأيت نفسى على صفحتهما ».

....

تحرك المفتاح فى القفل حركة واحدة. رن صدى الصوت. دار المفتاح دورة ثانية. إذا دار المفتاح الثالثة فسيفتح الباب ويدخل الذئب. سيجدنى نائما متناوما. ثوان لا أكثر. احترقت شعرة سوداء اخرى فى مقدمة رأسي دارت الرابعة. صمت تام سمعت خطواته منتظمة مبتعدة.

* * *

«رفعت رأسى. وجدتها أمامى فجأة : جارتى. حدث هذا فى الصباح التالى. واجهتها. خفضت رأسها دون سبب. كثيرا ما تبادلنا تحية الصباح. لا أدرى بالضبط بأى ملامح وجهت تحيتى. مضت مسرعة. كادت تتعثر. تأملت ردفيها. قلت أن وحمة على شكل الفراولة تقع فى منتصف الردف تماما ».

....

تحرك المفتاح فى القفل أربع مرات. احترقت شعرة سوداء فى مقدمة رأسى.

هذه المرة قال الصوت :

– كف عن تفكيرك القذر.

لابد أنه جاء من داخل المكان، من شق ما فيه. ربما كان هناك مكبر

للصوت أو مسجل فى الزنزانة . ولكن فى أى مكان ؟ . فلنتأمل كل شبر ولندق عليه . من الذى تكلم . هل هو الرجل الذئب ؟

دخل هذه المرة. قال جسده السمين :

– أنا أثق أنك ستتكلم ؟ لن أسألك . أنت وحدك سترى كل شيء. وعندما تقرر ذلك اطرق الباب وسآتى . أم تفضل أن تكتب ؟

صادت عيناه عينى ، لم أستطع الفرار منهما . مضي . أغلق الباب . دار المفتاح دورتين. أخفيت وجهى بين ذراعى، أسفل الباب تسعه ثقوب مستديرة : خمسة فى الصف العلوى واربعة فى الصف السفلى . ضغط فى اسفل مثانتي. وقفت، استمعت الى صوت اصطدام الماء بسطح الآناء. كان خريره ذا إيقاع واحد. تدريجيا بدأ ايقاعه يخفت . فكرت فى أننى فى حاجة ماسة للاستحمام. تراكم العرق فوق جسدى طبقات . تلبد الشعر فيه .

....

«انساب الماء من الدش غزيرا، قفزت كعادتى قفزات سريعة لكي اتغلب على احساسى بالبرودة . كانت هى فى الركن تحرك صابونة معطرة فوق ليفة خشنة .

– كف عن هذا قد تنزلق قدمك .

تقدمت. مع اقترابها طالها رذاذ الماء. صاحت :

– كفى .

ابتعدت متقهقهرة . ملأت كفى بالماء قذفتها به. أخفت وجهها. اصطكت اسنانى من البرد . سحبتها من ذراعها وهى تقاوم . قذقتها تحت الدش . بلل الماء شعرها الأسود الطويل . قالت :

– سأليفك .

حكت ظهرى . خشنة كانت الليفة . تململت محتجا . ضحكت :

– كنت طفلا شقيا !

– بل ستكونين أما قاسية... كفى .

واجـهـتنى. بدأت تدلك صـدرى وذراعى. تحـسـست جلدها. ثدياها يتدليان. يهتزان كثمرتين حركهما نسيم . اعتدلت قامتها أخذت تدلك مؤخرة رأسى. فتحت الصنبور . انساب الماء فوقها . فوجئت به . ارتعدت . همت بالابتعاد، قيدتها بذراعى . ضحكتُ. غضبتْ كطفلة. قبلتها . استنامت لقبلتى . كان الماء ينهمر فوقنا . ينسال فوق ظهرينا. بحر ساكن كحلم . زورقنا ناشر أشرعته . غطست أبحث عن اللؤلؤ فى الأعماق .

....

واجهت ملامحه الجرانتييه.

– لا أعرف شيئا ؟

– ستتكلم !.

– عن ماذا ؟

– أنا الذى اسأل لا أنت .

– أنت لا تسأل .

– ستجيب بدون سؤال .

– عن ماذا .؟

– أنا الذى أسأل لا أنت . لماذا لم تعد إلى مصر بعد نشوب الحرب ؟

– أردت أن أكمل دراستى .

– ....

- الطب

- ولكنك لم تكملهـا ، ومن الثـابت أنك ذو نشـاط هدام فى بلدك وأنك مطرود منها .

لم أرد .

- أخلع ملابسك.

مد يده، جذب الجاكتة. تمزقت. تدحرجت أزرارها على الأرض. شقت الفانلة نصفين. عرانى تماماً. إلى المشجب الحديدى ثبتنى بقيدين حديدين من كفىَّ. تداخلت كل خلايا جسدى. انكمشت. ظلت تنكمش. تنكمش. رأسى فى مواجهة الضوء. غشى بصرى. ثنيت قدمى اليمنى مستنداً بها إلى الحائط ورائى. ببرود نظر إلى:

- ستكف أقدامك عن الحركة.

ثبت كلاً منهما بقيد حديدى فى خطاف دق للحائط. أصبحت مصلوباً. شعرت بطعم خل مر فى حلقى. شاربه هتلرى. ملامحه حجرية. فى فمه سيجارة مشتعلة:

- نحن نعرف عنك كل شىء.. أشياء لا تتصورها.

- مادمتم تعرفون فماذا تريدون منى؟

نزلت كفه الضخمة على جانب وجهى بقوة ملاكم. انتشرت الحرارة من صدغى. تطايرت شرارة من جانب عينى.

- أنا الذى أسأل لا أنت. انس علامات الاستفهام تماماً. سأذهب الآن.. وستطلبنى كى تعترف.

أغلق الباب خلفه. ظللت مصلوباً. طال الزمن. تمدد. ركزت عيناى على فتحات أسفل الباب: تسعة. خمسة فى الصف العلوى. أربعة فى الصف السفلى. اللمبة فى الثلث الأخير من الحائط .

زحفت بقَّة سمينة على ساعدى المصلوب. تابعت مسيرتها العمياء. تجاوزت أطراف الأصابع وسطح الكف. مرت عبر المسافة بين القيد الحديدى ورسغى. سارت على باطن ساعدى. أصفر كان. شريان منتفخ شديد الزرقة يتوسطه.، تعدته إلى العضد. لذعتنى فى منتصفه. غيرت اتجاهها. لو تمكنت منها وهى تمر بين القيد والرسغ لهرستها. وبقية الأصدقاء: هل عرفوا بما حدث؟ أفتشوا حجرتى بالبنسيون؟. ألا يحتمل أن تكون هناك ورقة يمكن أن تدل على شىء؟. وماذا تفعل مدام «سوزان» الآن؟

[«لماذا لا تسافر إلى بلدك مسيو سفروت»؟

– هنا بلدى أيضاً!

ضحكت:

– ليس عندكم حرب على الأقل؟

– ....

– النساء المسنات مثلى لا يفهمن شباباً فى مثل سنكم.. ألك أم؟

«ساقها الهزازة وأنا أرقد مستنيماً إلى الراحة. غناؤها الشجى الحزين، الدفء يغلفنا أنا وهى رغم برودة الجو. كأننا فى جزيرة من الدفء تحيط بها العواصف»] .

تيار من الهواء الساخن يتسرب من مكان ما. تزايدت سخونته. تفصد العرق من جبينى. الهواء يشوى جسدى كما لو كان دفقات من لهب. ضغطت على أسنانى. انخفضت سخونته فجأة إلى برودة شديدة. كم مضى من الزمن. لو تنبهت لعددت من واحد لألف. كل رقم بثانية: واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. خمسة. ستة. سبعة. ثمانية. تسعة. عشرة، فلأعد بدون كلام. لا يقوى اللسان عليه. لو أسندت رأسى على كتفى لنمت قليلاً. هذا الألم الذى يزحف من القدم حتى باطن الفخذ، ولا تستطيع أن توقفه.

فتح الباب. طالعنى وجهه المنتفخ. وضع ما تبقى من زجاجة كوكاكولا مثلجة كان يشربها فى ركن الغرفة. نظر إلى أطراف أصابعي. تأكد أنه مازال بها قليل من الدم. هز رأسه راضياً.

- كنت أظن أننى أستطيع أن أستمع إليك. ولكن بعض الناس طلبونى وسأذهب بعد ذلك إلى السينما، نلتقى فى الصباح. ما رأيك فى رباط عنقى أتراه جميلاً؟.

وهو خارج اصطدم بزجاجة الكوكاكولا. سالت على الأرض. اختفت دقات أقدامه . انطلقت صرخة طويلة مفاجئة من مكان ما، انقطعت فجأة كأن قلب صاحبها قد توقف. فكرت فى أننى أعرف صاحبها. انكمش قلبى.

قال صوت من مكان قريب:

- يكفى ٧٠ فولت.

مرة ثانية انطلقت الصرخة. قفَّ شعر رأسي. ارهاق قاتل فى كل خلايا الجسد.

انطلقت الصرخة مرة ثالثة. قفَّ شعر رأسي. أصبحت الثقوب فى أسفل الباب اثنى عشر فكيف حدث هذا؟. هذا الضغط المستمر والمؤلم على فتحة شرجي يؤكد أن الجسم يريد أن يلفظ بقاياه. لا فائدة فى محاولة ايقافه، بين الساقين سالت بقاياى كريهة الرائحة. انتهت نصف آلامي. استعادت عيناى صفاءهما. قلت أن ذلك كله سينتهى فى لحظة ما. خف الألم. خففه التعود فيما يبدو. الرائحة كريهة كوجه الرجل فمتى ستزال، وكيف تبرر لوجهه الشامت هذا الموقف الطفولي. السخونه تعود. الحرارة تزداد. تتحول إلى لهب. تجحظ العينان، تمرد الكف المقيد فى محاولات للافلات فجرح. كأن بستانيا يشرب بمقصه أطراف أعصابك. دوت الصرخة مرة ثانية. من الثقب الأوسط العلوى تسلل شيء يتلوى. دققت البصر. رأسه صغيرة تحمل عينين

جاحظتين، بلا حواجب أو رموش. في حركة ثانية تحرك جسده. دخل: ثعبان ضخم يتسلل زاحفاً. تحرك متقدماً. خلص الذيل الرفيع من الفتحة. بدأ يتقدم فى حركة بطيئة. توقف عند الزجاجة المسكوبة. أخرج لسانه. لعق بعض مائها. تقدم وتقدم. عيناى تتابعانه. تحركت داخل قيودى بأقصى ما أستطيع. صرخت. لم أسمع صوت صرختى. انطفأ النور فجأة. فقدت فى الظلام القدرة على متابعة حركته. أين هو؟. ما بعده عنى. هذا الشيء اللزج الملتوى على جسده. هل هو عرق. أم...؟.

صرخت..

صرخت..

صرخت..



البركةراكدة. سبحت فيها بأقدامى الصغيرة. على الحافة وقفت «سعاد»، تحمل لى ملابسى. سألتنى عما اصطدته من سمك. لم اصطد شيئاً. ضحكت بصوتها الطفولى. تحركت سمكة أسفل أقدامى. انحنيت بسرعة أحاول اصطيادها. أخرجتها فى النهاية. ضخمة جداً. صرخت «سعاد». قلت: لا تخافى. سأقتلها، لو خرجت من الماء لماتت. ساعداى كانا صغيرين جداً. حملتها. ألقيتها على الشاطىء. لم تمت. تتحرك بعنف. صرخت فيها أن تمسكها. نظرت برعب ولم تفعل. انقلبت السمكة على جانبها. تحركت عائدة إلى ماء الترعة الراكدة . جرينا أنا وهى. اختفينا فى حقل الاذرة. كان كثيفاً. قلت: هل تتبعنا السكة؟. قالت: ربما. قلت: تعالى نختفى فى «خصّ عزيزة شرف الدين». خرجت عن صمتها. قالت: نسينا ملابسنا فكيف تخرج إلى الخص وأنت عريان. جرى الماء فى القناة داخل الحقل، مليئاً بالأسماك الصغيرة كان. صعدت فوق عود ذرة سميك. ظللت أصعد. أصعد. بلغت

حافته. تعلقت فى شواشى الكوز. قبضت عليها . كادت يدى تنزلق. لففت ساقى على العود. مال بى.

....

قال الوجه القريب منى:

- حاول أن تنام.

بربشت عيناى بقوة كى أراه. وجهه كان ألوفاً:

- أتشكو شيئاً؟

فى عنقه سماعة طبية. على عينيه نظارة. بلا شارب. هززت رأسى نافيا. استنام جسدى للحشية السميكة الطرية التى وجدتنى نائماً عليها. مضى. ترك الباب خلفه مفتوحاً. ماذا حدث؟.

أين الذئب؟ أين الثعبان؟. لأول مرة تسللت نسمة هواء متخفيه عبر فرجة الباب. استنشقتها بعمق. كان الباب مفتوحاً على ظلام حالك. داعبت الحشية ظهرى. آلام شديدة تفتت جسدى. المكان نظيف. الصمت مطبق. رحلوا. تركونى وحيداً. فى ركنه وجدت دورقاً زجاجياً كبيراً. مددت يدى. رفعته إلى فمى العطشان. كان فارغاً. ضحكته حلقية خشنة، لم أتنبه من أين جاء:

- أتريد أن تشرب؟

- نعم!

صفق صائحاً. امتدت يد من الظلام تحمل كوب ماء. ناولنى اياها. رفعتها إلى فمى. قطرات قليلة:

- المياه مقطوعة عن المعتقل. ولكننا سنحضر لك ماء كثيراً.. لماذا لا تتكلم؟

نظرت إلى وجهه الطيب بريبة. فقدت قدرتى على الكلام. أنفاسى بخراء.

– أنت تدرس الطب؟ نحن زملاء إذن؟. لا تؤاخذني.. أنا مضطر للعمل مع هؤلاء الأوغاد، وقد استدعونى على عجل لكى أسعفك. أنصحك أن توفر على نفسك هذا كله. ستتكلم إن عاجلاً أو آجلاً. لماذا تعرض نفسك للعذاب.

غابت كلماته فى الصمت. جريت فى الزمن:

«هناك فى ركن المكتبة قبلتها لأول مرة. كان ذلك فى الفجر الندى. صبوحة الوجه كانت. نضرة. ناعسة بالنوم. نشوانة. وحين اندمج كيانها الرقيق فى أحضانى. ذاب الحزن والألم وقلق السنوات».

دق بأصابع يده على مسند السرير المعدنى، كأن يده تنقر داخل رأسى:

– أنت لا تعرفهم.. كلاب.. هنا أفران يصهرون فيها الأحياء، ومناشير تسلخ الجلود، وثلاجات يحفظونك فيها حيا.. هنا أشياء لا تخطر لك على بال.

بصوت ضعيف:

– ولكنى لم أفعل شيئاً..

تنهد بنفاد صبر :

– لا يوجد إنسان لم يفعل شيئاً.. فكر وستجد انك فعلت..

– لم أرتكب جريمة.

بضحكة ساخرة:

– ليس حتماً أن تكون جريمة.. أنا شخصياً لا تعجبنى الأحوال..

– ....

– لا تريد أن تتكلم؟

– لا أعرف شيئاً.

انطلقت بصقته لتستقر على وجهى:

– أنت ابن كلب وشرموط[٣] أردت أن أخدمك ولكنك لا تستحق.

انشق الظلام فجأة عن الرجل الذئب. قال الطبيب: قلبه سليم ويحتمل[٤].

– دعه لى يادكتور. اننى أعرف كيف أتفاهم مع هذه الكائنات.

ذراعه يختفى خلف ظهره، حركها. كشف عن سوط طويل أسود اللون، ضرب به فى الهواء مرة وأخرى انهال به علىّ. شقت أولى الضربات منامتى. شق السوط لحمى كسكين. صرخت من المفاجأة. فى الضربة التالية كتمت

---

٣ – عجيب بالطبع لأن الرجل استخدام هذه الكلمة. فما أظن أن قاموس أي لغة يتضمنها، وكنت قد سمعتها بوفرة في حواري قريتي، وبعض شوارع المدينة الخلفية، ولا أدري لها معني محدداً. ولكن الأغلب الأعم أن لها معني بذيئاً.. وربما تلفت هذه الكلمة نظر بعض المهتمين بانتقال الثقافات، بيد أن طبيبي المعالج، ركز كثيراً علي هذه الكلمة حين نقلتها إليه وقال: كيف تتصور أن ضابطاً ألمانياً يقول مثل هذه الكلمة؟. وقد أرهقني السؤال كثيراً ولم أستطع الرد.

٤ – عندما قدمت للمحاكمة بعد ذلك بشهور، قال المدعي العام، أنني سيء السير والسلوك. واستشهد علي ذلك بالأورنيك رقم ١١ سجون، الذي يتضمن مجازاتي بالحبس يومين بزنزانة انفرادية بزعم انني تعديت علي الطبيب يوم ١٩٦٩/٩/٥، بقولى لسيادته: أنت دكتور ولا فتوة. وهذه هي صورة «الأورنيك» المذكور..

وزارة الحربية / الداخلية
مصلحة السجون

سجن [illegible]

تذكرة جزاءات (أورنيك رقم ١١ سجون)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ٢٠٠٠/٧٨٣٨

رقم المسجون	اسم المسجون	التهمة	تاريخ وضعه بالانفراد	الجزاء	تواريخ ابتداء تنفيذ الجزاء	تواريخ انتهاء الجزاء
محمد	السعيد محمد المهدي	تعديه على طبيب بقوله له: انت دكتور ولا فتوه	[illegible]	يومين انفراد بالمادة ٥	٩/٧ ١٩٦٩	٩/٨ ١٩٦٩

مأمور سجن [illegible]

ومن الواضح، أن الذي فعل ذلك هو شخص يسمي «محمد السعيد محمد المهدي» وليس أنا، وهو ما يؤكد سوء نية المدعي العام، هذا مع العلم أن الكلام الذي وجه للطبيب يبدو مثيراً للتأمل إذ ما مبرره؟

صرختى. لمعت عيناه فى الضوء. برقتا. جحظتا إلى الخارج. ظلتا تجحظان. استطالت أذناه. دقات قلبى تتسارع. وثمة دم بدأ ينشع من جسدى. يبلل الملاءة. لم أصرخ. شىء قال لى: لا تصرخ. لهث بشدة. نظرة حمراء تطل من عينيه. لعق شفتيه بلسانه. أكان دم ذلك الذى لعقه؟. ارتخت يده الضاربة منهكة. خفت حدة الضربات. توقف أخيراً، ضربنى بنظراته عدة مرات. نادى واحداً وآخر. فى لحظة كانت الغرفة خالية من المقاعد والسرير وكل شىء. تركونى فى الركن وحيداً. تمزقت ملابسى كلها. وهو يستدير ليخرج لمحت ملابسه من الخلف وقد تمزقت، التف السوط عليه دون أن يشعر. كان ريح الليل يصفر فى الخارج..

....

«فى تلك الليلة كنا نتحدث عن المستقبل، وكان البرد فى الخارج شديداً. زارتنى عيناها. زودتنى ببسمة فى جو الارهاق. وكأن «اسماعيل حسانين البهنسى» هناك فى ركن الغرفة يتحدث بصوته الأجش عن شىء حدث فى المصنع، أكان الأجور الإضافية أم مشكلة عمال الإنتاج؟. يصيح:

– أنهم لصوص. هذا كل شىء!

يخفى المستقبل لنا الكثير. أين ذهب؟. وهل يدرى أحد ما يجرى لى الآن؟. ليس من السهل أن ننسى رجلاً اسمه «اسماعيل حسانين البهنسى».

....

وقت طويل مضى.. نمت أو أغمى علىَّ، فتح الباب فجأة. صاح صوت:

– تعال.

قمت. قذف إلى بعصابة سوداء.

أعاد ربطها متأكداً من إحكامها، قادنى خارجاً. عابث النسيم وجهى. سرت وهو يدفعنى من الخلف. شىء ما استقر بظهرى. لعله بندقية. نزلت

سلالم. صعدت أخرى. سرت طويلاً. الأقدام كثيرة. ربما ثلاثة أو أربعة. اصطدمت بحائط. أمرنى أن انحرف يميناً. مددت ذراعى أمامى أحمى نفسى من الاصطدام. أمرنى بضمهما إلى جانبى. صوته شرس. انهكنى المشى. صعدت أخيراً سلالم عالية. قال:

- أدخل.

صوت آخر:

- أجلسه.

بارداً - مازال الجو - لكن الدفء يخترق النخاع. تضغط العصابة على عينى. فكرت فى أن أحداً قد يضربنى وأنا معصوب العينين:

- أما زلت مصراً على عدم الكلام؟!

- ليس عندى شىء.

- كذاب.

لم أرد.

- من مصلحتك أن تروى كل شىء؟.. ليس معقولاً أنك راض عن الأحوال.. هه؟.. نحن فى رأيك ديكتاتوريون، فاشيون، هه.. أليس كذلك؟. ونحن ساديون نتلذذ بتعذيب البشر. رد!!

- هذا رأيكم فى نظامكم، وأنتم أحرار فيه.

ضحك طويلاً:

- بوسعى أن أثبت كل شىء!

- إذا كان لديك ما يثبت شيئاً قدمه للمحكمة.

لطمنى لطمة قاسية:

- أنت مدان وهذا شىء منته. فقط نريدك أن تعترف.

- بماذا يفيدك ذلك وأنت تعرف كل شىء؟

- لدى أسبابى الخاصة.
- ليس عندى ما أقوله.. وأطلب العدل..
- لك أن تختار بين الموت على الخازوق (٥) أو الموت بالغاز، أو الموت سلخاً..

خدش صوت صمت المكان. بعد لحظة ميزته: صوتى بالتأكيد. سمعته دهشاً.

تميز الكلام تدريجياً. صوتى لا مراء. هادئاً وواثقاً ودافئاً، فى الظلمة تفجرت لحظات تذكار كالبرق. قال صوتى شيئاً عن «العدل والأمن والحرية». كدت أصيح معجباً بنغمته المطربة، كعذوبة لحن شارد فى الفلاة. توقف الصوت:

- هيه؟.. تأكدت أننا نعرف صوتك؟
- ليس فى هذا ما يديننى.. أتكلم عن العدل والأمن والحرية.

لطمنى على وجهى :

---

٥ - عجبت بالطبع عندما عرض الرجل هذا العرض، وبدا لي مسناً جداً. تأملت ملامحه تأكدت أنها بلا أي غضون. فكرت في أن تناسخ الأرواح قد يكون قانوناً علمياً وليس أسطورة. ما حيرني بعد ذلك، كيف تأتي للرجل أن يعرف الموت علي الخازوق؟. وكانت صديقتي «شهد دار» قد حدثتني بعد ذلك بسنوات طويلة، فذكرت أن الخازوق كان طريقة منتشرة لتنفيذ أحكام العدل علي أيامها، وقالت أن مبتدع ذلك مازال مجهولاً. ويقتضي هذه الطريقة فان الجلاد المنوط به تنفيذ حكم الاعدام كان يلقي بالضحية علي بطنه مقيداً. ثم يدخل في الشرج خازوقاً ذا رأس مدببة يظل يدقه ببطء حتي تتهتك جميع الأحشاء ويخرج الخازوق من الرقبة أو من الفم. وكان الجلاد الممتاز يكافيء إذا تمكن من الاحتفاظ بضحيته بحيث لا تموت قبل خروج الخازوق من الرقبة. وقد أدخل ملك الأمراء «خاير بك» تطويراً لهذه الطريقة، وهو الخوزقة من أحد الجانبين، وأطلق علي هذه الطريقة «شك الباذنجان».. ومما يدعو إلي الاعجاب حقاً أن الرجل الذئب يعرف هذه الطريقة القديمة التي تصورت أنها انقرضت.

– أتظننا أغبياء؟.. من تعنى بالطغاة؟ هه..

– لا يدل الكلام أننى أعنيكم..

بعد لحظة:

– لدى هنا أرشيف كامل لحياتك منذ مولدك. أتحب أن ترى بعض ذكرياتك.

أمر برفع العصابة عن عينى. الضوء خافت: صالة واسعة. عشرات من الوجوه المتجهمة حولى. صفوف متراصة من المقاعد. فى المواجهة شاشة عرض سينمائى. ماكينة العرض فى أقصى المكان. لم يتكلم أحد. أشار بيده.. اطفئوا الأنوار. تصاعد أزيز ماكينة العرض. شق شعاعها الظلام فوق رؤوسنا. على الشاشة وجه مألوف لدى. وجهى أنا. «متى رأيته لآخر مرة فى مرآة»؟. تابعت ملامحى. طريقة مشيتى. بذلتى السوداء. حقيبة فى يدى. أسير فى شارع. مدخل فندق. وقفت لحظات. لقطة مكبرة لساعة فى واجهة الفندق. لقطة متوسطة لى وأنا أضبط ساعتى. لقطة من الظهر وأنا أدخل الفندق. تتالت المشاهد: الطفل الذى كنته فى قريتنا يجرى وراء فراشة حائمة معه فتاة صغيرة، هى نفسها «سعاد». زوم أب Zoom up على وجه «اسماعيل البهنسى»، «الواد بدوى». المبنى الأبيض: «معمل التفريخ». وجه أمى يقول شيئاً. لافتة «شركة المسبوكات المعدنية». «اسماعيل البهنسى»، ينظرإلىّ. يتسلم حقيبة منى. أتركه وأمضى إلى ناصية الشارع. «سلوى» تقف. شعرها الطويل ينسدل على ملامحها. دخل «اسماعيل» المصنع. تحركت تجاهها. ابتسمت فى ثقة، احتضن كفى كفها، مضيا فى الطريق. توقف العرض.

– سترى الآن شيئاً أطرف من ذلك بكثير.

عاد أزيز الآلة: مدخل شقتى. ضغطت على الجرس. فتح الباب. وجه

زوجتى. بيجامتها الشتوية تضم جسدها الرقيق. لثمت شفتيها. رددت الباب بيدى. قالت شيئاً لم أسمعه.

«كانت دائماً تقول: تأخرت.. قلقت عليك. وكنت أضحك: لا لم أتأخر، ساعتك قديمة وأقترح أن تلقيها من النافذة. تزوم غاضبة. أقبلها فتضحك».

فى حجرة نومى. خلعت ملابسى. بدت ساقاى رفيعتين. ارتديت بيجامتى الشتوية.

«أحب ذلك الزغب المنتشر فى باطنها. وأتحسسه باعجاب».

جاءت بالعشاء. تناولناه معاً. بعيونها تتكلم، ضحكت أكثر من مرة. قرصتها فى خدها. «شاقنى ما أرى». ذهبت بالعشاء. بيجامتها خضراء. أحب اللون الأخضر.

جاءت القطة الصغيرة. أشعلت سيجارتى. على الوسادة ربضت قطتى، مددت يدى. داعبتها. تثاءبت. تكورت بجوارى. عادت. وقفت تصفف شعرها أمام المرآة، جلست بجوارى على السرير، انتقلت القطة. جلست على صدرها.

«كانت القطة تفعل ذلك كل مرة، وكنت أقول مداعباً: إنها تختار دائماً أكثر الأماكن دفئاً وليناً. تعلم أننى أحب صدرها، أمرغ وجهى دائماً بين نهديها».

يدى تداعب القطة، أصابعى تنقر على صدرها. قالت شيئاً. ضحكت. عابثت يدى شعرها. قربتها إلىّ. استندت بصدرها على صدرى. مضت يدى تربت جسدها. تتجول فوق مسطحاته اللينة. تضغطها إلىّ. رفعت ثغراً مشوقاً. يدى ترتجف وهى تفتح أزرار بيجامتها. قامت. أخرجت القطة. أغلقت الباب. على الشاشة كانت تتجه إلى سريرنا.

الرجال حولى كتل ظلام صامت. عيونهم معلقة بالشاشة. لفائفهم تنتهك

بكارة الظلام.

عدت قلقاً إلى الشاشة: يدى ترتجف وهى تفك مشبك السوتيان. قذفته بعيداً. خرج نهداها من الأسر. مرغت وجهى بينهما. قذفت بقدمى ملاءة السرير وهى تعرى جسدى.

....

على شاشة العرض كنت عاريا. جسدها كان خصباً، بالرغبة كان متوفزاً. فى ديمومة القبل غبنا. فى صالة العرض كنت أذوب من الخجل. الرجال كتل سوداء - تخدش بنيران اللفائف بكارة الظلام.

شىء يضغط على خلايا رأسى. «متى تعمى العيون من الرؤية»؟. فكرت فى أن أخلع ملابسى وأغطى جسدها العارى أمام العيون.

«بعدما ننتهى، كنت أتأمل جسدينا العاريين فى المرآة أمامنا. أقبل جسدها ممتناً، أسحب الملاءة، أغطى عوينا، ألف ذراعى حولها، تخفى وجهها المنتشى فى صدرى. أربت شعرها الطويل، دائماً كانت تخجل من لحظات نشوتنا، مرة قالت: ترانا القطة. تعودت قبل أن نبدأ أن تطردها، وتغلق الباب».

فى لحظة ما - لعلها لحظة كنت ألفظ كلمة نشوة - قمت مسرعاً. هجمت على ماكينة العرض دفعتها بكل قوتى، أخذت أدوسها بأقدامى فى هياج. التف حولى الجميع. رفع الرجل الذئب سوطه. انهال علىَّ ضرباً.

....

....

فى الزنزانة العارية، شدونى للأرض بأوتاد أربعة، عارياً كنت.. جلسوا حولى.

قال كبيرهم:

- ألم أقل لك أننا نعرف كل شي!

- ....

- لدينا أيضاً صورة طريفة لك مع حبيبتك الأولى..

- ....

- كانت أخت صديق لك.. أليسِ كذلك؟. وكان اسمها «سلوى حسن السفروت». هه؟. لا ترد.. ليس هذا مهماً.. ما رأيك في صورة لكما في الفراش!

- كذاب!

- لدينا صورة برغم ذلك؟

- مزيفه..

- ....

ضحك طويلاً..

- من الصعب أن يكتشف ذلك أحد!

«كانت أطهر من ملاك، فمن ذا ينبش قبور موتى الملائكة ويعيث فيها فساداً»؟

....

عارياً ومصلوباً كنت. أخرج الرجل علبة لفائفه. وزعها على الجميع. قال:

- سنسمر قليلاً، وندخن كثيراً. وأراكم تتساءلون: أين نطفىء لفافاتنا تلك؟. في الأرض؟! أظن أن هذا شيء غير متحضر!

خبط بكفه فوق بطني..

.... ضحكـــوا جميعــاً والنـــار تتوهـج فى أطـراف اللفائف وأنا ....(٦) .

---

٦ - إلي هنا انتهي نص الوثيقة، وكان ذلك قبل نهاية الصفحة الرابعة والعشرين بعدة سطور، والأرجح أن هذا آخر ما كتبه صاحبها. وقد وجدت في رأس الصفحة الأخيرة بضع عناوين مكتوبة بقلم رصاص خفيف، ومن المحتمل أنها رؤوس مواضيع ستكتب فيما بعد، وهذه هي العناوين «ليلة في ثلاجة»، - «مباراة كرة قدم برؤوس بشرية»، - «الاشتراك في إصلاح غرف الموت بالسيلكون في العنبر ٢٥ أ»، - «مقابلتي مع ألما روزي في غابة بركناو» - «التعرف بـ«إديت لينك» الكاتبة بمكاتب إدارة المعتقل» - ومما يرجح أن هذه الصحفات هي آخر ما كتبه صاحب الشهادة، أن السطور البيضاء في نهاية الصفحة الأخيرة كما هي .

هذا وقد نفي صديقي «محمود حسن السفروت» انه كتب هذه الوثيقة، ودلل علي أنها بخطي وليست بخطه، ودفع أمام المحكمة بتزويرها، وذكر أنه ولد في عام ١٩٣٠ بإحدي قري محافظة المنوفية بمصر. وهي نفس السنة التي ولدت بها باحدي قري محافظة الدقهلية بمصر، ومعني هذا أنه كان في العاشرة من عمره عندما حدثت هذه الحوادث، كما أنه لم يسافر إلي خارج البلاد علي الاطلاق، فضلاً عن أنه أكمل دراسته بمصر، وتخرج معي في سنة واحدة. وقد ذكر عندما استدعاه القاضي أن صديقه «شوقي عطية السباعي» - وهذا هو اسمي - يعاني من بعض مظاهر الانفصام في الشخصية، نتيجة لتجربة عنيفة تعرض لها، ولا تسمح الظروف بروايتها بسبب حالة الحرب القائمة بين مصر وإسرائيل وتطبيقاً لسياسة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، وقال أن هذا يجعل «شوقي» يتصور أشياء لم تحدث، واستشهد علي ذلك بأنني أودعت فترة بمستشفي بهمان، كما انني أعالج لدي أحد الأطباء المشهورين في مجال الأمراض العصبية والنفسية، وطالب بسماع شهادة اثنين من الأطباء النفسيين المعروفين كخبراء، هما الدكتوران مصطفي زيور ويحيي الرخاوي، بالإضافة إلي طبيبي المعالج. وقد رفضت المحكمة الطلب بناء علي الإجابة التي أدلي بها السفروت رداً عن سؤال عن إمكانية حدوث الحوادث الواردة بهذه الشهادة. إذ ذكر السفروت أنها ممكنة جداً. بل وتحدث كثيراً.

03 الوثيقة الأولى

قصاصات من صحيفة «أحزان الصباح»

لأننى كل صباح، أفتح عينى مرهقاً على العالم نفسه بحوائطه الرمادية بمصاعده المعطلة، بزحامه الخانق، ونظراته القاسية، أشعل سيجارتى، أشرب كوب اللبن، أمضغ حبات الفاكهة، أقبل ابنتى، أداعب قطتى، أسحب من تحت الباب صحيفة اليوم لأقرأها.

لأنتى أفعل هذا كل صباح، فقد الصباح معناه.

تعودت أن أقرأ صحيفتى اليومية وأنا أتخلص من افرازات الصباح. صحفنا المحلية كانت قد استبدلت مانشتاتها الحمراء بأخرى قاتمة السواد بدعوى الوقار والبعد عن الإثارة. لم أصدق هذا. تعودت أن أغرق بين سطور صفحة الوفيات، أقرأ أنباء الذين غادروا عالمنا أقول لنفسى متفلسفا:

ـ إنهم لاشك قد ماتوا بمرض ما من أمراض هذا الزمان.

وأتساءل فى عجب عما إذا كان رحيلهم سيقلل من أزمة المواصلات وزحام المساكن وجرائم القتل العمد والسرقات المقيدة ضد مجهول، أم أنه سيحل المعادلة الصعبة التى ورد ذكرها فى الميثاق، وما علاقة ذلك بأزمة الديمقراطية فى جمهورية تنجانيقا الوسطى [وكانت بعض الصحف تشير إليها بكثرة وفى فترات متقاربة] .

حدثنى طبيبى عن الصحف. سألنى عما إذا كان هناك ما لا يعجبنى فى صحيفة الصباح. قلت: أشياء كثيرة ولكنى لا أذكر. هممت بالقيام. أعادنى إلى مكانى على الشيزلونج:

ـ أعنى شىء ما يستفزك: أخبار النجوم، الجرائم، السفر إلى القمر، كرة القدم.. تصريحات المسئولين!، أخبار الحرب...؟.

قلت: نعم.. إننى أكره كرة القدم جداً.

....

وكان صباح:

استدعونى من زنزانتى. خرجت إلى باحة المعتقل. وجدت رجالا ونساء يعملون فى حفر عميقة. تناولت فأسا وبدأت الحفر. فى الحفرة المجاورة كانت تعمل. أين ذهب الجمال الذى رأيته أول يوم؟!.. أحنيت الرأس محييا، ابتسمت ملامحها. نورت عيناها بشىء كالألفة. لم نتبادل كلمة.. ساقاها متسلختان، شعرها مكوم فوق رأسها، خصل تتناثر منه، على مقربة كان آخرون يعملون أيضا. ظللنا طوال نصف النهار الأول نحفر. بين الحين والآخر كان الرجل الذئب يأتى. يقيس عمق الحفرة. يأمر بالاستمرار فى العمل. عند الظهر عدنا إلى زنزاناتنا. كانت تسير فى المقدمة تماسسنا قبل أن نفترق هناك عند المنحنى. بانجليزية سريعة:

ـ اسمك؟.

ـ ألما.. ألما روزى.. وأنت؟.

همست باسمى، دلفت إلى المنحنى فى اتجاه الجناح الذى كنت أقيم به، لم تكد تمضى ساعة حتى استدعونا مرة أخرى لم أفهم السبب. يوم العمل كان قد انتهى. على حشيتى الرقيقة ألهث. جارى يغنى أغنية حزينة. تجمعنا فى الفناء، قال الرجل:

ـ فلينزل كل منكم فى الحفرة التى حفرها.

نزلت، رأسى بارزة، استدرت أواجهها. غبت فى عمق عينيها، همست:

ـ الحفرة رطبة.. أتظنهم سيدفنوننا؟.

بدأوا يهيلون التراب حولنا، أيقنت أنهم سيدفنوننا أحياء.. سووا الأرض. تركوا رؤوسنا بارزة تطل على مسطحها المغطى بالثلج، تضغط الأرض على جسدى، عجزت عن التحرك، تزايد الألم فوق صدرى وبين ساقى، فكرت أنها قد تبكى:

ـ أنت بولندية؟.

ـ لا.. هولندية.. وأنت؟.

ـ مصرى..

تحدثت عن أوبرا لاهاى طويلاً..

ـ ماذا تظنهم سيفعلون؟.

قلبت شفتى:

ـ .. ليس هناك أسوأ مما نحن فيه.. هل تخافين شيئاً..

قالت أنها تقيم فى العنبر الثانى والعشرين مع فتيات كثيرات وأنهن يغنين فى المساء أغنيات مرحة.. ربما بعد ذلك بلحظات ـ أو قبله، لا أتذكر ـ سمعت صوت صفير مرتفع، التفت يمينا بآخر ما فى رقبتى من عصب يلتوى، وجدتهم يقيمون مرمى لكرة القدم فى الطرف الشمالى، وآخر فى الطرف الجنوبى.. قال حارس:

ـ ستشاهدون مباراة طريفة بين حراس المعتقل والضباط.. أنتم تحبون كرة القدم.. أليس كذلك؟.. لايوجد أحد لا يحب كرة القدم..

بدأوا اللعب، رؤوسنا وسط الملعب. تابعت الكرة وهى تنتقل بين أقدامهم، يقذفونها، لتصيب ضربة القدم، رأساً هنا وأخرى هناك، العيون مرتعبة، انتهت المباراة أخيراً، تحطم خلالها عدد من الرؤوس، اندفعت الدماء على الأرض، أخرجونا، أمرونا أن نهيل التراب على الرؤوس المحطمة، حملت و«ألما» دلوا من الرمال، سرنا فى اتجاه أحد الرؤوس، انزلقت قدمها وكادت

تقع على الأرض، تركت الدلو، سندتها، أخفت رأسها فى كتفى: صوتها المتعب قال:

ـ أنزلقت فوق مخه!! انظر؟!.

على الأرض، بضع خلايا جيلاتينية، تلمع فى آخر أضواء النهار، ربت على كتفيها، مرق طلق نارى بين رأسينا.

الحارس مقهقها:

ـ أدفناه أولا، ثم تبادلا الغرام إذا أردتما ذلك..

....

طبيبى لم يصدق روايتى. أكدت أننى أكره كرة القدم. أكره صحافتنا لأنها تتكلم عنها كل يوم. فى طفولتى هويت الصحافة. أصدرت آنذاك صحيفة حائطية سميتها «طريق المستقبل» كتبتها على ورقة بيضاء، علقتها على باب دورة المياه. صدر منها عشرة أعداد. توقفت عن الصدور عقب مقال كتبته عن الرجال الذين يسهرون فى الخارج حتى مطلع الفجر، ويحرمون أبناءهم من الذهاب إلى السينما بدعوى أن السهر مضر بالصحة مفسد للأخلاق. وأنا طالب شاركت بعض أصدقائى سكنا بشرق المدينة، أصدرنا صحيفة حائطية سميناها «أخبار شقتنا» صدر منها أربعة عشر عددا، ضاعت جميعا بين عدد ضخم من الكتب والأشعار والخطابات الغرامية. ونسخة نادرة من كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه، فى القوة والباه»، عندما هاجم رجال الشرطة شقتنا ذات سحر لأسباب سياسية [(١)] وقد غاب أثر ذلك نصف سكان الشقة وراء الأسوار لشهور، وربما لسنوات، أما نصفهم

---

١ – هذا مع أن الشقة نفسها كان يرتكب بها بعض ما يعتبره القانون جرائم . فقد كنا ندخن فيها أحيانا المخدرات . كما دخلها عدد من الفتيات القاصرات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثالثة عشرة والحادية والعشرين.

الآخر، فقد هجرنا إلى الشتات، ومن المؤسف حقاً أن المجموعة الكاملة لصحيفتى «طريق المستقبل» و«أخبار شقتنا» قد فقدت، ذلك أنهما تدلان أننى كنت مرحا وبشوشا، وأننى كنت أحب الحياة حقا..

ذات مرة، قررت أن أواصل رسالتى الصحفية، وأصدر صحيفة صباحية، قلت أن ابنتى، وكانت فى الثانية، وقطتى ـ وقد ولدت فى الليلة نفسها مع ابنتى ـ لاتعرفان القراءة، لذلك فقد كنت أقرأ لهما بعض أنباء عالمنا، وكانت قطتى تتثاءب وهى تستمع إلى الأنباء، وقليلا ما كانت تهتم، فإذا ما أثار انتباهها خبر ما، تقف على ساقيها الأماميتين، وتنظر إلى الجريدة باهتمام قليل، أما ابنتى فكانت تنتظر حتى يطرق جامع القمامة الباب، فإذا ما عدت بعد أن أصرفه، وجدتها قد كورت الصحيفة وألقت بها بعيدا، وبالتأكيد فإن موقفهما المعادى ذاك قد أقلقنى، وقد فكرت فى أنهما قد تكونان من هواة كرة القدم التى أكرهها، ولكنهما نفتا ذلك تماما..

فكرت وأنا أعد دفاعى، أن أستشهد ببعض ما كانت تضمه تلك الصحيفة من أنباء وتحقيقات، وها أنذا أودع ملف القضية، هذه الوثائق المهمة:

التنفس ببطن الحوت:

ـ أعلن النائب الأمريكى «ريتشارد مكارثى» أن الجيش الأمريكى يستعد لحرب الجراثيم وأنه يجرى التجارب على سلاح جديد قاتل، يسبب مرض النوم، وقال إن التجارب تجرى فى «ولاية أوتاوة» حيث قتلت غارات الأعصاب من قبل أكثر من ٦٤٠٠ رأس من الماشية، وذكر أن نتائج هذه التجارب ستعلن فور الانتهاء منها.

(جريدة أخبار اليوم ـ ١٠ مايو ١٩٦٩)

....

ـ فى لندن قام الجيش البريطانى، بتجربة أثر عقار الهلوسة ـ وهو مادة

كيماوية أسمها "L. S. D" - فى شل تفكير العدو، واستخدمت القيادة البريطانية إحدى وحدات مشاة الجيش البريطانى للتعرف على أثر هذا العقار، ومع بداية التجربة انفجر الجنود بالضحك، وتركوا أسلحتهم وأخذوا يرقصون فى جنون وخبل... وبعدها تدافعوا لتسلق الأشجار، وهم يجرون على أربع كالقرود، وعندما سئلوا عن السبب قالوا: نريد أن نطعم العصافير.

(بورتون ـ انكلترا ـ ى. ب. أ ـ الجمهورية ٥ يونيو ١٩٦٩)

....

ـ سان فرانسيسكو فى ١٥ ـ ى. ب. أ:

نشرت مجلة «وورلد ميديكال نيوز» الطبية، مقالاً عن عقار جديد تم استخدامه مع أكثر من ١٥٠ مريضاً فى مستشفيين بولاية كاليفورنيا الأمريكية، ويسمى «عقار الخوف»، الذى يحقن به المريض فيعمل على سرعة استرخاء العضلات، ويشل الجسم نهائياً، ويجعل المريض يشعر أنه على وشك الموت، وجاء فى المقال أن العقار الغريب يجعل المريض يشعر بأنه غير قادر على الحركة أو التنفس لمدة تصل إلى دقيقتين تقريباً، ترتعد فيها أوصاله من خشية الموت، وذكرت المجلة أن التأثير على المريض خلال حالة الرعب تلك، يمكن أن يفيد فى مجالات متعددة، منها التحقيقات والاستجوابات، وخاصة مع المنتمين للمعارضة.

(الأهرام ـ ١٦ أكتوبر ١٩٧٠)

....

ـ لاحظ المؤتمر الطبى الذى عقد فى ألمانيا، وصدرت قراراته فى الأسبوع الماضى، أن الإنسان فى كل الدنيا يعيش فى خوف، وهذا الخوف ليس محدداً ولا واضحاً، هل هو خوف عام؟.. هل هو خوف خاص؟.. هل هو

خائف على نفسه، على شعبه؟، على الدنيا؟.. هو كل هذه المخاوف معا، وقد دلت الأرقام على أن هناك ٧٢٪ من الناس خائفون بلا سبب واضح.. ومعظم الناس ـ كما يذكر التقرير ـ فى حالة توتر عصبى، وأعصابهم تزداد توترا، وقدرتهم على العمل أو على التفكير تتناقص، وأحكامهم على الأشياء والأشخاص تسوء.

الأخبار ـ ٢ ديسمبر ١٩٧٠

....

ـ قال مراسل وكالة أنباء ألمانيا الديمقراطية أن جيش تحرير جنوب الفيتنام، قام بتدريب أكثر من عشرة آلاف طفل وطفلة من يتامى الحرب المشردين للقيام بالأعمال الفدائية والتخريبية داخل المدن فى فيتنام الجنوبية، ومنذ عدة أيام قبض البوليس فى مدينة سايجون على فتاة عمرها ١٣ سنة وعلى طفل عمره عشر سنوات أثناء محاولتهما تفجير قنبلتين من البلاستيك داخل مطعم مزدحم بالجنود الأمريكيين.

(آخر ساعة ـ ١٨ يونيو ١٩٦٩)

....

ـ أول ما دقيت باب بلدنا بلهفتى...
لقيت أخويا مصغر الغيظ اسماعين
نايم فى جوف جلابيتى..
أهو.. فز م النوم.. اتفزع
وأخذنى فى أحضان الحنين
قلبى اتمزع
ساعة ما شفته بدراعينه.. مفرودين زى الصليب..
يا مصغر الغيظ... آه يا ولداه، انصلبت

من قبل ما تعرف حياة الطفل شبت

(.. قصيدة للشاعر سيد حجاب، ديوان صياد وجنيه)

....

ـ لندن فى ٢٩ ـ خاص للأهرام (ن. ى. ت).

أعلنت منظمة العفو الدولية فى تقرير لها بعنوان «وجه الاضطهاد فى عام ١٩٧٠» أن هناك ٢٥٠ ألف معتقل سياسى فى مختلف بلاد العالم، أطلقت عليهم المنظمة «المسجونين بسبب ضمائرهم».

وذكر التقرير أن هؤلاء الأشخاص معتقلون بسبب معتقداتهم أو لأنهم يعبرون بالحديث أو بالكتابة عن آراء لاتتفق مع حكوماتهم، أو بسبب تهم أو شكوك لا أساس لها، وقال أن المعتقلين فى «سيراليون» مثلا يلقون معاملة مهينة وأن الطعام يوضع خارج زنزانتهم الضيقة، حتى أنهم يضطرون لتناوله من خلال القضبان.

وتضمن التقرير أن المعتقلين فى بارغواى والبرازيل يتعرضون للتعذيب والإهانة، وأن بعضاً منهم قضوا ١٠ سنوات فى المعتقلات دون محاكمة، كما ذكر التقرير أيضا أن هناك ١١٦ ألف معتقل فى أندونيسيا وحدها، معظمهم اعتقلوا بتهمة الشيوعية فى نهاية عام ١٩٦٥ ولم توجه إليهم أى تهمة رسمية، كما لم يقدموا للمحاكمة.

(الأهرام ـ ٣٠ يونيو ١٩٧٠)

....

ـ الرياض فى ٢١ نوفمبر ـ و. أ. ف

أقيمت الصلاة فى مساجد المملكة العربية السعودية خلال الأيام القليلة الماضية بناء على أوامر الملك فيصل للإبتهال إلى الله لكى يسقط المطر فى البلاد، وقد اشترك الملك فيصل وكبار مستشاريه فى صلاة الاستسقاء التى

أقيمت فى جامع الرياض.

(الأهرام ـ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٠)

....

ـ المكسيك فى ٢١ نوفمبر ـ أ. ش. أ

تشير الإحصائيات التى عرضت على مؤتمر دول أمريكا اللاتينية لحماية الطفولة وتعليمها، إلى أن ١٥٠ مليون نسمة من مجموع سكان أمريكا اللاتينية البالغ عددهم ٢٧٠ مليون نسمة يعيشون فى فقر مدقع ويعانون من الجوع.

كما تفيد هذه الإحصائيات التى أذاعتها اليوم وكالة الأنباء التشيكية أن حوالى مائتى طفل من كل ألف طفل يولدون فى أمريكا اللاتينية، يموتون من الجوع خلال السنة الأولى من عمرهم.

(وطنى ـ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٠)

....

ـ ليون (فرنسا) فى ١٠ ـ آ. ب

قضت إحدى محاكم ليون بالسجن لمدة عشر سنوات على «رينيه تينى»، وهو عامل بأحد المصانع وبالسجن ٥ سنوات على زوجته لإدانتهما بأنهما قتلا خمسة من أطفالهما عقب ولادتهم، ودفنوهم فى الحديقة، وقال الأب أن دخله الشهرى وهو ٨٠٠ فرنك لا يسمح له الصرف على أسرة كبيرة «ونحن لانريد لأبنائنا أن يعيشوا فى فقر».

(الأهرام ـ ١١ ديسمبر ١٩٧٠)

....

ـ فى عنبر النساء بالدور الأرضى فى مستشفى بلقاس المركزى، يتمدد جسد «قمر عبدالرؤوف شعبان» مصلوبة إلى السرير بسبب كسر فى العمود

الفقرى، «قمر» صبية فى السادسة عشرة وضحية من ضحايا آخر حادث من حوادث انقلابات سيارات النقل التى تحمل عمال التراحيل، وقع الحادث منذ أيام عند المدينة (بلقاس) مات فيه ٩ عمال، ونقل عشرون إلى المستشفى بين الحياة والموت.

ورغم الآلام.. تتحدث قمر الدين:

ـ احنا ثلاثة أخوات بنشتغل فى الترحيلة، يوم الحادثة كان التمبيل (السيارة) راجع بينا من الشغل... الدنيا كلها كانت مغارب، والأنفار فوق بعضها.. التمبيل انقلب بينا فى الترعة أخوى الكبير مات.. والثانى نجا، وأنا وسطى انكسر.

ـ ....

ـ أجرتى ١٧ قرش فى اليوم، بأقبضها ١٤.

ـ ..... والباقى؟.

ـ .... الباقى قرش للمقاول الكبير محمد أبوسلامة، وقرش للمقاول الصغير.. عم سعد السواخ، وقرش بيقولوا بقشيش للسواق.

(روزاليوسف ـ ٢٣ نوفمبر ١٩٧٠)

....

ـ «فى الوقت الذى يعانى فيه العالم من انتشار المجاعات فى كثير من البلاد، تدفع الحكومة الإيطالية أموالا للمزارعين لتدمير أطنان الفواكه الطازجة من الكمثرى، والخوخ حتى لاينخفض سعرهما بالنسبة لأسواق العالم»، إن التناقض فى إيطاليا يصل إلى درجة تقرير قاعدة تقول أنه كلما تحسن محصول الفواكه كلما كان ذلك نذيرا بسوء حظ المزارعين.. وطريقة إعدام الفواكه تتلخص فى نقل كمياتها الضخمة إلى أرض فضاء ويسحب عليها دهان أزرق ثم تهرس تحت عجلات البولدوزر!.

(الجمهورية ـ ١٧ أغسطس ١٩٧٠)

ـ فورت بيرس (ولاية فلوريدا) فى ٢٤ ـ أ. ب ـ ى. ب. أ

شهدت مدينة «فورت بيرس الأمريكية» مأساة جندى زنجى قتيل تطارده العنصرية البيضاء، في المجتمع الأمريكى حتى بعد أن لقى مصرعه وهو يحارب فى صفوف الجيش الأمريكى فى فيتنام، فقد رفضت سلطات مقبرة المدينة السماح بدفنه لأنه زنجى، فأقيمت له المراسم العسكرية والدينية فى أحد مخازن الأسلحة التابعة للجيش ـ ثم نقل جثمانه إلى المشرحة فى انتظار صدور حكم قضائى بدفنه، وقد رفض المسئولون عن مقابر حديقة «هليكر بست» التذكارية السماح بدفن الجندى فى قبر قدم هبة إلى أسرة الجندى من سيدة بيضاء فى الثانية والسبعين من عمرها، وقد بنى الرفض على أساس أن المقابر «مخصصة للبيض وحدهم»، وقد احتفظ بجثة الجندى الزنجى الشاب فى ثلاجة داخل المشرحة انتظاراً لانتهاء النزاع القانونى حول حق الأسرة الزنجية فى استخدام المقبرة التى حصلت عليها «كصدقة» فى دفن ابنها.

وقد أثار هذا الموقف مشاعر طالب زنجى من لوس أنجيلوس فوقف يلقى خطاب تأبين الجندى الزنجى القتيل «يوجين وليامز» (٢٠ سنة)، قال فيه: «إن هذا الرجل بلا وطن، والعدالة التى حارب من أجلها لن يجدها أبداً.. ثم قال مشيراً إلى والد الجندى «إننى آسف لأن هذا الرجل الذى حارب من أجل بلده وأسرته يتعين عليه أن يقاسى ألم انتظار قرار من القضاء ليدفن ابنه لأنه لايملك ستة أقدام من الأرض الأمريكية ليدفنه فيها حيث تستطيع أسرته أن تعود لتزوره بين وقت وآخر» .

(الأهرام ـ ٢٥ أغسطس ١٩٧٠)

....

ـ واشنطن فى ٥ ـ ى. ب. أ

وزعت سفارة جنوب افريقيا فى واشنطن منشوراً ترد فيه على الانتقادات الأمريكية التى تتوجه لسياسة التمييز العنصرى فى جنوب افريقيا قائلة «إن على من كان بيته من زجاج أن لايرمى بيوت الناس بالحجارة».

هاجمت السفارة بوجه خاص تقريراً قدمه «ديفيد نيوسم» مساعد وزير الخارجية الأمريكى للشئون الافريقية إلى مجلس النواب عن زيارة قام بها أخيراً لجنوب افريقيا وندد فيه مرات عديدة بسياسة التمييز العنصرى، وقال منشور سفارة جنوب افريقيا «أننا نعرف عيوبنا ونحاول التغلب عليها ولانعلى من قدر أنفسنا مدعين أننا نموذج يتعين على باقى الدول فى العالم أن تحتذيه».

(الأهرام ـ ٦ ديسمبر ١٩٧٠)

....

ـ ..... ومن بسيمة إلى والدها عبدالرحمن سليم بغزة، أنا بخير، وصلت إلى القاهرة طمنونا على أحوالكم عن طريق الإذاعة، وصل معى سامح بن الشيخ سلمان فضل فطمنوا والده بأن صحته جيدة. من ليلى فريح إلى زوجها سليمان الصفتى بـ «رام الله» أنا بالقاهرة وضعت مولودا ذكرا وسميته فريح، أنبأونا بأحوالكم وهل الأولاد معكم، إذا كنتم بالأردن فاتصلوا بنا عن طريق الإذاعة، وعلى كل من يسمع هذه الرسالة أن يبلغها إلى صاحبها: سليمان الصفتى.

....

ـ ومن صابر سعيد إلى الزوجة والأخوة والوالدين بخان يونس، احتسبت عند الله شقيقى عبدالمنعم، طمنونا أين أنتم، راسلونا عن طريق الصليب الأحمر....

(مقتطفات من برنامج «ألف سلام»
إذاعة صوت العرب «من القاهرة ـ ١٥ يوليو ١٩٦٧)

....

ـ فى القاهرة قصت زوجة مهندس شعر الشغالة وصنعت لنفسها منه باروكة، أمر اسماعيل حمدى وكيل النيابة بتسليم الشغالة لأهلها.

(الأخبار ـ ٩ يونيو ١٩٧٠)

....

ـ لاس فيجاس فى ١٩ نوفمبر ـ و. أ. ب

اعتقل رجال البوليس ستيوارت جول شتاين (٢٣ سنة) وزوجته رينيه (٢١ سنة) بتهمة قتل جرسونة تعمل فى أحد مقاهى لاس فيجاس من قبيل التدريب على القتل واختبار قوة أعصاب الزوج تمهيداً لارتكاب جريمة قتل ثانية يخطط لها الزوجان تستهدف ثريا من أقرباء الزوج وقال رجال البوليس أن رينيه اعترفت بعد إلقاء القبض عليها هى وزوجها، بأن زوجها كان ينوى استغلال أموال قريب الثرى بعد قتله فى إقامة مزرعة لممارسة الجنس يقصدها الرجال الذين يهوون تبادل الزوجات فى عطلاتهم.

(الأهرام ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٧٠)

....

ـ طفل أمريكى فى الخامسة أصيب بمرض سرى خطير بعد أن انتقلت إليه العدوى من فتاة فى التاسعة ويقول تقرير طبى أمريكى أن الأمراض التناسلية تنتشر بصورة مفزعة بين الشباب الأمريكى ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والرابعة والعشرين وبين المراهقين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٩ سنة .

(الجمهورية - ٣ يونيو - ١٩٧٠)

....

* يخشى الأطباء أن تصل الأمراض السرية الى درجة الوباء فى بولندا، بعد أن ذكرت الاحصاءات الرسمية أن حالات الزهرى الجديدة بلغت فى العام الماضى ٢,٨٠٠ حالة من بينها ٦٤ حالة بين صبية تتراوح أعمارهم بين ١٠ و ١٤ سنة وأن الزيادة فى نسبة الإصابة بهذا المرض بلغت ٢٥ فى المائة، وفى نفس الوقت ذكرت صحيفة «لوكترا» أن ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص يصابون بالسيلان سنويا .

(الجمهورية - ٣ يونيو - ١٩٧٠)

....

* كوبنهاغن - ى . ب . ا

ارتفعت نسبة الإصابة بالأمراض السرية فى الدانمرك بدرجة خطيرة خلال الشهور الأخيرة وخصوصا بين الفتيات الصغيرات وصبيان المدارس الإعدادية فى سن ١٢ و١٣ عاما . تشهد العيادات الحكومية مآس مروعة وأصبحت بعض الحالات ميئوسا منها .

ويقول الطبيب الدانيمركى «نيلسون» أن نسبة الأمراض السرية بين الصغار قد ارتفعت الى ٤٠٪ مؤخرا والسبب فى ذلك يرجع الى حرية الجنس بصورة مطلقة واستخدام الفتيات الصغيرات لحبوب منع الحمل. ويقول نيلسون انه حتى سن العشرين تزداد نسبة الاصابة بهذه الامراض بين البنات الصغيرات بينما ترتفع النسبة بعد العشرين بين الأولاد الذكور بصورة يمكن القول انه لم يعد هناك فتى او فتاة فى الدانمرك لم يتردد على عيادات الأمراض السرية .

(الجمهورية - ٣ يونيو - ١٩٧٠)

....

* تقول تقارير المباحث الجنائية الفيدرالية فى الولايات المتحدة الأريكية أنه فى كل ٨٥ دقيقة يقتل انسان وفى كل ٣٨ دقيقة تحدث جريمة اغتصاب . وفى كل دقيقة يسرق عدد من السيارات وفى كل ٣٩ ثانية تحدث سرقة مسلحة للمنازل. وقد زادت نسبة الجرائم بنسبة ١٠٠٪ ويبدى البوليس عجزا ازاء هذه الجرائم . ويقول الدكتور «ميلتون ايزينهاور» ان عدد الجرائم التى تبلغ الى البوليس لا يزيد عن ٥٠٪ من مجموع ما يرتكب . وأن المذنب لا يسجن إلا فى ١.٥٪ من الحالات.

(وطنى - ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* سايجون - أ . ب

أعلن الجيس الأمريكى أنه يحقق فى حادث اغتصاب سيدة فيتنامية بواسطة الجنود الأمريكيين ثم ذبحها فى قرية «بنه ناي» شرقى «سايجون» .. وكانت صحيفة «سايجون بوست» قد اتهمت القوات الأمريكية بارتكاب هذه الجريمة ضد سيدة تبلغ من العمر ٥٧عاما وابنتها التى تبلغ من العمر ١٩ عاما .

(الجمهورية - ١٢ سبتمبر - ١٩٧٠)

....

* هونغ كونغ - فى ١٩ نوفمبر - وكالات الأنباء

اتهمت جبهة تحرير فيتنام الجنوبية حكومة سايغون بمحاولة بيع ٢٧٠٠ من اليتامى الفيتناميين للأمريكيين ولما فشلت فى ذلك عمدت سلطات سايغون الى تخفيض مخصصات ملاجئ الأيتام من الطعام والوقود . وقالت الجبهة أن قوات حكومة سايغون كانوا يطلقون نيرانهم دون تمييز على الملاجئ عدة مرات مما أدى الى مصرع عدد كبير من الأطفال بالاضافة الى

الذين يموتون ببطء نتيجة الجوع .

(الأخبار - ٢٠ نوفمبر - ١٩٧٠)

....

* واشنطن فى ٢ ديسمبر - وكالات الأنباء

كشفت شهادة عدد من العسكريين الأمريكيين فى فيتنام عن أعمال مروعة ترتكبها القوات الأمريكية ضد المدنيين الفيتناميين بشكل منظم ومستمر، وقد أعلن كثيرون - فى التحقيق الذى تجريه الجماعات المناهضة لحرب فيتنام فى نفس الوقت الذى تجرى فيه محاكمة الملازم «وليام كالي» المتهم الأول فى قضية مذبحة «ماى لاى» - أن قتل المدنيين الأبرياء فى فيتنام الجنوبية ليس «إلا سياسة متعمدة، الغرض منها زيادة عدد قتلى الثوار فى البيانات التى تصدرها القوات الأمريكية»، وقال هؤلاء العسكريون السابقون أن الملازم كالى وغيره من المتهمين فى قضية المذبحة، ليسوا سوى كباش فداء لسياسة عامة تطبقها القوات الأمريكية فى فيتنام الجنوبية .

(الأهرام - ٢ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* واشنطن - فى ٢ ديسمبر - وكالات الأنباء

... وقال أحدهم أن الجنود الأمريكيين يقتلون المدنيين الفيتناميين ويرتكبون الجرائم المروعة بصورة روتينية وأنهم كانوا يتلقون المنح والهبات بقدر ما كانوا يقتلون من الفيتناميين. وأضاف أن الجندى الذى كان يقتل عددا أكبر من الفيتناميين كان يسمح له بقضاء اجازة فى هونج كونغ او استراليا او هونولولو مكافأة له .

وقال ضابط سابق يدعى لارى روثمان - وقد عمل ضابطا للاعلام فى

احدى الفرق الأمريكية فى فيتنام - أنه كثيرا ما شاهد المعارك تدور بين الجنود الأمريكيين لأن كلا منهم يدعى أنه قتل أكثر من الآخر من الفيتناميين بغية الحصول على مكافآت .

ثم قال انه بعد الهجوم الذى شنه الثوار الفيتناميون فى أعقاب هدنة رأس السنة القمرية فى عام ١٩٦٨ امر الجنرال «ويستمورلاند» قائد القوات الأمريكية فى فيتنام حينذاك بضرورة التركيز على عدد ما يقتله كل جندى أمريكى من الفيتناميين وانه ابلغ روثمان ان الجنود الامريكيين كانوا يضطرون فى بعض الأحيان الى اخراج جثث الموتى الفيتناميين من المقابر ليزيدوا من رصيدهم من القتلى ويحصلوا على الجوائز المعدة لذلك.

(الأخبار - ٣ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* واشنطن فى ٣ ديسمبر - وكالات الأنباء

اعترف أحد ضباط المخابرات فى شهادته أثناء محاكمة الملازم وليام كالى فى قضية مذبحة ماى لاى أن طيارى الطائرات الهليكوبتر كانوا يلقون الأسرى الفيتناميين من طائراتهم وهم أحياء ومن ارتفاع كبير. وأن رجال المخابرات كانوا يضعون الأسياخ المدببة فى آذان الأسرى أثناء التحقيق معهم فيموتون فورا .. وأعترف ضابط آخر بأن الملازم كالى جمع ٣٠ من شيوخ وسيدات وأطفال قرية ماى لاى ووضعهم فى حفرة وأطلق عليهم النار هو ورجاله فقتلوا جميعا .

(الأخبار - ٤ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* فورست بيننج «ولاية جورجيا الأمريكية» فى ٥ديسمبر - ى . ب . أ .

أدلى جندى أمريكى سابق بأخطر شهادة - حتى الآن - فى محاكمة

الملازم «وليام كالي» ، المتهم الأول فى قضية «مذبحة ماى لاي» ، فقد شهد الجندى السابق واسمه دينيس كونتى (٢١ سنة) وهو من رجال الفصيلة التى قادها كالى فى الهجوم على قرية (ماى لاي) بأنه شاهد ثلاثمائة قتيل على الأقل فى القرية، كثير منهم قتلهم كالى بنفسه.

(الأهرام - ٦ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* فورست بيينج - «جورجيا» فى ٨ ديسمبر - وكالا الأنباء :

قال توماس تيرنز، أحد شهود الاثبات فى قضية «ماى لاي» ، أن الملازم «وليام كالي» نظم عملية لإبادة المدنيين الفيتاميين من أهالى قرية «ماى لاي» بطريقة خط التجميع . وأنه كان يأمر الجماعات الصغيرة من هؤلاء الفيتناميين بالنزول فى مصرف لمياه الرى ويطلق عليهم النيران عقب نزولهم فيه ووقوفهم صفا . وقد أتم قتل هذا العدد خلال فترة تقل عن ساعة ونصف الساعة .

(الأهرام - ٩ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* فورست بيننغ - جورجيا - وكالات الأنباء

وصف أمس شاهد الاثبات الأخير فى قضية مذبحة «ماى لاي» تفاصيل الجريمة الوحشية التى لقى فيها ١٠٢ على الأقل من الأمهات والأطفال فى فيتنام الجنوبية مصرعهم فى يوم ١٦ مارس ١٩٦٨ (التقرير الحقيقى لضحايا المذبحة يصل الى نحو ٧٠٠ على الأقل) . قال الشاهد واسمه جيمس دورسى أنه كان يعمل مع الملازم «وليام كالي» ضمن حملة تفتيشية فى تلك القرية وأنه فوجئ بعد انتهاء التفتيش بالضابط الأمريكى ومعه شاويش الحملة (بول ميدلو) يسوقان الأمهات والأطفال تحت تهديد السلاح

الى خندق فى طريق القرية، ثم أمر كالى جنود الحملة باطلاق الرصاص من مدافعهم الرشاشة على كل من فى الخندق وإبادتهم جميعا .

وأضاف دورسى أنه شخصيا لم يستطع اطلاق النار عندما وجد الأمهات يحتضن أطفالهن بأجسادهن بأمل حمايتهم من الرصاص . ولكن الملازم كالى والشاويش «ميدلو» أطلقا النار بلا تردد . وأنه شاهد بنفسه الملازم كالى وهو يغير خزانة مدفعه عدة مرة، ويطلق النار وهو يسب قائلا أن كل الفيتناميين يستحقون الموت . وقال الشاهد ان الخندق تحول الى كومة فظيعة من الدم والجثث المشوهة المصابة فى الصدر أو الرأس أو الامعاء.

(الجمهورية - فى ١٠ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* فورست بيننغ ولاية جورجيا - فى ١١ - ى . ب . ا

أعلن محامى الدفاع عن الملازم ويليام كالى المتهم الأولى فى قضية مذبحة ماى لاى أن الفصيلة الأمريكية التى دخلت قرية «ماى لاي» كان لديها أوامر بقتل كل شيء حي.

وأضاف المحامى أن القائد المسئول عن الفصيلة أصدر أوامره بأن «تحرق القرية ويطلق الرصاص على الماشية وتسمم الآبار ويقتل كل شيء حى فى تلك المنطقة» .

(الأهرام - فى ١٢ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* أنا طالب متدين، صادفت فتاة من أسرة صديقة لأسرتنا وكنا نخرج معا دون علم الأسرتين وكان هدفى من ذلك أن أعودها على الآداب الاسلامية. وقد أهديتها بالفعل بعض الكتب الدينية ولم أرتكب معها شيئا

يخالف تعاليم الاسلام، وتعاهدنا على ألا يفرق بيننا الا الموت، ولكننى بعد فترة من الزمن قاطعتها خشية أن يكون فى عملى مخالفة للدين .. فهل أنا مخطئ أم مصيب ؟

(الحائر - س. م . ع - الاسكندرية)

* تجيب على هذا السؤال لجنة الفتوى بالأزهر الشريف :

- الإسلام يحرم الخلوة بين الرجل والمرأة حتى ولو لم يحدث بينهما شيء يغضب الله وذلك حرصا على عدم وقوع أى منهما فى المحرم . ومن أجل ذلك فإن مقاطعة الفتاة كان أمرا واجبا عليك من البداية .

(الجمهورية - باب رأى الدين - ١٤ يونيو - ١٩٧٠)

....

* غدا بسينما قصر النيل . جولى كريستى . جورج سكوت . فى «بتوليا العاشقة». بمنتهى الاخلاص ظلت بدون عشيق ستة أشهر كاملة . للكبار فقط .

(إعلان - -الأهرام - ١٥ يونيو ١٩٦٩)

....

* سيدى .

ماهى نصيحتك لعروس جميلة فى الثانية والعشرين ، استهلت شهر العسل بسيل من اللكمات، سددها عريسها على وجهها وصدرها وظهرها ؟

هل اطلقه واترك الناس يحيكون حولى الف شائعة كأن يقولوا انه هو الذى طلقنى لأنه اكتشف انى لست عذراء ، وهذا غير صحيح؟. أم اصبر وأستمر وأعيش مدى الحياة معرضة لعصبيته ورعونته ولكماته الموجعة ؟

(بيروت - عروس)

(مجلة الشبكة اللبنانية - ٢٨ اكتوبر - ١٩٦٨)

....

* نيودلهى – ى . ب . ا .

ينفق اوناسيس وزوجته جاكلين ارملة الرئيس الأمريكى السابق كيندى من ثروة المليونير اليونانى بمعدل ٣٨٥ الف دولار أسبوعيا منذ زواجهما فى أواخر عام ١٩٦٨ . جاء ذلك فى كتاب بعنوان «شهر العسل الذى تكلف ٢٠ مليون دولار» من تأليف الصحفى الأمريكى فريد سباركس .

(الأخبار – ٢٧ مايو – ١٩٧٠)

....

* بيرو – ى . ب . أ

أعلن صائب سلام رئيس وزراء لبنان أنه أمر بمنع الرقابة على التيلفونات وتسجيل المكالمات التليفونية، وقال هذه التسجيلات كانت تتم بأمر المخابرات اللبنانية وتسلم اليها بعد ١٠ دقائق فقط من تسجيلها .

وروى أمام مجلس النواب اللبنانى قصة المغامرة المثيرة التى قام بها بنفسه لضبط أحد المراكز الحكومية التى تراقب وتسجل المكالمات التيلفونية. قال انه اندفع الى مكتب خاص يقع فى أحد أدوار ادارة البريد واستولى على تسجيلات تليفونية كانت معدة لارسالها الى المخابرات . وقال أنه وجد بين هذه التسجيلات محادثة تليفونية أجراها بنفسه فى نفس اليوم .

(الجمهورية – ١٢ ديسمبر – ١٩٧٠)

....

* واشنطن – فى ٢٩ – خاص للأهرام (ن . ى . ت) .

يقوم للبوليس الامريكى بالتعاون مع أجهزة الأمن والمخابرات العسكرية بجمع المعلومات عن المواطنين الأمريكيين باستخدام العقول الالكترونية ووضع ملفات لهم بطريقة الميكروفيلم ، ويطلق رجال المخابرات تعبير

«الأشخاص الجديرون بالاهتمام» على مواطنين عاديين ليست لهم أية سوابق ولكن أجهزة الأمن تهتم بمتابعة نشاطهم بحجة الحيلولة دون قيامهم بأعمال التخريب او الاضطرابات او الأضرار بالزعماء .

(الأهرام - ٣٠ يونيو - ١٩٧٠)

....

* واشنطن - وكالات الأنباء

«وقع الرئيس نيكسون أخيرا سلسلة من القوانين تبيح الحبس الاحتياطى والحبس الوقائى والتفتيش والتجسس دون اذن سابق من النيابة، واستباحة الحريات الخاصة باستباحة استراق السمع على ما يدور فى المنازل بواسطة الأجهزة الحساسة» .

(وطنى - ٦ ديسمبر - ١٩٧٠)

....

* اصبح كل ما يتعلق بحياة الناس الخاصة من معلومات وعادات وحقائق من الممكن الحصول عليها وجمعها وتخزينها عن طريق العقول الالكترونية او ما يسمى الآن «بنوك المعلومات» وبضغطة خفيفة على زر صغير باحدى هذه الآلات المعقدة، أصبح من الممكن فى ثوان معدودة، أن تحصل على كل ما يتعلق بحياة أى شخص من الأشخاص. وقد تقدمت الوسائل الاليكترونية بالتسمع والتنصنت الى حد أصبح معه الاعتماد على ميكروفون صغير يثبت أما فى التليفون الذى يراد التسمع على مكالماته أو فى أى شيء من أدوات الحجرة التى يجلس فهيا الضحية «مودة قديمة» . فكلنا يعرف الميكرفون غير المتصل بسلك الذى لا يزيد حجمه عن المليم الصغير . وهو فى متناول كل فرد فى أمريكا بما يتراوح بين ١٠ و ١٥ دولاراً ويمكن اخفاؤه فى طقطوقة السجائر او نتيجة المكتب او رف المكتبة أو

على هيئة زرار يثبت فى چاكتته الانسان. وفى نيويورك بعض المحترفين يعلنون عن أنفسهم فى الصحف والمجلات لتعليم الناس - الأزواج المتشككين فى زوجاتهم مثلا - طرق التجسس والتسمع واستخدام الأجهزة الاليكترونية الحديثة وذلك من منزل مجاور أو دور آخر فى العمارة بحيث يسمع كل ما يدور فى غرفة من غرف المنزل .

وهناك من أجهزة مراقبة الحركات ما يشبه الشاشات الصغيرة التى لا يلحظها الرائى فى أى حجرة مطلقا . ولكنها تسمح للشخص القابع فى الحجرة المجاورة بتصوير كل حركة داخل هذه الحجرة. وتطور التصوير بالأشعة تحت الحمراء التى قد تثبت داخل الحجرة او ترسل من خارجها لتصوير كل ما يدور فيها فى أحلك الحجرات ظلمة. وهناك عدسات تليفزيونية متناهية فى الصغر ترسل صورها الى جهاز استقبال على بعد عشر عمارات أو أكثر فى حجرة أخرى تسجل ما يدور فى الحجرات المراد مراقبتها ، حتى على ضوء لا يزيد على ضوء سيجارة مشتعلة فى حجرة مغلقة. أما أشعة الليزر فتهدد بتصوير مخادع الناس ليلا كما لو كانت فى وضح النهار على شاشات التليفزيون، حتى قال الباحث الاجتماعي. سمايروون بيرنتون» فى كتابه «غزارة الأسرار» أن فى اعتداءاتهم على شئوننا الخاصة دليلا على أنه فى الستينات من القرن العشرين لايوجد انسان فى معزل عن الدنيا . ولم تعد له أى حرية فى أن يترك وشأنه حتى ولو أراد هو ذلك .

(تحقيق صحفي بقلم محمد حقى
- الأهرام ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩)

....

04 الوثيقة الثانية

رسالتان متبادلتان بين الوليه عزيزة شرف الدين و Mrs L.S. Iodic

عند الظهر أعود إلى بيتى بعد طواف نصف النهار الأول . يقف البواب عندما يرانى . بأدب شديد ينحنى . إذا ما أعطيته ظهرى ، أخرج مفكرته وسجل لحظة عودتى وأسماء ما أحمل من كتب ومجلات . أنظر فى صندوق البريد آملاً أن أجد رسالة ما ، ودائماً لا أجدها . بيد أننى لم أفقد الأمل أبداً فى أنها ستصل . ولم أكن أعرف بالتحديد من سيكتبها . «ألما روزى» كانت أول من وعدنى بذلك . كنا نتحدث عن احتضان العالم وننظف حجرة أحد الضباط : الأرض رخامية باردة ، أما الماء فكان متجمدا . أقعينا - أنا وهى نمحو آثار دماء بها ، فكرت لحظتها فى أن هذا سينتهى يوما ، وأننا قد نلتقى بعد انتهاء الحرب . قلت:

- سيكون مدهشا أن أتلقى منك خطابا..

ونحن نتبادل العناوين أطلت «أديث لينك» من غرفة مجاورة :

- إذا عدت يوما إلى ابنتى سأصدق كل المعجزات .

ضحكت ، قلت أن عليها أن تخطرنى آنذاك ، لآخذ عهدا على يديها وأعمدها شيختى المباركة . وهى تملينى العنوان ، تحدثت عن زوجها الذى ذهب ليقاتل ولكنها لا تعرف أين ، وعن طفلتها قالت :

- وهم يأخذوننى فكرت فى أن آخذ الطفلة معى ، كانت ماتزال ترضع ، ولكن الجدة رفضت ذلك ، وأصرت على ابقائها معها ، كذلك رفضت «تساريكا» .

كانت ترتدى معطفاً أبيض يرتجف من البرد ، قلت :

- «تساريكا» من ؟

- أختى .. ألم أذكر لك هذا ؟ هى فى الثامنة عشر ، ولكنها تحب الأطفال ، وقد تمسكت بالطفلة .

«ألما» ، وهى تحك بالفرشاة قطعة دم متجمدة :

- هذا أفضل لكما ، لو كانت الطفلة معك لأرسلوكما معا إلى أفران الحريق ..

صمتت «أديث» . سمعت أقدام الحارس فى أقصى الممر. خافت . عادت إلى مكانها فى الحجرة المقابلة ، لتعمل على الآلة الكاتبة . انهمكنا «ألما» وأنا - فى تنظيف البلاط ..

....

بدا لى أنه من السخف جداً ألا تصل الإنسان أى خطابات . قرأت فى صحيفتى الصباحية احصائية تقول أن مرفق البريد مرهق بالعمل وانه يوزع مليونا ونصف مليون رسالة يوميا ، عجبت كيف لاتصلنى واحدة . كان من تقاليد مدينتنا فى تلك السنوات السخرية من مرفق البريد . فكرت فى كتابة مقال حاد اللهجة ضد المرفق . عدلت عن ذلك . خشيت أن أتعرض لسوء .

شغلنى الموضوع . فكرت فى التأريخ لنشأة البريد ، وتطوره ، وآفاق المستقبل أمامه . لم أجد الشجاعة الكافية للاستمرار فى هواية جمع الطوابع البريدية. خشيت أن أتهم بالاتصال بدولة أجنبية أو أكثر. قلت أن وجود عدد كبير من طوابع البريد الأجنبية سيدفع البعض للشك فى صلتى

بجهة ما (١) .

ناقشت الموضوع مع قطتى. وشرحت لها وجهة نظرى بافاضة شديدة. قطتى كانت مرهقة جداً. نامت بجوارى. لم تعن بالاستمرار فى المناقشة .

ذات ظهيرة وجدت فى صندوق بريدى خطابين دفعة واحدة. أخذتهما ملهوفاً .

قال بواب منزلى :

– هل هى خطابات من خارج البلاد ؟!

لم أرد عليه. لمحته يسجل ذلك فى تقريره اليومى عنى (٢) . لفرط فرحتى قفزت السلم قفزات متتابعة. فتحت الباب. ارتميت لاهثا. قبلت قطتى فى فرح غامر. بشرتها بوصول الخطابات. تثاءبت. جرت إلى دورة المياه.

قرأت الخطابين. دهشت. أعدت قراءة الأسماء المكتوبة على غلافهما. أحدهما لم يكن باسمى. أما الثانى فعلى الرغم من أنه معنون بعنوانى

---

١ – تعودت منذ سنوات طويلة أن أمزق الرسائل القليلة التي تجيئني ، كذلك الاهداءات التي يكتبها المؤلفون علي النسخ التي يهدونها لي من كتبهم، تعودت أيضا ألا احتفظ بأي صور تضمني وآخرين . وكان عدد كبير من تلك الأشياء قد وقع غنيمة باردة في أيدي البعض . وقد سبب هذا ضرراً بالغاً لمن كتبوا الخطابات أو صوروا معي . ومنذ ذلك الحين فقدت ذلك الأرشيف الخاص الذي يملكه معظم الناس ، والذي يضم ذكرياتهم الشخصية .

٢ – وهذا هو نص التقرير اليومي الذي كتبه عني بتاريخ ١٥ مارس ١٩٦٨ نقلاً عن أدلة الاتهام التي أودعها المحقق ملف قضيتي ،خرج المذكور في الثامنة صباحا وخرجت معه زوجته ، وكانا يبدو وكأنهما قد خرجا لتوهما من الحمام . وهو علي باب المنزل نظر المذكور إلي السماء شزرا . عاد في الثانية ظهرا ومعه عدد من المجلات الأجنبية . طلب عند العصر لشراء زجاجتين من البيرة . حضر صديقه ،محمود السفروت، لزيارته بعد المغرب وبقي معه نصف ساعة . وهما خارجان كانا يتحدثان عن شخص يدعي ،ريجي دوبرييه، . وكان المذكور يمدح بعض مواقفه . في الليل تشاجر مع زوجته . وارتفع صوتهما ولكن الأصوات انخفضت بعد ذلك وسمعت أصواتاً لعلها في الغالب أصوات قبل ، وقد انطفأ النور بعد ذلك مباشرة في حجرة نومهما . ولم يصدر عنها سوي صوت ضحكة خافتة، .

وباسمى فان ما كان يتحدث عنه لا علاقة لى به على الإطلاق. خجلت لأننى تطفلت على أسرار غيرى من الناس. فكرت قليلاً. قلت أن «الطَّواف» كائن مرهق لاشك. وربما أسقط الخطابين خطأ في صندوق بريدى . اعتزمت أن أردهما في الصباح.

عند الغروب وقفت قطتى على حافة الشرفة تتأمل قطا سياميا جميلا فى الشرفة المقابلة. ماءت مواء غريباً. فى الربيع نحن. قطتى تمر بشبق الاخصاب. جارتى أخذت منى موقفا هو مزيج من الكراهية والخجل لأننى شاهدت ذات ليلة جزءا من حياتها السرية مع زوجها. عرفت أن بردفها الايسر وحمة على شكل الفراولة [٣] انسحبت هذه الكراهية على قطتى التى تطفلت مثلى على حياة المرأة السرية. دفع هذا جارتى إلى التفريق بين قطها السيامى وبين قطتى. فى خريف عام مضى حضرت جارتى احتفالا بتزويج القطة للقط ، يومها تبادلنا حديثاً مليئاً بالتوريات الجنسية ، أكد لى أن جارتى ذات خبرات واسعة فى هذا المجال. فقدت الأمل نهائياً فى اتحدث مع قطتى عن الخطابين. ولما جاءتنى ندابة قريتنا اعتذرت لها لأننى فشلت فى العثور على أوراقى، وبذا فان عقد عملها مع «ألما روزى» فى أوبرا «لاهاى» قد ضاع. حدثتنى عن عود من القرنفل على حافة القناة زرعوه وإذ أزهر أتى ملائكة الموت فاجتثوه. سألتنى كيف تركتهم يفعلون هذا؟. قلت انهم جاءوا وأنا نائم. سألتنى لماذا لم تحل المعادلة الصعبة التى ورد ذكرها

---

٣ - وأشك في أن آخرين ربما يعرفون هذا أيضا ، منهم الفتي - أو الفتيان - الذين أحبتهم علي عهد صباها الأول ، وأمها وأبيها - وبالطبع زوجها - وربما آخرون تطفلوا علي حياتها السرية مثلي . وقد يكون بواب عمارتنا قد سجل ذلك في تقريره عنها . وإذ ذاك فإن ملفها - بإدارة مباحث أمن الدولة - يتضمن هذه المعلومات الهامة .

فى ميثاق العمل الوطنى ؟. قلت : إنها صعبة. قالت فى عجب : ولكنك متعلم ؟. حاولت أن أتأكد من ذلك : ترجمت الخطاب الثانى الذى كتبته مسز «ل. س. لوديك» من الانجليزية إلى الألمانية حتى يفهمه الفوهرر «أدولف هتلر». توقف عن هز أردافه. هنأنى على اتقانى الألمانية والانجليزية معا. قامت «نفيسة المرادية». غادرت فراشى عارية. اتجهت إلى الحمام. اغتسلت لتتخلص من افرازاتى. أسندت رأسى إلى صدرها. قالت :

– لماذا تستقبل غيرى فى فراشنا؟

نظرتُ إليها بدهشة :

– ولكننى لم أستقبل أحداً.

– وكليوباترا؟

صمت طويلاً. قالت :

– أخاف عليك ، ربما اتهموك بقتلها أو دفعها إلى الانتحار.

– ولكن من الثابت تاريخياً أن الأفعى هى التى لدغتها.

ضحكَتْ.

– من السهل اثبات عكس ذلك بوسائل العلم الحديث.

ارتجفت خوفا. صحت :

– زملّينى .. دثرينى.

وضعت رأسى بين نهديها. كانا دافئين. لينين. غطتنى بشعرها الطويل الأسود. ربتت على جسدى. أزاح قاضٍ خصلات الشعر. ثبت عينيه فى عينى. قال:

– أين دفاعك ؟

....

رويت له ماحدث يومذاك على السلك الكهربى:

أقبلت الشاحنة الضخمة على الطريق المؤدى إلى أفران الحريق. نزل منها خليط من النساء والأطفال، وقفنا على مقربة من الأسلاك المكهربة. شاهدنا الجموع تتقدم. لم ينبس أحد ببنت شفة.. جاءت« أديث لينيك» ألقت نظرة:

- إنهم من قريتنا..

يدها على خدها تجاهد رغبة هائلة فى الصراخ. لم تبتعد عيناها عن الجمع المتدفق على الرصيف. تشنجت كفها على ذراعى. وقفت على أطراف أصابعها صرخت..

- تسارى.. تسارى.

بعيون فأر خائف..

- إنى أراها.. أختى تساريكا.. أمى أيضاً.. جدتى..

أسرعنا نضع أيدينا على فمها حتى لاتصيح فتلفت إليها وإلينا الأنظار. عيناها تتابع جنازة العائلة.. الطبيعة حولنا هادئة. سلام عجيب. الصف الطويل يتقدم ببطء. أعمدة الدخان تتصاعد فى صمت. تقدمت «إديث» بضع خطوات إلى الأمام. تشنجت كفى على ذراعيها خشيه أن ترمى بنفسها على الأسلاك المكهربة. أحاطت فمها بكفيها واستمرت تنادى. تنادى . تنادى:

- تسارى.. تسارى..

تركت فتاة مكانها فى الصف. وقفت هنيهة. سمعت النداء تحمل على ذراعيها طفلاً صغيرا. عرفت الفتاة «أديث». لوحت لها. ملامح وجهها تتشكل فى فرحة طاغية. العرق يتصبب فوق جبين «إديث». فى لهفة مجنونة صاحت:

- تسارى.. تسارى.. إعط الطفل للجدة.. أرجوك اعط الطفل للجدة.. سأشرح لك فيما بعد .

أطاعت الفتاة. سيدة عجوز تتشح بالسواد تسلمت الطفل ملفوفا فى

بياض كالثلج المندوف. بدأ الصف الطويل يسرع الخطى فى الطريق إلى صالة الفرز. اختفت «تساريكا» والأم والجدة عن أنظارنا. استمرت «أديث» واقفة بجانب السور. عيناها زائغتان. هززتها. جذبتها بعيداً. أخفت وجهها فى أحضانى:

- أيا كان الأمر فقد فعلت شيئاً.. بدون الطفل قد يكون مصير أختك معسكر العمل. ولكن مع الطفل فان مصيرهما معاً أفران الحريق!

استمرت «أديث» تسير فى ذهول، فى اتجاه الثكنات الحمراء.. الطبيعة هادئة.. هادئة.

....

قال القاضى:

- أسألك عن المستندات.

مددت إليه يدى بالخطابين.

الرسالة الأولى: جلابية الولية عزيزة شرف الدين:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

بشلا فى ١٨ يناير ١٩٦٩

حضرة ولدنا الغالى الدكتور شوقى بكلية طب القصر العينى بمصر المحروسة (٤)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد لولا معلوميتنا أنكم مشغولين ع الآخر فى شغل المدرسة لجئناكم

٤- من المعلوم للجميع أنني طبيب ، وأيضا فأن اسمي «شوقي» ، بيد أنني لا أذكر على الإطلاق مناسبة أرسال هذا الخطاب إلي، بالرغم من أن اسم موقعه «الحاج عطية السباعي» يتطابق مع اسم والدي .

زائرين، وقضينا عندكم فى مصر المحروسة جمعتين نستبارك فيهم بزيارة مقام سيدنا وتاج رأسنا الامام الحسين زين شباب أهل الجنة ، وستنا أم هاشم وسيدنا الامام الشافعى قاضى الشريعة ، رضى الله عن الجميع . ولكنكم طبعا مشغولين عنا ، واحنا أيضاً نعلم أن هذه آخر سنة ليكم فى مدرسة الطب ، وأنها تحتاج إلى مشغولية كبيرة . وربنا يحقق لينا فيكم الآمال ، وترجعوا منصورين وفائزين ، وترفعوا راسنا فى عموم الناحية . ونبلغكم أيضا أسفنا مزيد الأسف وأسف عمكم الحاج عيسوى وعمتكم هنيه لعدم ارسال مكاتيب إليكم. والسبب فى ذلك يا ولدى أن حضرة حليم أفندى ناظر بوستة بلدنا قد استعفى من شغله وربنا فتح عليه فى شغلة أخرى . ومن يومها وقف حال مكتب البوسطة وأغلق بالضبه والمفتاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهذا هو السبب فى أننا لا نرسل مكاتيب لكم ، إذ لا يخفى عليكم أن الموضوع يحتاج إلى مشوار للمركز والدنيا تلاهى زى ما أنت عارف .

نرجو ونلح فى الرجاء يا دكتور شوقى أنه بمجرد وصول هذا اليكم (انظر خلفه) تبذلوا غاية ما فى وسعكم لإجابة الطلب بتاعنا ضرورى ضرورى . أنت طبعا فاكر الحرمة (فريزة بنت عبد الباسط) ، زوجة الواد بدوى اللى كان زمان (تملّى) فى أرض جماعة أبو زايد [٥] ، حصل السنة الماضية أن أصابها عيا اللهم احفظنا فى بزّها الشمال . وغلبت فى علاجه ،

٥ – التملي – بفتح التاء والميم وتشديد اللام وكسرها – كائن يوجد كثيراً في القري، وهو مزيج بين القن والعامل والعبد في مصطلحات المؤرخين الاقتصاديين . وهو عادة يقيم مع البهائم فى حظيرة واحدة ، هو وأسرته وأولاده ، وهو يخدم الجميع ، الدواجن والمواشي والحقل ورب البيت وربته ، وأطفالهما الصغار . و«التمليه» من المهن الموروثة ، ولذا فأنك إذا عثرت علي شجرة عائلة لأي واحد منهم . فستجد أنه عريق فيها ، وأنه يعد أولاده لوراثة مهنته في اخلاص شديد .

وطبعاً أنت عرف أنهم غلابة ، ولا يحتكموش ع اللضا . والشيخ «عبدالحليم» - جزاه الله كل خير - عمل غاية ما فى جهده لشفائها . وعمل كام جلسة لأسيادنا - اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم - وبخر وقرأ آية الكرسى والصمدية . وكتب كام حجاب .. ووصف مراهم ودهونات ، لكن مفيش فايده .. والحرمة فضلت تصرخ لحد ما لمت الناس من آخر البلد ، والجار استجار من العذاب اللى كانت فيه ، ربنا ما يحكم بيه لا على عدو ولا حبيب. وفيه ناس بتقول أن ده انتقام من المولى عز وجل لأنها كانت مشيها بطال ، وبيقولوا أنها فى أواخر أيامها كانت بتاكل من الخطا ، وبتكشف ديلها للى يسوى واللى ما يسواش ، وأهو كلام يا بنى ، ربنا يستر على ولايانا ، ولا يوقعشى بنى آدم فى ضيقة .

وفضلت على هذه الحال حتى قدركم ربنا وكشفتنم عليها فى أجازة العيد الصغير السنة الله فاتت ، وقلتم إن عندها سرطان فى بزها الشمال ، وطلبتم ارسالها إليكم فى القصر العينى . والحرمة دى مالهاش حد واصل ، ومقطوعة من شجرة . فأهل الخير جمعوا لها قرشين يدوبك أجرة السفر مع محمود أفندى الابونية [٦] . وبعد سفرها بكام جمعة اختارها الكريم إلى جواره، وما حدش فى البلد عرف لها رمة . لكن محمود أفندى الأبونية طلع اشاعة أنها اندفنت فى ترب الصدقة . وفى مرة ثانية قال أنها دخلت المشرحة عندكم فى القصر العينى لأجل علام التلامذة (أنظر خلفه) ، وطبعا الواد بدوى مسالش ، ولما الناس كلموه عشان يروح يدور على رِمّة مراته ،

٦- سمى محمود افندي بالابونية نسبة إلى الاشتراك السنوي المخفض الذي استخرجه من مصلحة السكك الحديدية وهو يعرف فى قريتنا بـ «الابونيه» . ويتيح لمحمود افندى فرصة السفر إلى القاهرة أكثر من مرة فى الأسبوع لتوصيل الطلبات وشراء لوازم التجار فى قريتنا ومجموعة من القرى المجاورة نظير أجر قليل .

حلف بالله العظيم أن ما معاه حق رغيف العيش ، وقال للناس : أهى كلها أرض ربنا ، لا هى حتى الحكومة ما تدفنهاش على حسابها . والحكاية يا دكتور أن الحرمة المذكورة ، كانت عند ذهابها للمستشفى استلفت جلابية وغيارين جوانين نص عمر من الولية عزيزة شرف الدين اللى بتبيع الخضار فى الخص جنب قطر الدلتا . وذلك لأن «فريزه» لم يكن عندها شيء تستر بيه . ولما كانت عزيزة وليّه مكسورة الجناح ، وليس لها أحد على الاطلاق ، وبتجرى على أيتام ، فكتر خيرها والله للى سلفت الهدوم اللى عندها لفريزة ، وكانت تنتظر أن ربنا يشفيها ويرجعها البلد فتأخذ هدومها . ولكن لما ربنا اختارها لجواره سألت محمود أفندى الابونية ع الجلابية والغيارين فزعق فيها أمام الخلق وأهانها اهانة شديدة . وقال أن المرحومة اندفنت بهم ، راحت للواد قالت بدوى وقالت له إن هدومها إن مارجعت ليها فسوف تمشى فى الشارع وحالها باين ، فالواد بدوى الله يجازيه زعق فى وسط داير الناحية ، وقال لها : هم .. وأنا أجيب لك لباس وقميص منين ، طب والرابعة الشريفة أنا ما حطيت لباس فى وسطى بقالى ييجى خمستاشر سنة . والناس ضحكت وكان حتة دور يا دكتور . القصد الولية غلبت من الواد بدوى ومن محمود أفندى خصوصا أن الاخير راجل حمقى ومخه مبرى . فاندارت علينا وقالت إن أنت يا حاج عطيه لك ولد فى القصر العينى . وليلة امبارح بكت فى مندرتنا ودموعها نزلت سحّ وحلفت برحمة اللى ماتوا لنا أنها مستورة بالعافية . وأن السنة دى الشتا واعر عليها قوى ، ولا سيما أنها عايشة فى خصّ على شط الترعة . وحتى قالت وهى تعيط بالدمع الهتون : يرضيك يا حاج عورتى تنكشف . وكحت اللهم احفظنا كحة مسلولة، بعيد عن السامعين . فأوعدتها أنى هاكتب لك جواب مستعجل بالموضوع ، واحكى لك فيه الحكاية من طقطق لسلاموا عليكم . فدعت لك

كثيراً . بالفلاح والنجاح ، وأن ربنا ما يوقعك فى إيد عدو ولا يحكمه فيك . ربنا يحبب فيك خلقه ولا يحرمك من دعاء الغلابة ومكسورى الجناح .

لذلك ارجو يا ولدى الداكتور أنك تبذل المستحيل وتتشمم أخبار الجلابية. وهى جلابية باتستا ارضيتها خضراء وفيها ورد أحمر ، أما الغيارين فلونهم أحمر فاتح ، وكل غيار عبارة عن لباس وقميص وحمالة للصدر . ضرورى . ضرورى .

وفى الختام كل من حدانا يهدونكم السلام ويدعون لكم بالنجاح والفلاح والعز والتمجيد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتبه العبد الفقير لله
مخلوف أبو أحمد
صراف الناحية
ويهدى سلامه الكبير للداكتور

املاه والدكم
الحاج عطية السباعي
بشلا - ميت غمر - دقهلية
١٨ يناير ١٩٦٩

الرسالة الثانية : مقتل طائر غرد :

٧٩ الكسندرا رود - سانت جونز وود
لندن فى ٢٨ يونيو ١٩٦٩
السيد / وزير السياحة بالجمهورية العربية
شارع القصر العينى - القاهرة
سيدى العزيز ..

إننى على ثقة من أنكم سوف تغفرون لى كتابتى إليكم بشأن حادث

رأيناه ونحن نقوم بجولة فى النيل خلال اشهر ابريل من هذا العام فى المدة من السابع حتى السابع عشر من هذا الشهر، ازعجت الكثيرين من السائحين الذين كانوا معى. وقد وقع الحادث فى قرية صغيرة بالقرب من مدينة ميت غمر اسمها بشلا Bishla ، ولكنى لست متأكدة تماماً . لقد كان هناك بعض غلمان صغار يمسكون عصفوراً صغيراً مربوطاً فى عصا غير قادر على تحرير نفسه ، وقد عرضوه علينا فى ابتهاج شديد ، وعندما طلبنا منهم أن يطلقوا سراح العصفور المسكين ، لم يفهموا بطبيعة الحال ، ولم يكن فى استطاعتنا نحن أن نتكلم العربية ، وقد انتهى الأمر للأسف بموت العصفور المسكين الأمر الذى أحزننى كثيراً .

أليس فى استطاعتكم أن تفعلوا شيئاً لتعليم الأطفال حتى لا يؤذوا الطيور والحيوانات التى لا حول لها ولا قوة ، لا لأن ذلك يسىء إلى السائحين . بل لأن هذا العمل من القسوة بحيث يسبب لها ألما لا مبرر له . إن أغلب الأطفال قساة دون تفكير، إذا لم ينصحهم أحد بألا يعلوا ذلك . ولدينا حوادث مماثلة فى انجلترا ، ولكنها تتوقف عندما يبلغ أحد عنها . ومن ثم فأننى أناشدكم لأننى فهمت أن لديكم السلطة لكى تستخدموا نفوذكم فى مثل هذه الأمور .

إن مصر بلد جميل ، بشعبها المؤدب ، وأطفالها المحبوبين ذوى الأسنان السلمية البيضاء ، والابتسامات التى تفيض لهفة ، وإن حادثا كهذا يمكن أن يفسد عطلة كاملة ويثير الأسى فى نفس الإنسان .

مع أعمق تمنياتى لخير وسلامة الشعب المصرى (٧) .

المخلصة ل.س. لوديك

تحريراً في ١٩٦٩/٦/٢٨

---

٧ - الخطاب مترجم عن الانجليزية ، وتقع مسئولية الترجمة كاملة علي .

05 الوثيقة الثالثة

قصاصات من صحيفة «غربة المساء»

عند الغروب يتعسنى رحيل الشمس . ينطفىء الضوء تدريجيا فى الطرق . يتلون الأفق بلون الدماء النازفة . وأنا أشرب قهوة بداية المساء ، تهجم على الأحزان ، ينقبض قلبى . أقول أن رحلة النهار المملة قد انتهت وأنه لا بديل أمامنا من أن نكررها كل يوم بالطريقة نفسها . إذ ذاك يستفزنى احساس طاغ للخروج من المنزل . أضرب فى شوارع الليل العريضة ، ادخل سراديبه .

فى أحد تلك السراديب التقيت بها هناك ، كنت أبحث عن الرجل الذئب سألتها عنه. ضحكت . كانت سمراء حلوة الملامح . شربتها عيونى الباحثة عن واحة بعيدة بطول العمر .

عند الغروب تعود العصفورة التى تسكن قمة مئذنة مسجد أثرى تواجه شرفتى . تنظر إلىّ فى عجب . فى عينيها الضيقتين نظرة رثاء . تسألنى عن سبب اكتئابى . فى تلك اللحظة أتذكر أن حبيبتى الأولى قد قتلها الترام ، وأن كل شىء قد تكشف عن خديعة كبرى ، فهل التقت «اديث لينك» بشقيقتها «تساريكا»؟ وماذا فعلت الطفلة الصغيرة عندما ألقوا بخالتها إلى فوهة الفرن ؟

فى مهبط الليل يختفى زحام الحياة . يجىء «نابليون» . يتطفل على فى سماجة . يشرب قهوتى ويسألنى عن شمة كوكايين . يلف «الفوهرر» وسطه بفوطة وجهى . يهز أردافه فى تمكن وبارتعاشات سريعة . تأتى حبيبتى

«شهد دار» . تحدثنى عن حبيبها «المقر الشهابى أحمد بن الجيعان» ، وما جرى له مع ملك الأمراء «خاير بك» تروى عن ذلك الزمان البعيد ، تتوه العين فى مساحات من النشوة اللانهائية . وأذكر أن جدى مات سكران على شاطىء رأس البر فيا لها من متعة عزت علىّ وأنا حى . أما زوجتى فكانت ترتدى ملابس تحتانية غامقة السواد فى ليلة حبنا الأولى . ظننت أنها أرادت أن تؤكد لى بياض بشرتها العاجية . «ليلتها كانت الحياة تتموج عبر السواد والحزن وقاتم الذكريات» . لكنها اعترفت لى - بعد ذلك - أنها أرادت أن تثبت لى أنها ليست فتاة عابثة .

فى كل ليلة أفكر أن أكتب رسالة إلى «البنتاجون» أقول فيها أننى عينة صالحة لدراسة تأثير غازات الأعصاب على الإنسان . أفشل فى كتابة صيغة ملائمة . زوجتى تغيب كثيراً عن المنزل ، تذكرت - يوماً - أننا لا نلتقى أبداً. فى الشــرفة كانت جالسة . الدنيا مغارب . أصابعها تعمل فى صوف متكور .

- أين تذهبين ؟ لم أعد أراك ؟!

اقسمت أنها لا تغادر المنزل على الإطلاق . وأنها تجلس معى دائماً فى الحجرة نفسها ، بيد أننى أكون غالباً صامتاً . قالت :

- لم تعد طبيعياً منذ عدت من هناك .

مثلت أمام قاضىّ . قلت له أن الحزن ليس جريمة .

ضاحكاً قال :

- الجهل بالقانون لا يعفى من العقاب .. بذلك أفتى الثقاة من السلف الصالح .

ماءت قطتى غير مصدقة . أمر القاضى بحبسها ، أربعاً وعشرين ساعة لاهانتها للهيئه المحكمة الموقره .. وأردف :

– سنستمع أولاً إلى دفاع «يوجين ويليامز» من مدينة «فورت بيرس» بولاية فلوريدا .

وقف الجندى الزنجى الشاب .

– أنت متهم بأنك دفنت نفسك عنوة فى أرض الولايات المتحدة الأمريكية .

بكى الجندى فى نهنهات متتابعة ، قال أنه مات دفاعاً عن الحضارة والديمقراطية وشرف أمريكا ، وأنه قتل أكثر من ألف فيتنامى ، بينهم أكثر من خمسمائة من الشيوعيين الخنازير .

صائحاً :

– إننى دافعت عن شرف العلم الأمريكى ، وأطالب باستدعاء الملازم «ويليام كالى» البطل المغوار لمعركة «ماى لاى» العظيمة ، لسماع شهادته .

ابتسم القاضى ، تشاور مع عضو اليسار ، ثم مع عضو اليمين :

– ألك محام ؟

– لا ..

– ستنتدب لك المحكمة واحدا ..

التفت إلى . سألنى أن أواصل كلامى . قلت أن الحزن ليس جريمة . وإلا فلماذا لا يحاكم محرر صحيفتنا المسائية ؟ صفحاتها مجللة بالسواد ، وهى صحيفة رسمية يملكها الاتحاد الاشتراكى العربى وتمر أنباؤها على الرقيب . والصمت – يا قاضى – ليس جريمة ، فإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، هكذا وجدت مكتوباً على كراستى الحكومية ، وها أنذا أضعها أمامكم . وعلى وجهها الأول كتب «كنظام وزارة التربية والتعليم» . ومع ذلك يا حضرة القاضى فأنا لم أسكت ، لقد بكيت طوال الليل عندما قتلوهم فى «ماى لاى» ، وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟

– ولكن من الثابت أن لك علاقة ببعض المشبوهين والخطرين .

– كذابون .. أنا لا أعرف «نيكسون» وليست لى علاقة بـ «وليام كالى» !

قلب أوراقا أمامه :

– وجدوا ما يثبت اتصالك بأحمد عرابى الحسينى المصرى .. وهو رجل خطير مهيج هل كتبت له خطابات .

– نعم .. كتبت له خطابا أبثه أحزانى ، لأنه مات حزينا ..

– ها أنت تعترف بأنك كتبت له ، ولدى دليل على ذلك (١) .

وهو يقول بذلك واحمنى بوثيقة غريبة الشآن ، هذه هي صورتها الفوتوغرافى :

وزارة الحربية الداخلية
مصلحة السجون

سجن معتقل طره السياسى (أورنيك رقم ١١ سجون)
تذكرة جزاءات

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ٧٨٣٨/٢٠٠٠

رقم المسجون	اسم المسجون	التهمة	تاريخ وضعه بالإنفراد	الجزاء	تواريخ: ابتداء تنفيذ الجزاء	تواريخ: إنتهاء الجزاء
	صلاح السيد متولى عيسى	ضبط في حيازته بحث غير مصرح به عن الثورة العرابية		يومين حبس انفرادى مادة ٥	١٠/٧ ١٩٧٠	١٠/٩ ١٩٧٠

مأمور سجن
عقيد
عبد العال سلومه

ومن الواضح أن الوثيقة السابقة ، أن المقدم «عبدالعال سلومة» قائد معتقل طره السياسى قد عاقب المدعو «صلاح السيد متولي عيسي» بالحبس الانفرادي لمدة يومين ، لأنه «ضبط في حيازته بحث تاريخي غير مصرح به عن الثورة العرابية» وبذلك يكون هو المتهم لا أنا ، هذا مع العلم أنني علي كثرة الأسماء التي سميت بها ، لم أحمل هذا الأسم أبداً ، ولا علاقة لي بصاحبه ، وسوف أقول ذلك للقاضي عند انعقاد الجلسة التالية .

- بصق رجل فى وجهه وهو خارج من المسجد الحسينى ، وصاح فى وجهه: يا خائن فعاد إلى منزله وأغلق على نفسه الباب حتى مات كمدا .. وأحزننى ذلك كثيراً .. فكتبت له خطاباً .

- ووجدوا أيضا ما يثبت اتصالك بسبارتاكوس وعمر بن الخطاب وجان دارك وسعد زغلول ، وهوشى منه ، وماوتسى تونج .. والدليل على ذلك أنك تعلق صورهم فى غرفة مكتبك مع أنهم جميعا عبثوا بالأمن العام .

ضحكت طويلاً حتى رفعت قطتى رأسها متسائلة عما يحدث . حدثتها طويلا عن الهجرة إلى عوالم النشوة الأصيلة ، سألتنى عن السبب ، قلت أن الجميع يرحلون فلماذا نبقى أنا وأنت ؟ سيحاكموننا بتهمة الحزن . ماءت غير مصدقة . أكدت لها أن هناك مشروعا معروضا الآن على المجلس البلدى بإصدار قانون يعاقب كل من يضبط حزينا أو ساهماً ويشترط أن يضحك الناس بحيث تكون قيمة الزاوية بين الشفتين العليا والسفلى ١٨ درجة على الأقل .

دق القاضى بمطرقته . وضعت أمامه قصاصات من صحيفتى المسائية كجزء من الدفاع .

ذلك أفضل بكثير :

* بودابست - ى . ب . أ .

بعد زواج دام أكثر من ٥٥ سنة ، قتلت أمس السيدة ستيفانى جريباس (٧٣ سنة) زوجها (٨٥ سنة) بضربة واحدة بالفأس . ثم قفزت لتغرق نفسها فى البئر الملحق بمنزلها دون أن تترك لأحد فرصة لكى يعرف السبب .

(الجمهورية - ٣ يوليو ١٩٦٨)

* سلفادور – أ.ب

قتل شاب برازيلى فى العشرين من عمره والده ووالدته وجدته وأخاه ، وقد اعترف الشاب للبوليس بأنه قتل والده لبخله الشديد . ولكنه عندما شاهد منظر الدماء لم يستطع منع نفسه من قتل الآخرين .

(الجمهورية – مارس ١٩٧٠)

* ليستر – ى . ب . أ.

وضع «تيرنس هوربين» طفله البالغ من العمر ثلاث سنوات فى موقد مشتعل ، وتعالت صرخات الطفل الذى أسرعت أمه باخراجه مصاباً بحروق شديدة . وقد اعترف «هوربين» للبوليس بأنه دائماً يهدد أطفاله بوضعهم فى الموقد إذا لم يتوقفوا عن البكاء ولكن الطفل استمر فى البكاء غير عابىء بالتهديد فوضعه فى الموقد فعلاً .

(الجمهورية – مارس ١٩٧٠)

– فوجىء المارة أمام فندق شبرد على كورنيش النيل صباح أمس بشاب أسمر يقف عارياً فوق نافذة بالدور الرابع يصيح قائلاً :

– الله أكبر .. أنا طرزان

ثم يلقى بنفسه إلى أرض الشارع . أصيب الشاب باصابات خطيرة . نقلته سيارة لاسلكى النجدة إلى المستشفى فى حالة سيئة .

(الأهرام – ٣٠ يونيو ١٩٦٩)

* فى أتوبيس ٨٢ حدث أمس حادث غريب . صرخ شاب فى الركاب بصوت عال : أنا اسمى المسحوق رابسو .. أنا اسمى المسحوق رابسو [٢]

---

٢ – يتردد هذا الشعار في الإذاعة والتليفزيون كدعاية لأحد أنواع الصابون المسحوق ، ولكثرة ترديده ملحناً بنغمات راقصة أحياناً وحماسية في أحيان أخري ، وطوال أيام متعددة ، فإن كثيرين يرغبون رغبة حقيقية في اطلاقه كأسم علي أبنائهم . هذا بالرغم ، من أنه يفتقد لأي شاعرية .

ضحك الركاب ، وظنوا الشاب يمزح ولكنه كرر هتافه بصورة ضايقت الركاب. طلبوا منه السكوت ، لم يستجب ، كرروا الطلب فى ضيق . أخرج الرجل من جيبه مطواة حادة . هدد الركاب بالقتل إذا منعوه من الهتاف . ظل الشباب يواصل هتافه بصوت مرتفع . اتجه محمود ابراهيم عبده سائق الأتوبيس به وبالركاب إلى قسم بوليس باب الشعرية . تبين أن الشاب عامل مفصول من شركة المسبوكات المعدنية . قال فى التحقيق أنه من قادة الحركة النقابية . وأنه قاد مظاهرات العمال فى عام ١٩٤٦ ، وشارك فى الهجوم على الاقطاعيين وعملائهم فى عام ١٩٥٠ فى قرية بشلا مسقط رأسه . قال أنه كان سيضرب بالمطواة أى راكب يمنعه من الهتاف ، ولكن بحيث لا يصيبه فى مقتل . سأله وكيل النيابة عن الهدف من الضرب بالمطواة ، قال أنه كان سيترك فى وجه المعتدى علامة الانتهازى والشيطان الأخرس، رفض الشاب ذكر اسمه مصراً على أنه اسمه : المسحوق رابسو ، كرر وكيل النيابة سؤاله ، فقال : أى اسم ، المسحوق اسماعيل رابسو .. تبين أن الشاب اسمه : اسماعيل حسانين البهنسى عمره ٣٨ سنة سبق اعتقاله لقيامه بنشاط ضد أمن الدولة . أحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية .

(أخبار اليوم – ١٥ أبريل ١٩٦٩)

* باريس – رويتر

أغلق رجل فرنسى على نفسه شقته باحكام ثم خرج إلى الشرفة وفى يده بندقية سريعة الطلقات ، وأطلق النار على اثنين من رجال الشرطة كان يقومان بدورية فى الطريق وقتل أحدهما . وقد استطاع البوليس اقتحام الشقة ، لكنهم وجدوا الرجل صريعاً ومصاباً بعدة طلقات من بندقيته التى يبدو أنه استعملها فى الانتحار بعد قتل رجل البوليس.

(الجمهورية – ١٠ مارس ١٩٧٠)

* «أنا فتاة مسيحية ، رأيت في منامي ذات ليلة ملاكاً أبيض يبتسم لي ويفتح جناحيه ويضمني إلى صدره ويقبلني في جبيني وشفتي ثم يختفي . ولما كنت بطبعي ميالة إلى التعبد والتقوى وعاكفة على الصلاة والصوم وزاهدة في متع الحياة ، فقد أدركت ما يطلبه الملاك مني ، وعزمت أن أودع الدنيا أو أدخل الدير . ولكن أسرتي تعترض رغبتي . وأمي نفسها تعذبني وتثير عليّ أخوتي وتأبى إلا أن أتزوج شابا شديد الجمال والثراء تقدم لخطبتي ، فوجه كلمة لأمي عساها أن تترفق بي وتفهم أن اغراء المال والشباب والجمال الآسر لا يمكن أن يثنيني عن عزمي.

«المعذبة ايزيس بشبرا»

(آخر ساعة - ٢٥ يونيو ١٩٦٨)

* من أ.أ.م بالفيوم يقول :

- أصوم وأصلي وصلتي بالله على ما أعتقد حسنة ومع ذلك فالأمراض والمحن والمصائب تحيط بي من كل جانب وفي نفس الوقت أجد جاري الشرير يتمتع بالصحة والعافية ويسبح في بحر من السعادة والرفاهية فهل وراء ذلك حكمة ؟ وما هي ؟ وإلى متى الصبر ؟

يجيب على هذا السؤال فضيلة الشيخ صالح شرف عضو جماعة كبار العلماء ووكيل الأزهر فيقول :

- يقول الله تعالى «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» . ليست النعم التي تحيط بالإنسان من صحة ومال وبنين دليلاً على رضاء الله ، بل قد تكون استدراجاً وامهالاً من الله تعالى حتى يطغى

الإنسان بذلك ويزداد شره . وتكون عاقبته الندم والخسران ، كما أن الابتلاء بالأمراض وغيرها لا يكون علامة على غضب الله بل الغرض منه التمحيص والاختبار حتى يتميز الخبيث من الطيب ، فإن صبر المبتلى راضياً بقضاء الله وقدره ، كان أجره عظيماً وثوابه جزيلاً .

(الأخبار - ٢٠ يونيو ١٩٧٠)

* لقد أقفر قلبى من كل عاطفة ، إننى لم أعد انفعل أمام أى حدث ، لا يسيطر على سوى الإحساس بالحزن ، الحزن العميق . لم يعد شىء يثيرنى . لم يعد شىء يفرحنى. حتى الأشياء التى تسعد ابنتى أصبحت أنظر إليها دون مبالاة . أحياناً أدعى السعادة من أجل اسعادها .

لكن الواقع أن قلبى خال منها . أصبحت الدموع أقرب إلى من الابتسامات . أحاول أن أبعث الأمل فى حياتى ممثلاً فى ابنتى الشابة التى عشت من أجلها وضحيت بشبابى فى سبيلها ، فأجد أننى كمن تعلقت بخيوط العنكبوت ، فسوف يأتى يوم تتزوج فيه ابنتى وتتركنى لتعيش حياتها . ولا يمكن أن أعيش أنا حياتها وسوف أقضى العمر الباقى لى، كما قضيت ما مضى منه ، وحيدة ، أصارع الليل وأتجرع مرارة الخيبة وأفتقد الحنان والاطمئنان ، وأتلقى التهنئة على صمودى أمام الحياة ؟ كيف أتخلص من خوفى من الحياة وكذلك من خوفى من الموت رغم رغبتى فيه ؟ كيف أتخلص من الأفكار التى تزلزل كيانى وتكاد تدفع بى إلى الجنون وجميع الحلول التى تعتمد على الصحة والمال محدودة ؟ كيف قل لى بربك .

م.أ.ش

(صباح الخير - ٣ يوليو ١٩٦٩)

* ربع مليون شاب أمريكى احتشدوا فى مكان خلوى فسيح بالقرب من مدينة بايرون بولاية جورجيا للمشاركة فى مهرجان الموسيقى الذى يستمر ٤

أيام . تحول المهرجان إلى «غرز» لتعاطى المخدرات فى مقدمتها الماريجوانا ، ومنتديات لممارسة الجنس العارى الفاضح .

استغاث الأطباء - الذين أقاموا عيادات مؤقتة فى خيام - بسلطات الولايات مطالبين بالمزيد من الامدادات الطبية والأطباء لمواجهة الكارثة الصحية الخطيرة فى المهرجان . أصيب آلاف من الفتيات والفتيان بحالة «سطل» لتعاطيهم كميات كبيرة من المخدرات وتم نقلهم على عجل إلى العيادات التى ازدحمت عن آخرها بالمساطيل من الأمراض الخطيرة التى تفشت فى المهرجان الأمراض السرية ، قال المشرفون على المهرجان أن رائحة المخدرات والماريجوانا أصبحت تملأ سماء المنطقة بينما استرخى الشباب ومعظمهم من الهيبيز والخنافس على الحشائش فى أوضاع جنسية فاضحة ، طبيعية وشاذة ، استعان الأطباء بطائرات الهليوكوبتر لنقل المساطيل إلى المستشفيات .

(الجمهورية - ٦ يوليو ١٩٧٠)

* يتجمع تحت كبارى باريس كل مساء مجموعات من الشباب الفرنسى وهم يدخنون الماريجوانا وأنواع المخدرات الأخرى ويستمتعون بمشاهدة القوارب الصغيرة وهى تنساب على النهر حاملة فى جوفها أصنافاً من السائحين الذين يمارسون أنواع الحب والملذات . وقد حذر أحد المسئولين عن مكافحة المخدرات فى فرنسا الآباء من مغبة انتشار المخدرات بين الشباب وقال أن هناك ٤٠٠٠ مدمن فى فرنسا فى الوقت الحاضر وذلك مقابل أقل من ٧٠٠ مدمن فى عام ١٩٦٥ .

(الجمهورية - أول يونيو ١٩٧٠)

* ذكرت احصائية عن الجيش الأمريكى أن واحداً بين كل ثلاثة أشخاص من أعضاء الفرقة رقم ٨٣ المحمولة جوا يدخنون المخدرات . وهذه هى

الفرقة الوحيدة التى يستدعيها الجيش الأمريكى على عجل لتقوم بعملية قمع سريع لأى ثورة فى أى مكان فى العالم .

(الجمهورية - ١٣ ديسمبر ١٩٧٠)

* ابتلع طفل يبلغ من العمر ٣ سنوات سبع حبات من عقار الهلوسة أثناء نوم والدته . وجه البوليس إليها تهمة تعريض حياة الطفل للخطر وحيازة المخدرات .

(الجمهورية - ٢٣ يوليو ١٩٧٠)

* فى معظم بلاد أوروبا الغربية ، تسود الآن نماذج غريبة للسلوك الجنسى ، إن الحرية الجنسية تسود هناك بلا قيود ، والمعرفة الجنسية تقود إلى الرغبة فى معرفة أخرى ، واللذة أصبحت شيئاً عادياً مكرراً ، لذلك يحلم الناس باكتشاف لذة أخرى . إن نوادى الشذوذ الجنسى أصبحت شيئاً غير عادى ، هنا ترقص الفتيات مع بعضهن . ثم يبدأن فى ممارسة الشذوذ ، وآخر صيحة انتشرت الآن ، هى نوادى تبادل الزوجات من خلال لعبة الكوتشينه . الأزواج يوزع عليهم ورق معين من الكوتشينه . والزوجات يوزع عليهن نفس الورق فى كوتشينه أخرى ، ومن تتشابه أوراقهما، ينهضان فوراً إلى صالة صغيرة فيها سينما تعرض فيلماً جنسياً .. ثم يمارسان اللعبة . والمصيبة هنا أن تتشابه أوراق الكوتشينه بين زوجين حقيقيين ، فيحتج الزوج وتحتج الزوجة ، ومن حقهما أن يطالبا بإعادة اللعبة من جديد ..

وفى أحد مشاهد فيلم - للمخرج لويجى سكاتينى - يقدم حفل زفاف ، يبدأ وينتهى بحوار سريع بين الشاب والفتاة . تقول الفتاة لفتاها :

- اجعلنى امرأة يا حبيبى..

فيرد الشاب بلهجة ساخرة :

- ولكنك امرأة بالفعل يا عزيزتى .. أغلب الظن أنك تقصدين أن أجعلك زوجة .

إن المأساة هى أن المجتمع الغنى لا يعيش فى سعادة ، أن ميكانيكية الدولة المتحضرة قضت على الإنسان ، لقد مل اللذة المعروفة التى تعودها .. وأصبح يجرى ويلهث حول اكتشاف لذة أخرى ..

(صباح الخير - ١٩ يوليو ١٩٧٠)

* أعلن متحدث رسمى باسم الشواذ جنسياً فى مدينة نيويورك تشكيل «جبهة التحرير للشواذ جنسياً» كما أعلن أن الجبهة ستخوض نضالاً مستمراً لنقل السلطة فى أمريكا إلى هواة الشذوذ الجنسى من الرجال والنساء . وبدأت الجبهة - وهذا خبر نقلته أمس الاسوشيتدبرس - نشاطها بمسيرة كبرى فى شوارع نيويورك يبلغ طولها ميلين ، وردد المتظاهرون وجميعهم من الشواذ جنسياً ، هتافات تطالب بالحرية للشعب ، والسلطة للشذوذ جنسياً .

(الجمهورية - ٣١ أغسطس ١٩٧٠)

* اسمع يا قلبى..

إندب حظ البلاد التى فيها نشأت ..

إبك يا قلب وحدك فليس ثمة من يواسيك ..

أنظر يا قلبى :

الشمس غيبتها الغياهب .

فلا هى مشرقة ولا هى غاربة .

أنظر إلى نيل مصر وقد غاض ماؤه.

أنظر الماشية السائمة لا راعٍ يرعاها،
والسفن توقفت ولم تعد ترحل إلى شواطئ فينيقيا .
وأضابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق .. يدوسها الرائح والغادى..
لم يبق من العدالة غير اسمها . وباسمها تقترف المظالم.
سكن هرج الأفراح وعلا صوت العويل والنواح.
الصغير يقول قبل الكبير : ليتنى كنت ترابا.
والطفل يكاد يندب مجيئه إلى الدنيا.
أليست هذه بلاد «رَع»؟.
متى يهب لنجدتها الراعى الصالح ؟.
من لا يعرف قلبه الموجدة.
الذى أن قلَّت مواشيه.
قضى اليوم يجمعها ويروى ظمأها ويداوى عللها.
متى يجئ فيجتث الشر من أصله ؟ ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت.؟
أين هو اليوم؟.
هل راح فى غيبوبة نوم ؟

(أبو - ور - حكيم فرعونى قديم) (عن بردية يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ ق. م محفوظة بمتحف ليننجراد).

....

مقهورة يا أمة والقهر على وشى

وخلا خلى البال يا أمة ما يشوفشى

إن غبت يا أمه ابعتى لنا جواب

والله المطلة يا أمة على الولايا ثواب

بلدِك بعيدة يا أمة قولى لى على بلدك

وآخذ ولادى يا أمه وامشى على مددك

يا بنيتى هاتى لى حكيم وياخذ منى

ويحوش العيا يا بنتى اللى مآلمنى

حكيم العيانين يا أمه سافر بلاد الشام

واللحم أنسلى يا أمه والعضم راخر بان

حكيم العيانيين يا أمه سافر بلاد الروم

صاحب الوجيعة رايح بها مهموم

راحم يجيبوا الدوا من الشامى والهندى

من سوء بخت العليل وقع الدوا فى البحر

هلبت يا عين بعد الشرد ما تندى

راح تبكى ليه يا ترى ع الحظ والمقسوم ؟

دا كل شئ انكتب ولكل صابر يوم !

حتلاقى مين يسمعك لو قلت ميت مظلوم

لموا اليتامى كلهم فى البيت

وقيدوا الفتيله وكتروا الزيت

لموا اليتامى من العصر عشوهم

لا يخش الليل عليهم وتنسوهم

(جنائزية مصرية - نقلاً عن ندابة قريتنا)

* أمنا الغالية جليله يوسف عبد السيد

طوبى للذين يرقدون فى الرب . يستريحون من أتعابهم . وأعمالهم تتبعهم . نياحا لروحك الطاهرة . وعزاء وصبرا جميلاً . انتهت آلامك المريرة على الأرض . رحلت مرنمة مع الملائكة . ما أحلى مساكنك يا رب الجنود . تشتاق نفسى بل تتوق إلى ديار الرب . لى اشتهاء أن أنطلق وأكون من المسيح . ذلك أفضل بكثير . صلى لأجلنا لنكون معك . طلبت الرب فاستجاب لك . ومن آلامك خلصك . طوباك يا قديسة . يا متكلة عليه. طوباك يا تقية القلب لأنك تعاينين الرب.

«فؤاد . عايدة . شكرى . مارى . ناجى»

(إعلان وفيات - الأهرام ١٩ يونيو ١٩٦٩) .

06 الوثيقة الرابعة

نصوص مختارة من محاضر رسمية شديدة السرية

فى الليل على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته. قمت . طفت فى المدينة ، وفى الأسواق ، وفى الشوارع . أطلب من تحبه نفسى. طلبته فما وجدته.

عثر بى الحرس الطائف فى المدينة . قلت :

– أرأيت من تحبه نفسى ؟.

قال : أنت تحب وهذا ممنوع بأمر رسمى .

أمسكنى ولم يرخنى ، حتى أدخلنى بيت أمى وحجرة من حبلت بى . قال : لا يخرج هذا إلى الطريق . قالت زوجتى : سأل عنك واحد تليفونيا .. لم أهتم ، كررت القول ، قلت : هل هى «أديث لينك» ؟. ، قالت : واحد يقول أن أباك يمر بأزمة صحية .

(ولى أب أيضاً فما أبهج هذا).

تشكل الظلام فولدها بعد لحظة ، قلت :

– من هذه الطالعة من البرية كأعمدة من دخان معطر بالمر والبان ، أهى أنت يا حبيبتى شهد دار ؟

قالت :

– هى أنا ...

قمت إليها . قدتها إلى شرفتى . فى الضوء رأيت طلعتها ، قلت :

– اكشفى حجابك . أرينى وجهك ، عيناك حمامتان من تحت نقابك . ها

أنت جميلة يا حبيبتى ها أنت جميلة.

قالت :

– أدخلنى إلى بيت الخمر ، ضع علمه فوق محبة ، اسندونى بأقراص الزبيب ، انعشونى بخمر التفاح فإنى مريضة حباً.

قلت :

– ضمينى إلى ذراعيك ، وسدى رأسى صدرك فإنى مريض خوفاً.

ولأن الشتاء قد مضى والمطر مر وزال ، فإن الزهور تفتحت فى الأرض ، وصوت اليمامة سمع فى أرضنا ، لذلك غسلت حبيبتى جسدها ، ضمخته بالعطور ، فاح بشذا الياسمين . عيناها حمامتان.

قلت :

– حولى عنى عينيك فإنهما قد غلبتانى.

قالت :

– ها .. أنت جميل يا حبيبى ، وسريرنا أخضر.

– بل أنت الجميلة يا عروس ، شفتاك تقطران شهداً . تحت لسانك عسل ولبن ،جنة مغلقة أنت . عين مقفلة ، وينبوع مختوم.

قالت :

– لتأت يا حبيبى إلى جنتك ... ولتأكل ثمرك النفيس .

رقصت منتشية ، خلعت ثيابها . ومن الخارج جاء صوت خرير الماء.

قلت:

– ما أجمل رجليك . دوائر فخذيك مثل الحلى . صنعة يدى صناع ، سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج . بطنك صبرة حنطة مسيَّجة بالسوسن . قامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد.

قالت :

– إصعد إلى النخلة وأمسك عذوقها ، فأنا لك يا حبيبى ، وإلىَّ اشتياقك.!

قامت . مدت يديها أمسكت بيدى . قالت:

– تعال لنخرج إلى الحقل ، ولنبت فى القرى ، لننظر هل ازهرت الكروم؟ هل نور الرمان ؟ . هناك أعطيك حبى ، كل النفائس من جديدة وقديمة . ذخرتها لك يا حبيبى . لتجعلنى كخاتم على قلبك . كخاتم على ساعدك . لأن المحبة قوية كالموت ، والغيرة قاسية كالهاوية . ولهيبها نار لظى الرب . مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة . والسيول لا تغمرها .

قلت :

– ولكن الحراس يمنعون ذلك يا حبيبتى . أما علمت بما حدث لزوجك «المقر الشهابى أحمد بن الجيعان» على يد ملك الأمراء «خاير بك »؟.

قالت : سأسمع منك فى ليلة مقبلة ، ولكن المطر مر وزال ، وصوت الحمامة سُمع فى أرضنا .

قلت : ولكنهم سيحاكموننى قريباً كما حاكموه .. هل أطلعك على سر؟

هزت رأسها مستفهمة ، أردفت :

– عثرت اليوم فى سوق المدينة على ثلاثة أوراق هامة . كنت قد شريت ثلاثة أصناف من الفواكه والخضراوات ووجدت فى اللفافات الثلاث كتابة خطيرة . وقد وضعتها فى خزانتى السرية.

قالت : لنذهب إلى القرى ،. لننظر هل أزهر الكروم ؟ . هناك أعطيك حبى فوق سريرنا الأخضر . قلت : كلا .. إقرأى وثائقى أولاً ..

المحضر الأول

صلوات الندم السبع

نص حكم ديوان التفتيش :

ضد جاليليو ابن المرحوم فنسنسر من فلورنسا والبالغ من العمر سبعين سنة ، أدانتك هذه المحكمة المقدسة سنة ١٦١٥ لاعتقادك بصحة نظرية كاذبة نادى بها كثيرون وهى أن الشمس ثابتة ، وأن الأرض هى التى تتحرك يومياً، ولأنك لقنت هذه النظرية لتلاميذك ، هذا فضلاً عن تأييدك لنظرية «كوبرنيكس» . ولهذا فإن هذه المحكمة المقدسة رغبة منها فى القضاء على الشر الذى كان يومئذ قد بدا واستفحل ، وأضر بالعقيدة المقدسة، ونزولاً على رغبة صاحب القداسة وأصحاب النيافة مطارنة هذه المحكمة السامية العالية قد انتهى الاخصائيون . من قبلنا إلى صياغة نظريتى ثبوت الشمس وحركة الأرض على الوجه الآتى :

١ - القول بأن الشمس مركز العالم وأنها لا تتحرك قول سخيف وكاذب من الوجهة الفلسفية وكافر من الوجهة الرسمية ، لأنه يتعارض صراحة مع تعاليم الكتاب المقدس.

٢ - القول بأن الأرض ليست مركز الكون الثابت ، وأنها تتحرك يومياً ، هو أيضاً قول سخيف ، كاذب من الوجهة الفلسفية ، وتجديف على العقيدة من الوجهة الدينية.

وحيث أنك قد عوملت برحمة فى ذلك . وقام نيافة المطران «بلرمين» بتحذيرك فى رفق وأمرك مأمور الضبط بالمحكمة أمام السجل والشهود بأن تتنصل تماماً من هذه العقيدة الكاذبة وأن تمتنع مستقبلاً عن الدفاع عنها أو تعليمها على أية صورة شفاهة أو تحريراً . وأطلق سراحك بعد تعهدك بالطاعة . وبالرغم من ذلك فإنك لم تكف عن الدعوة لأفكارك.

.... لذلك قررنا ما هو آت.

.... يا جليليو جاليلى . لقد جعلت نفسك موضع الشك الشديد من هذه الحكمة المقدسة بأنك كافر لإيمانك - رغم ما فى هذا الإيمان من تعارض مع

الكتب المقدسة بأن الشمس مركز العالم ، وأن الأرض هى التى تدور ، وأنها ليست مركز العالم ، وحكمنا عليك بالسجن الرسمى . وأمرناك على سبيل الكفارة أن تقرأ أثناء السنوات الثلاث القادمة . صلوات الندم السبع مرة كل أسبوع.

المحضر الثانى :
الصلح

«على يدى أنا الشيخ «محمد كامل الشِّحرى» مأذون الشرع بناحية بشلا مركز ميت غمر دقهلية . وبحضور جناب المحترم عمدة الناحية . ومشايخ البلد وأهل المصلحة ، وأعضاء لجنة المصالحات بالاتحاد الاشتراكى العربى أدام الله عزه ، عقد الصلح بين الحرمة «عزيزة بنت إبراهيم شرف الدين» وزوجها النفر «بدوى ابن سليمان الحنفى» على أن يدفع لها مبلغاً وقدره قرش صاغ ميرى واحد لا غير عن كل يوم يشتغل فيه أى شغل كان . ومقابل ذلك تعد الحرمة المذكورة بأن تطبخ له خضارا من أى نوع كان ، وأن تلزم طاعته فى كل شئ ، وتعاشره بالمعروف كما أمر الله تعالى وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام. وحلف النفر المذكور فى المجلس على المصحف الشريف ألا يقرب الدخان المعسل أو البوظة[1] أو أى شئ كان ، وأن يلتفت لأكل عيشه ويراعى أولاده .

وتحرر هذا محضراً بالصلح من نسختين سلمت واحدة لكل من النفر والحرمة . وربنا على الظالم وابن الحرام والمفترى ومخالف يمين الله.

الحرمه	النفر	المأذون
(بصمه)	(بصمه)	كامل الشحرى

تحريراً فى يوم الجمعة أول شوال ١٣٨٨ - ٢٣ ديسمبر ١٩٦٨ .

١ - «البوظة» في مصر من خمور الفقراء . وهي تصنع من تخمير بقايا الخبز . وهي غير البوظة في المشرق العربي والخليج.

المحضر الثالث
الاستجواب

المكتب الثانى
الفرقة الرابعة - ع
سرى جداً - للعرض على السيد المدير العام

إنه فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٦٩.

نحن العقيد سليمان حسن ، مفتش التحقيقات بالمكتب الثانى (الفرقة ٤ ع) بناء على تكليف السيد اللواء مدير المكتب لنا شفهياً بالقبض على المدعو اسماعيل حسانين البهنسى - عامل لحام ميكانيكى بشركة المسبوكات الفضية والمعدنية، وعلى من يتواجد معه ساعة القبض عليه وتفتيشه وتفتيش منزله ، للبحث عما يمكن أن يتعلق بما كشفت عنه التحريات الواردة بالإفادة رقم ١٣٤٦٠ ، ورقم ١٣٤٦٨ ، من المرشدين السريين رقم ٦٤٥ ، ٧٤٢ ، ٩١٢ ، وتضمن أمر السيد المدير اتخاذ الاحتياطات الضرورية لخطورة المتهم البالغة على الأمن العام.

توجهنا وبرفقتنا الرائد «سمير محمود» والرائد «وجيه سعد» والنقيب «عاصم الشاهد» والملازم «إبراهيم السلمى» والمساعد السرى «سيد العريان» والعريفان «حسن كامل وعبد العظيم راشد» . انتقلت القوة فى ثلاث سيارات تابعة للإدارة قيادة الرقباء أحمد فتحى وسامى الشافعى ورضا منصور.

وصلت القوة إلى مسكن المتهم بناحية «حكر أبو دومه» التابعة لقسم الجمالية . وتم توزيع القوة على مداخل الطرق الفرعية لضمان عدم هروب المتهم . وزودت بالطبنجات والرصاص اللازم لذلك ونظراً لضيق الحارة التى يسكن فيها المتهم لم تتمكن السيارات من الدخول بها . وقد أخطرنا العريف

«حسن كامل» بأن المتهم قد دخل إلى الحارة الساعة الواحدة و ٢٥ ق صباحاً ، وأكد العريف عبد العظيم أنه شاهده يدخل باب منزله رقم ٣ بعطفة «البلاقة» وأنه سمع صوتاً يسأله «أنت جبت الحاجة؟» وأن المتهم رد رداً غير مفهوم.

صعدنا أنا والرواد الثلاثة بينما بقيت الحملة للمراقبة والحماية.

فتحت لنا الباب امرأة فى حوالى الستين حاولت مقاومة دخولنا . ولكننا لم نمكنها من ذلك . قمنا بتفتيش منزل المتهم . عثر على ما يلى :

١ - كتاب صغير بعنوان «حجاب الحصن الحصين يحمى من الحسد والعين ويشفى الأمراض ويكفل الفلاح والنجاح» .

٢ - كتاب «رسائل الغرام والود والهيام» مطبوع بمطبعة الشمرلى بمصر ومؤشر على صفحة ١٨ منه وعنوانها «رسالة فى طلب ليلة وصال» وصفحة ١٩ وعنوانها «شكوى من الصد والهجران» .

٣ - كتاب اللغة الانكليزية عنوانه R EADER 6.

٤ - كتاب «الحركة النقابية والاشتراكية» غير مذكور اسم المؤلف ولا مكان الطبع.

٥ - ظرف خطاب معنون باسم المتهم وبداخله خطاب بتوقيع فتاة اسمها «عزيزة» تقول له فيه بعد عبارات غزل عادية «والنبى عشان خاطرى فضّك م اللى فى دماغك وابعد عن المدير لأنه راجل شرانى ووحش ، وخالى رضى بالجواز ، لكن قال ما فيش دخله إلا بعد ما يطلع الشتوية عشان يدبر لنا فى قرشين».

٦ - ورقة مكتوب بها ما يلى :

«ثلاث حبات جوزة الطيب تطحن جيداً ويضاف إليها نوى مشمش مطحون يؤخذ بمقدار ملعقة قبل العشاء بنصف ساعة ووراها كوب شاى ،

ولا تقولش عليها لعدوينك».

وموقعة بتوقيع غير واضح.

٧ – خطاب بخط المتهم مكتوب على فولسكاب أبيض ومطبوع بالبالوظة ومعنون بـ «جواب إلى أهل الخير والرحمة والشفقة من العامل الفقير «اسماعيل حسانين البهنسى» ، حول السرقات والرشاوى والإجرام فى شركة المسبوكات المعدنية».

ومضمونه هجوم على مدير شركة المسبوكات المعدنية بزعم أنه فصل المتهم لأنه تصدى لكشف اختلاساته وسرقاته وما يتقاضى من رشاوى . ويقول المتهم فى الخطاب أنه لجأ لكل الجهات الرسمية لكشف السرقات فكان نصيبه الجزاءات المتوالية وأخيراً الفصل ، وفى النهاية يعلن أنه يلجأ بهذا الخطاب إلى من يسميهم بالرأى العام لكى يعملوا فى زعمه على «إيقاف تبديد أموال الشعب وعرق العمال» وتتضمن خاتمته تحريضاً على نظام الحكم وهجوماً عليه وازدراء بإحدى هيئاته وهى شركة المسبوكات المعدنية.

وبتفتيش الحجرة لم نجد شيئاً آخر.

المذكور يسكن فى إحدى الحجرات الضيقة فوق سطح المنزل المذكور ، وأمامها دورة مياه مشتركة فتشناها بدقة فلم نجد بها شيئاً ، وبالحجرة سرير حديد ومنضدة صغيرة وبعض الملابس القليلة وتضيئها لمبة غاز . اصطحبنا المتهم معنا . حاولت أمه «فطومه عبد الله» منعنا وقالت بالحرف «روحوا الله يخرب بيوتكم ويورينا فيكم يوم».

تم إيداع المتهم بسجن الاستجواب المركزى.

يظل المحضر مفتوحاً لاستكمال التحقيق بعد فرز المضبوطات.

(الساعة الخامسة ص)

أعيد فتح المحضر بمعرفتنا فى الساعة الحادية عشرة صباح يوم ١٩٦٩/٧/٣٠.

حضر المتهم وتولى السكرتارية الرائد سمير محمود :

س : اسمك وسنك ووظيفتك وعنوانك؟

ج : اسماعيل حسانين البهنسى - ٣٥ سنة . عامل لحام ميكانيكى بشركة المسبوكات الفضية والمعدنية. عنوانى ٣ عطفة البلاقة - حكر ابو دومة .

س : أنت متهم بالتآمر على قلب نظام الحكم والازدراء بإحدى هيئاته فما قولك ؟

ج : لم أنم منذ أربع ليال وجوعان جداً ، والدنيا حر وأرغب فى الاستحمام.

س : ما قولك فى التهم المنسوبة إليك؟

ج : [٢] ... على باب الغرفة وأنا داخل ، المخبر التخين وحضرة الضابط سمير [٣] .

س : هل هذه الأشياء تخصك ؟

(عرضنا عليه المضبوطات فأقر بأنها ملكيته).

س : من هى عزيزة التى أرسلت إليك هذا الخطاب؟

ج : دى لا مؤاخذة البنت اللى أنا قايل عليها.

---

٢ - كلمة غير واضحة وأغلب الظن أنها (ضربوني) .

٣- هذا السطر مشطوب ولكنى تمكنت من قراءته وهناك عدّة أسطر مشطوبة بعده بحبر ثقيل لم أتمكن من قراءتها، ومن المحتمل أن يكون اسم الضابط وجيه أو سمير.

س : بتشتغل إيه ؟

ج : واقفه على البكر فى ورشة النسيج ملك البشتتيلى فى شبرا.

س : اسمها ايه بالكامل ؟ . وأبوها بيشتغل إيه؟

ج : عزيزة شرف الدين وأبوها أرزقى.

س : يعنى أيه أرزقى ؟

ج : راجل على الله يعنى (٤)

س : ما المقصود بعبارة : «فضك م اللى فى دماغك وابعد عن المدير... الخ الجملة»؟

ج : مش فاكر ، ده جواب قديم قوى.

س : باعتاه منين ؟

ج : من بلدهم . أصلها كانت مسافرة تكلم خالها ع الجواز .

س : إيه اللى فى دماغك وعايزاك تفضك منه ؟

ج : مفيش والنعمة.

س : بينك وبين المدير حاجة؟

ج : مفيش ... بينا سوء تفاهم .. طلبت سلفية عشام الجواز مارضيش وهو معروف أنه حرامى ومرتشى وعنده جارسونيره ومرافق الراقصة المشهورة دى اللى بترقص فى الأوبرج (٥)

س : هل أنت كاتب المنشور المعنون بـ «جواب لأهل الخير؟».

ج : نعم .

---

٤ - الارزقى إنسان بلا مهنة معروفة ، إنه موهوب بلا شك، فهو مستعد لأن يعمل كل شىء وأى شىء فى مقابل قروش قليلة .

س : لماذا طبعته على البالوظة ووزعته فى الاتوبيسات العامة ؟

ج : لأن المدير حرامى ومرتشى وعنده عشر عربيات مشغلهم تاكسى وبانى عمارة باسم مراته ، ويبيع أذون الاستراد..

س : هل لديك أدلة ؟

ج : كل الناس عارفة الحكاية دى من غير أدلة.

س : هل لديك شهود؟

ج : لو ضمنتوا أنه ما يرفد همش زى ما عمل معايا . تلاقوا كل الناس جميعاً.

س : هل لك نشاط سياسى سابق ؟

ج : لا .. بس عايز أسجل المعاملة التى تعرضت لها ..... (٦).

س : ما المقصود بهذه الورقة؟ (عرضنا عليه الورقة المبتدأة بعبارة عشر حبات جوزة الطيب .... الخ).

ج : مش فاكر وده ليس خطى .

(أعدنا عليه السؤال مرات عديدة فقال).

ج : أصلى لا مؤاخذة عصبى تعبان شوية وواحد صاحبى قال لى : أنت على وش جواز ، فالوصفة دى تشد حيلك وتفيد.

(يظل المحضر مفتوحاً ويستكمل فى المساء).

س : يا اسماعيل .. حضرة الضابط سمير يقول أنك طلبت فتح المحضر..

ج : أيوه.

س : قبل ما نسألك ، فيه حد ضربك ولا أهانك؟

---

٥ - ٦- ما بين هذين الرقمين مشطوب بعلامة × طويلة . أما السطور التالية لرقم ٣ وعددها خمسة أسطر فهي مشطوبة بحبر ثقيل.

ج : لا .

س : يعنى المعاملة كويسة.

ج : أيوه.

س : كويسة ولا ممتازة؟

ج : ممتازه.

س : طيب ليه طلبت فتح المحضر ؟ أنت قلت للضابط سمير أن أنت أتخانقت مع المدير عشان طلبت سلفة للجواز ولقاك ما تنطبقش عليك الشروط؟

ج : أيوه.

س : وعشان كده هاجمته؟

ج : أيوه.

س : يعنى هو مش حرامى ؟

ج : لا .

س : ولا مرتشى ؟

ج : لأ ....

س : وسلوكه الشخصى؟

ج : كويس .

س : بيصلى ويصوم ؟

ج : أيوه.

س : وبيحب الثورة .. والاشتراكية ؟

ج : أيوه.

س : طب حد ضربك قبل ما تتكلم ؟

ج : لا ..

س : إذا كان فيه حد قال لك حاجة قول.

ج : ما حصلش.

س : مين صاحبك اللى كتبت لك الوصفة؟

ج : أحمد شلبى [٧].

٧ – هذه آخر صفحة من المخطوط ، والصفحات التالية مفقودة.
هذا وقد وجدت علي الصفحة الأولي منه ملحوظة مكتوبة بالحبر الأحمر وموقعة بتوقيع غير واضح وهذا نصها :
أ – يستكمل التحقيق لمعرفة ما إذا كانت الورقة الخاصة بالوصفة المقوية ترمز إلي متفجرات أو تركيبات كيماوية أو أسماء حركية أو شفرية . كذلك الخطاب الموقع عليه من خطيبة المتهم.
ب – تفحص الكتب المضبوطة لدي المتهم لمعرفة اتجاهه السياسي.
ج– يتم التحري عن والدة المتهم فطومه عبد الله وعن البنت عزيزة لمعرفة نشاطهما السياسي.
د – تتوجه نفس الحملة للقبض علي المدعو أحمد شلبي عامل بنفس المصنع لاستجوابه عن علاقته بالمتهم والورقة المكتوبة بخطه.
هـ – يعاد تبييض المحضر مع حذف الأجزاء المؤشر عليها بعلامة X

07 الشهادة الثانية

صفحة الغلاف الأخيرة لكتاب الموتى

في الثامنة والربع صباحاً علمت بخبر مصرع حبيبتي الأولى . كان يوماً خريفياً حزيناً ، أذكر ثوانيه المعذبة لأنها ملأت روحى رماداً محترقاً .

من اللحظة التى قلقت فيها خطواتى على محطة الترام ، وأنا أنظر إلى ساعتى متوقعاً أن أرى خطواتها الهادئة تبزغ من منحنى الطريق حتى اللحظة التى أمضنى فيها القلق ، فمضيت إلى شارعها ، يقود الخوف خطواتى ، آملا - أمل اليائس - ألا أقابل أخاها فى الطريق فيسحبنى من يدى بحقوق الصداقة الطويلة ، ويتجه بى إلى أى مكان .

فى ذلك الصباح كنت شديد الشوق إليها ، كنت سأضع كفها فى كفى ، أضغطها . أنظر إليها. أشرب فى برد الصباح دفء عينيها. أدثر بالرموش وحدتى المقرورة ، نسير مشوار صباحنا الطويل ، عبر شوارع غسلها ندى الفجر ، نتأمل مولد الشمس ، ونحلم بالزوارق والأشرعة .

فى ذلك الصباح جابهنى صوت أمها يصرخ من الشرفة بجنون اليأس والعجز . تفتت فى كلمات الخبر المتسربة إلى اذنى كل قدرتى أن أفعل شيئاً . حتى البكاء ، عز لحظتها ، ضنت به العين . (شد ما بكينا بعد ذلك حتى فى عمق الضحكات) . بدا الأمر بسيطا لشقيقها الصغير وهو يروى الخبر :

دهمها الترام ونحن عائدان من المخبز . يسأله الذى يأبى ألا يعذبنى عن الوقت ساعتها فيذكره بالثانية . كنت لحظتها أضحك وأقهقه ، أروى فكاهة

لجارى . هكذا قدر لموعدنا الصباحى ذاك أن يكون فى المشرحة . فماذا فعل الترام بشعرها الطويل ؟ . وأنفها الدقيق ؟. ماذا فعل ببسمة الشفة ورنوة العين ، واحتضان الرموش للخد . وعندما هرست الأحلام الغضة . هل صرخت بأعلى صوت ؟ .

تمر الأيام فتذكرك بها كل لحظة زمن . كل صورة فى صحيفة . فى ثرثرات العابرين ، بعض كلماتها التى أسرت القلب . لذلك أصبح الزمن كله ذكرى العجز عن النسيان . فى صالة منزلهم، نفس المكان الذى التقت فيه العيون لأول مرة ، تحاورت ، تحدثت. أمها مطرقة الرأس، هدمها الثكل وأبيض من هول المفاجأة سواد شعرها الذى قاوم الزمن خمسين عاماً طوالاً . لم يبق من عبيرها سوى روائح المشرحة النفاذة ، فمتى يسرح الأنف فى براح العبير النقى ؟. أما الأطفال فما أسرع مايهملون الأكدار .

صديقى قال :

– تعال نخرج .

«شد ما تتهيب أن تخلو به» . قام ليرتدى ملابسه . قال الطفل الصغير .

– أبيه شوقى ، خذونى معكم .

ربت كتفه ، فى عينيه شىء من رنا عينيها .

– يجب أن تنام الآن . اخرج فى الصباح .

تعلق برقبتى ملحاً :

– ولكن ماما تمنعنى ، تقول أننى لو خرجت وحدى يصدمنى الترام ، كما صدم أبله سلوى .

الأطفال أيضاً معذّبون ، وليس هناك شىء يقال :

– ... لم يصدمها الترام .. هى التى رمت نفسها ، قلت لها : حاسبى يا أبله سلوى ، لم تسمع كلامى .

بكت الأم . تلك الصورة القاسية لماذا حفظتها ذاكرته الجهنمية ، أهى حقيقة أم مجرد وهم رسخ فى ذهن الطفل ؟

ونحن فى الطريق والصمت رفيقنا الثالث . برقت لحظات تذكار سريعة : صوته الأجش وهو يقول شيئاً حماسياً .

– يوم لقائنا فى فناء الكلية ، استعار منى مجلة تصفحها مسرعاً ، ألقاها على الأرض ، قال : صحافة قوادين. من الكلمة بنينا علاقة طويلة متشعبة وضعتنا على حافة السجن أكثر من مرة .

لماذا اختار المكان نفسه ، حيث تعودنا – أنا وهى – أن نلتقى . أهى مصادفة ؟.

....

على المائدة المنفردة كان الضوء ضنينا ، امتص النهر نظراته لوقت طويل:

– إلى أين ذهبت ؟!

– لا أدرى .. ولكنكما التقيتما هنا كثيراً .. أليس كذلك ؟

بعد لحظة صمت :

– أعنى أنت وسلوى ...

فى دوامة المفاجأة شُلَّ لسانى :

– لا تؤاخذنى .. كان لابد أن أفحص أوراقها لأحتفظ ببعض الأشياء ووجدت هذه الرسائل .

وضع على المنضدة مظروفاً كبيراً :

– إذن كنتما حبيبين ؟ عجبت فى اللحظات الأولى لحزنك الشديد . ولكنى فسرت الأمر بأننا أصدقاء قدماء .

[لابد أن يكف هذا الدق الشديد على جدران الرأس وإلا تفتت إلى مزق صغيرة ، وكيف أتيح لعين غريبة أن تقرأ كل خفقات القلب وهمساته ؟].

– أساءك هذا ؟

– لا أدرى ولكنى أريد أن أعرف كل شىء .

أنقذنى كوب ماء مثلج . أتى الغروب على استحياء . ارتمت الشمس مختنقة عند الأفق . ابتلعتها صفحة النهر :

– هل سمعتنى ؟ أريد أن أعرف كل شىء ؟

حرت فى تفسير لهجته . ود أم غضب ؟ .

مضى كل شىء فما جدوى العبث فى الجروح الطرية ؟. لا تتذكر البداية . ما الذى ترويه وما الذى تتركه ؟. أقرأ كل شىء حقاً ؟ – لو سمح الوقت لقرأت المظروف ، عرفت ما بقى من الرسائل فقرأه ، وما التهمة الزَّمن منها، إذ ذاك أستطيع أن أصور الأمر فى حدود ما افتضح من السر . هل أنا فى نظره خائن ؟ .

هل يتذكر أنه أتاح لنا فرص لقاء كثيرة فى مناخ الثقة ، أتراه يندم على هذا ؟.

بعد لحظة صمت قال :

– أعلم أنها كانت شديدة الحساسية ، حذرتها من هذا مراراً . طمحت يوماً أن أكون أخاً عصرياً بكل معنى الكلمة .

احتسى بعض الشراب . أردف :

– ينبغى أن يحكم ما فى رؤوسنا كل سلوكنا فى الحياة .. وهذا شىء صعب طبعاً بيد أننى حاولت .

خرجت من صمتى . أمتص الظلام دخان سيجارتى المنفوث ...

– وقد نجحت فى محاولتك .

هز رأسه فى يأس .

- لا أظن .. كنت ستعرف . فقط كنا ننتظر لنتأكد من مشاعرنا قبل إعلانها .

أكذب ؟. نعم . ولعله يعلم هذا . الشعور المر بأننى خائن يلفنى كالمشنقة فمن حرث قلبى وبذره فيه ؟

- أرجوك .. قل الحقيقة .. لاداعى لهذا .

يترسب الأسمنت فوق الملامح :

- أبداً .. قصة حب عادية .. أنت تعلم طبعاً قصص الحب .

هز رأسه يائساً . ذقنه مدببة كذقنها . أول جمجمة رأيتها فى حياتى فى عمق ليل الشتاء ، الظلام يحيط بباب النصر ، أقسم الرجل ذو الجلباب انها هيكل عظمى لميت قديم . فاحت رائحتها الكريهة . فشلت كميات الفورمالين فى تبديدها . وعندما فتحت الحقيبة فى فضاء الحجرة نشعت الرائحة كأنها بعض الجدران .

- أعلم أنها قصة حب ، ولكن ... أليست هناك أية تفاصيل ؟

«ملايين اللحظات المضخمة بالمسرة ، أفراح وأشواق ولهفة ظمأى ، وقلق مدمر ، وحساب عسير مع النفس ، فماذا تروى وماذا تدع» .

على صفحة النهر مرت سفينة ضخمة ، أكوام من الحجر الأبيض الكبير، وفى المنتصف شعلة ضوء ضئيلة ، وأشباح رجال ، وغناء شجى ابتلعه الظلام.

بدت الرحلة ضرورة يفرضها ما نشعر به من إرهاق ، ولابد من الهروب من الاستجواب المر . كان العمر خالياً من التفتيش المستمر عما فى داخلنا وها أنت تواجه الريبة فى نظراته الصافية ، فكيف تثبت أنك برىء كقطر الندى . تحيل الخمر أعتى العضلات إلى نكتة مازحة . سنلتقى غداً

أو بعد أيام . سيتسمع صوته الجهورى يتحدث عن الثورة ، والإنسان والمستقبل فيهتز القلب كما اهتز لوقع الكلمات أول مرة . أذناك ككل شىء فيك خائنتان. رأسك عارية كجمجمة المجهول التى تلقيت عليها أولى معلوماتك عن التجويف العظمى . أدق لحظاتك محفوظة الآن فى هذا المظروف الصغير أمامنا . وكانت البداية لحظة لقاء خاطف أمام باب السينما .

«... اقتربت منها . عرفتها بملابسها كما وصفها . الحقيبة فى يدها . جسدها الرشيق يتحرك فى بلوزة صفراء «وجوب» أسود متسع وشعرها الأسود الطويل يهتز فوق جبهتها . مددت يدى الضخمة لتحتضن كفها ، جفلت كأنها لم تر من قبل رجالاً :

– أنت سلوى .. أليس كذلك ؟

– الأستاذ شوقى ؟

هززت رأسى ، خطفت نظرة منى :

– آبيه محمود يعتذر ، اضطر للسفر أمس وهذه هى الكتب .

تناولت منها الحقيبة لو كنت أحملها عنها . تقدمت سائراً . حاذتنى . قلت مموهاً :

– أشكرك .. هذه الكتب تنقذ السنة من الضياع .. لم أكتب ولا محاضرة.

– أنت وآبيه محمود فى سنة واحدة ؟

– تقريباً .. ولكنى كسلان كما ترين .

ابتسمت ابتسامة خافتة :

– ولكن الحقيبة مغلقة بالمفتاح .

صحا صوتى ارتفع عما قدرت :

- هل حاولت فتحها ؟

- أردت وأنا فى المدرسة أن أضع كتبى فيها بدلاً من أن أحمل كل هذا.

توقفت قليلاً تلتقط أنفاسها ، تنهد صدرها الرقيق ببطء :

- ... وجدتها مغلقة ، اضطررت إلى ترك كتبى فى المدرسة .. لن أذاكر اليوم . ولكن كيف تفتحها أنت ؟. أقول لك .. ألديك أجنه ؟ الأفضل أن تصنع طفاشة ..

ليس هذا أنسب الأوقات للثرثرة رغم ظرف الكلمات ، لذلك لابد أن نمضى ، تمكنت عينى الزائغة بحثاً عن أى كمين أن تلتقط اهتزاز شعرها وهى تسير بخطواتها الرقيقة» .

نقرات أصابعه القلقة على المائدة ليست رحيمة كما كان صوت خطواتها . شاربه الستالينى يبدو قاسياً ، وكان طيباً دائماً . رفع صوته :

- هل تحاببتما من زمن ؟

لن يكف عن النبش فى الجراح ، لنقل أى شىء :

- عدة شهور قبل الحادث ؟

- ولكن هناك خطابات يعود تاريخها إلى عامين سابقين ؟!

تحفر لنفسك قبر الأكاذيب . ولا فائدة .

- حقا . ربما .. هذه أشياء لا تؤرخ .. وذاكرتى ضعيفة ، أذهلتنى الصدمة . دعنا من هذا . كان المنشور الأخير من نار . وزعنا منه عدة آلاف، يقول «إسماعيل البهنسى» أن عمالاً كثيرين طالبوا ألا تخفف لهجتنا . متى نطبع المنشور التالى ؟!

رفع طرف شاربه بسبابته .

- سنبحث هذا غداً ..

فرقع بأصابعه طالباً كأسين آخرين . أشعل غليونه . محقق بارع وإلا

ماتعمد أن يسقينى الخمر لينفلت لسانى . على أن أظل متيقظاً مهما حدث .
وما أقسى أن أظل أراقب نفسى ، فأضيف إلى الذين يراقبوننى واحداً .

....

«.... حتى الجميلة الرقيقة عرفت خبث المستجوبين وهى بعد برعم صغير ما كاد يتفتح . كانت عيناها شقيتين ساعتها. قدمت الشاى وقالت أن محمود بالحمام يغنى «اسعفينى يادموع العين» ولن ينتهى من الاستحمام قبل أن تنتهى الوصلة . ابتسمت لخفة لهجتها . ضحكت غمازتان فوق وجنتيها ، بيجاما عذرية تحدد خطوط جسدها الرقيق ، الكتاب فى يدها . سؤالها عن معادلة فى الكيمياء . أجبتها فى ثقة . ضحكت ضحكة خجولة . قالت :

– ولكن الكتاب يقول غير هذا .. ولابد أن به خطأ ما .

وعندما اكتشفت خطأى . قلت ضاحكاً :

– معظم العلماء لايذكرون أوليات علومهم .

– هذا ما قاله آبيه محمود تبريراً لخطئه .

– هل تعقدين لنا امتحاناً ؟

عيناى فى مقلة عينيها ...

– لا .. ولكنه عالجنى مرة من الانفلونزا بأدوية معقدة دون شفاء . كم قطعة سكر ؟

– ثلاثة . نحن طلبة كسالى .

توقفت يدها التى كانت تذيب السكر فى الشاى وقالت :

– كَشف مهرجى البرجوازية يأكل وقتكم .

مغيراً الموضوع كله :

– نعدك بأننا سنكون أطباء ممتازين .. متى يأتى محمود ؟

ضحكت غمازتان على جانبى وجهها :

– لن يأتى قبل أن تسعفه دموع العين .. هل فى حقيبتك «أراجوز برجوازى» ؟

العبارة فاضحة هى عنوان المنشور ، فإلى متى نتجاهل ؟

– فى الحقيبة محاضراته ، جئت بها شاكراً ، لو نجحت سآتيك بهدية .

وقد ثبتت عينيها فى عينى :

– علبة شيكولاته ، أليس كذلك ؟ لست صغيرة إلى هذا الحد . فتحت الحقيبة وعرفت ما بها .

أشعلت سيجارتى مرتبكاً :

– ماأظن أخلاقك سمحت لك بهذا .

– حدث الأمر صدفة ، فهى تشبه حقيبتى تماماً . مفتاحهما واحد ، وقد سمعت مراراً أحاديث محمود .

نفثت قلقى دخانا . قالت :

– ما معنى برجوازى ؟

حرت فى الإجابة ، كيف يمكن أن أبسط لها الأمر ، كما بسطته للعديد من العمال من قبل ، لحظتها صاح إسماعيل البهنسى «يا سلام يا جدعان .. كلام ما يخرّش الميّه » .

لم تتركنى أفكر :

– أنتم شيوعيون ؟

بتسليم :

– نعم .

– ألا تخافون ؟

– كثيراً .. ولكن لابد مما ليس منه بد .

– والسجن ؟

– فى كل خطوة فخ .. وقد لا أكون معك غداً ..

– ولكن لابد أن معكم بنادق ومسدسات ..

ضحكت من قلبى :

– وأحصنة وقناعات ، وأنشوطة راعى البقر .. تفكيرك سينمائى من ماركة «جارى كوبر» .

فى ذيل ضحكتها جاء صوت محمود من الداخل ، قالت بسرعة :

– الظاهر أنه لم ينتظر حتى تسعفه دموع العين .. أرجوك لاتخبره بشىء مما دار بيننا .

قبل أن تجيب على دهشتى كان قد وصل إلى مكاننا ، انحنت خارجة بالأكواب الفارغة ، أكدت عيناها الرسالة . للمرة الأولى يغوص القلب حتى العمق فى صفائهما ... فهل كتبت لها هذا مرة فى رسالة ؟. وأين هى الآن ؟» .

....

جاء النادل بكأسين :

– أغلب الرسائل غير مؤرخة بتاريخ السنة ، أردت أن أختبرك ، ثبت لى أنك تكذب .

برجاء :

– ألا تعدل عن هذا الحديث صوناً للعِشرة ؟

نفخ فى الهواء :

– هذه ليست محل مناقشة ، ومع ذلك فانى أسألك جاداً عن التزامك بهذه العشرة .

هل تعصف ريح الاستجواب بصداقة أزهى سنوات العمر ؟. ما أتعسنا

حقا .

- ما بيننا ليس صداقة تقليدية .. ولكنه أرقى من هذا بكثير .

وبشىء من الحذر أضفت :

- ولا يجوز أن تؤثر مسائل شخصية فى أشياء أهم منها بكثير .

بغضب :

- لا أسمح بهذا الكلام .. لست طفلاً .. ولكنك تحاول احراجى ولا تجيب عما أسألك عنه . لماذا تعالج الأمر بكل هذا الخبث ؟

- ....

- كنتما تلتقيان هنا كثيراً ؟ نعم أم لا ؟

- قلت أن هذا حدث ؟

- يومياً ؟

- بالطبع لا .

- أسبوعياً ؟

- ....

- أجب .

- تقريباً .

تنهد بارتياح كأنما أسعده أن أوقع بى .

- وكانت تعلم أشياء لم يكن يصح أن تعلمها ؟

- ليس بالضبط .

بعينين مفترستين :

- أيسعدك أن أقدم دليلاً على كذبك ؟

هتفت :

- لم أنكر ، ولكننى أعرف واجبى تماماً .. ولا يجوز أن أكون محل

مساءلة شخصية منك . ولو أردت فلهذه المسائل أوقاتها وأمكنتها التى تعرفها جيداً ..

انحنى النادل واضعاً الأطباق المساعدة . أضفت الثلج والماء . انشغل بحشو غليونه . عبر أمامنا عاشقان شاردان . قلت أن على أن أترك المكان فوراً لو أردت ألا تتهشم أشياء عزيزة .

....

«... تطوف بالنفس كذكرى . تمسح التعب والارهاق وما نلاقى من حصار . ومس شفتيها لباطن كفك ذكرى مختزنة لن ينساها القلب مهما بعدت الأزمان ، واعترف بأنك قلت لها أشياء ما كان يصح أن تقال ، كانت جزءا منك لاتستطيع أن تخفى عنه شيئاً ، مشوقة أبداً إلى الفارس والنبى وحتى الاله . وكنتَ معبودها ، وكانت قِبلتى . شهدتنا شوارع المدينة نضحك ونثرثر ونملأ الفراغ قصور وهم ، وعرف القلب مسرات لا حصر لها . وما أمتع أن يشهدك جزء من اليوم متحمساً تخطط للعالم مستقبله وسط دخان اللفائف . وتواجه مع عدد قليل قوى عاتية ، يظنها الكثيرون بمنأى حتى عن لعن القلوب وتراها عيوننا الشابة وسط دخان اللفائف مجرد نمور من ورق . ويقهقه «إسماعيل البهنسى» :

– أى وعهد الله ، مدير شركتنا ورق ، دا حتى ورق بفره ؟ .

ويشهدك بقية اليوم محبا رقيقا حانيا ، تخطط لعش غرام صغير فتعجزك الوسائل وتنوء بحمله . ومرة ذكر الزواج .

قلت :

– ستعانين كثيراً ..

ابتسمت

– وسأسعد كثيراً ..

– هذا يتوقف على مفهوم السعادة لديك ، ومن واجبى أن أقول أن عناوين كثيرة ستدخل حياتك ، ربما لايبدو لها معنى الآن ليست بسيطة تناولت كفى :

– البرجوازية وعرفناها ، وكذلك البروليتاريا .. لكن أعدك أننى سأعرف أكثر .

– لا أعنى هذه ، ولكننى أعنى المصطلحات الأخرى .

– لا أفهم ..

– المطاردة والهرب والتفتيش والاعتقال والسجن .. وربما الترمل .

جفلت قليلاً .. ضغطت بكفها كفى .

– عيبك أنك تتصورنى أصغر مما أنا فى الواقع .

بعد لحظة صمت :

– طابعكَ العقلى البارد غلالة خارجية .. أنتَ حسٌّ خالصٍ حتى فى السياسة .

الصغيرة الرقيقة تتقن الكلام ، وهى بعد زهرة فيها حنو الطبيعة ورقتها، وتبحث عن لحظة تصنع فلا تجد ، كذلك خلا وجهها من الأصباغ، لتعجب من تفنن الطبيعة فيما تصنع . خبرة آلاف السنوات فى صنع الجمال ، وما أبسط تعبيرها عن أحاسيسها ولعلها صدقت فيما قالت ، لذلك يخفق القلب عند لقائها كما يخفق فى تلك الجلسات العاصفة .

....

آن أن نعرف الخفقات الخائفة ، ولم يمض على رحيلها أسابيع . فتأمل ما خلفته فى القلب من ندوب . عما كان يتكلم منذ لحظة ؟. تاهت فى صرخات الخمر قدرتك على الاستماع . يظلل الكدر مجلسنا . كان قريباً

دائمـــاً من القلب والروح فكيف هان عليــــه أن يخنق كل شىء فى هذا الاستجواب القاسى ؟

– مادمتَ لاتريد أن تتكلم سأذكرك .. أرسلتها لك أول مرة بالحقيبة .. أليس هذا صحيحاً ؟

– نعم .

– هل تعارفتما قبل هذه المرة ؟

– لا ..

– وماذا دار بينكما فى هذا اللقاء ؟

– لاشىء سلمتنى الحقيبة فأخذتها . ومضى كل إلى حاله . خشيت أن نكون مُراقَبيْن .

– ثم التقيتما بعد ذلك فى منزلنا ؟

– نعم ... وتحدثت معها قليلاً حول دراستها .

– وأرسلتك مرة إلى مدرستها ، لا أذكر أى مناسبة ؟

– ليس لمدرستها ، ذهبت معها للصحة المدرسية لأوصى بها صديقاً طبيباً .

نظرا إلى بعينى صقر :

– ذاكرتك قوية .. فلماذا تدعى النسيان ، هه ، ماذا حدث فى هذا اللقاء؟

– لاشىء .. ذهبت معها وعدت بها إلى البيت .

– على الفور ؟ .

– نعم .

– ولكنكما تأخرتما ثلاث ساعات .

– تذكرت .. كنا مُرهَقين .. دعوتها لنشرب عصير فاكهة .

– أين ؟

- هنا فى هذا الكازينو .

تنهد بارتياح شديد .

- هل قلت لها أنك تحبها بومذاك ؟

- لا .

- متى قلت لها ذلك ؟

- لا أذكر ..

إلى النقر المزعج عاد . حبات العرق تجمعت على جبهتى . كأوّل مرة أخرجت فيها المخ من تجويف الرأس ، عبثت فيه بأصابعى ، بددت على المنضدة مايحمل من أسرار وآمال وذكريات . أستسلم لمشرطى دون أنَّه ألم . فمتى يدركنا قبس من رحمة كتلك .

فجأة :

- هل قبّلتها ؟

- لا ..

- ولا مرة ؟

- قلت لا .

- غريبة ، أتذكر أنك كنت تبدو فى بعض الأيام مرحاً أكثر مما ينبغى . وكثيراً ما كنت تثير مناقشات لا تقلق إلى العاشقين: أيهما أجمل، العيون السوداء أم السنجابية ؟

ببسمة مرة :

- ماذا كان لون عينيها ؟ . أنا نفسى لا أتذكر ، مع أنها أختى وقد تربينا معاً ، أظن أنهما كانتا سنجابيتين . لذلك تحمست يومها للعيون السنجابية !

....

«أجل كانتا سنجابيتين ، حفظت كل تفاصيلهما. تغزلت فيهما . النهر والهواء وحتى سور الكورنيش شهود على كل ما كنا نقول . قبلتها فى ليلة صيف . فى لحظة معلقة بين الليل والنهار. أنهكنا أنا ومحمود عمل الليل الطويل. استيقظت كعادتها فجر كل يوم لتستكمل استذكارها . أطلت علينا عبر باب الحجرة. رأيت شعاع الفجر ومطلع الصبح وشعرت بملمس قطر الندى وسمعت شقشقة الطيور. وهى تنحنى أمامنا بصينية القهوة. اقترب كيانها منى، تهدل شعرها الأسود الطويل فازداد دنواً. شممت عبير الصبح. إلى الغرفة الأخرى ذهبت لأبحث عن كتاب فى المكتبة. من النافذة كانت تطل. استدارت بمجرد أن دخلت. اشتبكت عيناها المغسولتان بندى الفجر بعينى المرهقتين المتعبتين. تماست يدانا فوق كتاب كنا نبحث عنه: وجدت كيانها بين أحضانى يتنهد ببطء. عرفت مس شفتيها اللدنتين الرطبتين لأول مرة. انساب إلى مسها الدافىء. من الغريب أن صدرى لم ينشق لكى يحتويها كما كنت أطمح. ابتعدت عنى أخيراً وقطرة من الدموع معلقة بعينيها . تشاغلت بها عن الإجابة عن نظرتى المستفهمة. عدت بالكتاب، بيد أن السؤال ظل معلقاً، فى الغروب التالى قالت:

– أظن أننا نخون ثقة محمود.

– أنا على استعداد لأن أفاتحه.. محمود إنسان عصرى بكل معنى الكلمة ولن يزعجه فى شىء أن نتحاب.

– هذا مجرد كلام.. أنا أعرفه أكثر منك.

تناولت كفها بين يدى.

– هناك جوانب أخرى فيه غير أنه شقيقك.. أنا أدرى بفكره جيداً، انه أكثرنا تطرفاً.

سهمت نظرتها الحائرة بعيداً. الطريق خال إلا من أقدام قليلة لم نعرها

انتباها. تأملت جانب وجهها مشوقاً. فكرت أنه ناهم الملمس، ويدعو للقبل والغناء.. قالت:

- لدي ما يحملنى على الاعتقاد بأن هذا رد فعل لعجزه عن تحقيق ما يؤمن به حتى فى محيط أسرتنا.

- هذه قسوة لا مبرر لها.

- ومرة سألت نفسى لماذا تطمحون إلى فرض تصوركم على العالم، وأنتم غير مقتنعين به فيما يختص بذواتكم؟!

معاتباً:

- سلوى.. كيف هان عليك هذا القول ؟! .

ببسمة محرجة :

- لا تزعل. عشت نهاراً كابوسياً..

حائراً:

- ليس هناك ما يدعو لهذا.. أتظنين أنى أخدعك؟

- نفيت الفكرة عندما طافت بى.. والحقيقة أننى أرتعبت من السقوط.

أحطت خصرها بذراعى:

- أنت أكثر براءة من ملاك.. وعلى أن أقر أن تحويلك إلى زوجة سيكون أكثر تعقيداً مما نتصدى له من مشكلات معقدة .

أطبق الصمت على الطريق، وكنت أتوق إلى عالم البراءة، وهاهى نبتة من زرعه القليل. فمتى يرتاح العالم من الشر والقتل والظلم. آنذاك يخلو لنا الجو للحب والفرح.. وتطير العين بين أسراب الطيور، دون كلل.

....

هل آن أن تقر بأنها كانت تفهم أخاها خيراً مما فهمته. ينصب المشانق وفخاخ الاتهام لتواجه وحيداً أسلحته العاتية. والقلب الحزين أعجز عن أن

يصد مطارق الاستجواب، وعلى المنضدة حزمة الرسائل: أداة اتهام خطية، ليس من السهل تفنيدها أو الطعن فيها ولو حتى بالتزوير. والذاكرة الخؤون تأبى إلا أن تعذبك.

مد يده إلى جيبه، أخرج عدداً من الأوراق:

– مادمت مصراً على الكذب، فسأواجهك بالأدلة، تقول انك لم تقبلها، إذن فما معنى هذه الجملة «.......

مقاطعاً...

– محمود.. لا داعى لهذا..

تجاهل مقاطعتى.. تمتمت شفاه ببضع كلمات من الخطاب، ثم رفع صوته:

– هذا عن العينين السنجابيتين.. أسلوبك بديع ولك مستقبل أدبى مرموق.. آه.. هذه هى الجملة. وضعت تحتها خطا.. «شفتاك عالم من الدفء والنشوة».

أجل كانتا كذلك، ولكن ياللخجل.. هل تتحصن بالكذب مرة أخرى:

– هذا مجرد خيال محبين، وهو لا يعنى شيئاً.

– أنت تكذب، إليك بقية الجملة «عرفت عندما قبّلتك فى تلك اللحظة المعلقة بين الظلمة والنور أن قدرى أن أعيش بينهما». ما قولك.

– ليكن.. قلت أننا كنا محبين وكفى.

– إذن قبلتها؟

– نعم؟

تنهد بارتياح.

– كم مرة؟. أقول لك، لا داعى، لدى ما يؤكد أنها مرات متعددة.. ولكن هل.. مسست صدرها؟

آه: الجميلة الرقيقة التى كانت تخجل من لمسة اليد ورنوة العين، وتذكر يوم بكت لمجرد القبلة، فكيف يمثل بها هذا التمثيل الشنيع.. أيبدو الموت رحمة بها؟

- هل مسست صدرها؟

- لا أدرى إلى أين تدفع الحديث.. أنت تجلد ميتين.

نفخ بيأس:

- أنت جلدت كل شيء.. ألم ترو لها ما يعرض أمن آخرين للخطر؟..

- أردت أن أجعلها تستعد لما قد تواجهه إذا ما تزوجنا.. ومن الطبيعى أن.. أدق بعنف على المنضدة. بشراسة: لا تتورط فى أكاذيب جديدة وإلا خسفت بك الأرض. نحن لا نهزل. فكيف تعرض أمننا للخطر بهذه الاستهانة؟!

- سامحك الله.. أنت غاضب، ولعلى أحزن منك، ولكنها أختك وما كان لى أن أشك فيها..

منفعلاً:

- قلت اننا لا نهزل.. من حقى أن أشك فى أى إنسان حتى فيك أنت نفسك!

مضى وقت قبل أن استوعب ماقال. تترسب المرارة تدريجيا فى قرار القلب. التفت خلفى. عاشقون يحتمون بمظلات من نظرات النجوم. وسوست ضحكة خافتة. وأصوات هامسة كخدر الليل. مرة قلت لها أن أنفها كأنف كليوباترا فافتر ثغرها عن بسمة خجولة ولم تجب. وتحدثت عن اسماعيل البهنسى وحبيبته عزيزة طويلاً. وقالت أنه ضخم ومخلص، فهل كل العمال هكذا؟

وهذا النهر كم مسحت عيناها سطحه بتبتل العاشقين..

- لا تلزم الصمت..

ثم بنبرة ساخرة:

- من الطبيعى ألا تستطيع مقاومة لحظة كالتى يقضيها من يجلسان خلفنا. وبين القبلة ودغدغة الصدر تعرض مستقبلنا للخطر..

كان صدرها كبرعم تفتح حديثاً.. أحسست به دائماً فى صدرى يتنهد ببطء..

- كف عن الكلام البذىء وإلا انصرفت فوراً.. إن ذكراها أعز عندى من صداقتك.

صرح بعنف:

- لا أكل من هذا الكلام، ما أسهل أن تتسلل كفك من فتحة البلوزة، هذه أشياء تحدث كثيراً وأنت تعلم هذا..

- قلت لك أن هذا لم يحدث، كنا حبيبين قبلتها وقبلتنى، وكنا نعتزم الزواج، وكنت ستعلم كل شىء فى حينه.

- كذَّاب، لديك شقة تقيم فيها وحدك، ولعلها ذهبت إليها آلاف المرات، ويبدو اننى سأضطر لطلب نتيجة التشريح، لكى أعرف هل ماتت عذراء أم لا..

- أنت مازوكى.

- لا تضحك على بكلمات أستطيع أن ألقى فى وجهك بمئات مثلها..

.. ثم بضعف مفاجىء:

- إننى مرهق.. مرهق.. ولكن أحقا لم يكن بينكما شىء غير القبلات. لا أظن، فى الخطابات كلام كثير يحتمل مختلف التفسيرات وقد أخذت أهمها وإليك الباقى، فقط أريد أن أسألك سؤالاً أخيراً، أظن أنها لم تمت فى حادث، شككنى الطفل فى هذا.. لعلك. لعلك غدرت بها، أفقدتها بكارتها

وتخليت عنها، لا تفيد نتيجة التشريح بشىء، أنت تعلم هذا، وأعلمه أيضاً،
هناك ألف وسيلة لممارسة الجنس دون أن تفقد الفتاة بكارتها.. ولكن.

ارتفعت الضجة فجأة حولى، ملأ الطنين كل شىء.. هرست أقدام كثيرة
رأسى.. حثثت خطواتى فى الطريق عائداً وحدى، تركته يتكلم مع الفضاء!

08

الشهادة الثالثة

لحظة حب منتزعة من زمن القسوة

ولأن البحر جميل إذا ما سكن، فعلى سطحه تأملت أمتع الأفكار، ومرة قلت لنفسى إننى سأحقق الحلم المستحيل: أين كنا؟ متى كان ذلك؟ صيف أى عام؟ . يبدو ذلك قريباً جداً كأنه الأمس، ولعله. كانت لحظة حب منتزعة من زمان قاس.. فمن يعيد نشوتها للذاكرة؟.

مع اختفاء «برج العرب» اختفى الزرع، احتضن الفراغ والقيظ قطارنا المرهق. جادت الصحراء ببعض قحطها: رمال صغيرة دقيقة كذرات الحزن المستكن فى الضلوع. عبر الزجاج أطلت عيناى جائعتين للراحة والفرح، فصادتا غزالاً آبقاً فى الصحراء وبدوية ترعى. خف الغبار حين اختنقت الشمس. فتحت نافذتى. السحاب ملء الأفق: قريب للعين المريضة، طبقات سميكة تتداخل فى ألوان الشفق والرمال وخضرة الصحراء الضنينة. قلبى المضنى يبحث عن مقعد زئبقى فوق هذه السحابة أو تلك. هنا تتاح للعيون التى أرهقها الزحام فرصة لاصطياد الفرح الآبق، وللأذن التى أصمها الضجيج فرصة لسماع الزغرودة المشلولة. تتاح للسيقان التى هدها كساح السجن أن ترقص. تنطلق. تجرى حتى يتصاعد لهاثك. تضحك الثكلى والأرملة التى تسكن الصدر مذ كنت نطفة فى صلب أبيك. فى اللحظة ذاتها كانت تزور القبر المجهول. الأرض حقول ألغام. مساحات من الفراغ المسور بسلك شائك. ولافتة لجمجمة افتقد صاحبها الحذر . مساحات شاسعة من رمال الموت. فكيف ترقص فوق هذا الخطر المميت؟!. وما أجمل أن تصبح

جمجمتى تحذيراً للحالمين بالرقص..

....

فى محطة «العلمين» صعدت «روكسانا».

فى اللحظات الأولى لم أستوعب كل جمالها. احتاجت إلى عربيتى لكى أنهى علاقتها بحمال بدوى جاء بأمتعتها. ولبعض النقود الصغيرة لتسدد له ما أراده، ولذراعى لتضعا لها حقائبها فوق الرف. غادر القطار «العلمين» أطلت من النافذة تودع المكان بنظرة رثاء. جلست:

– آسفة. أزعجتك.

بابتسامة مجاملة:

– مرحباً بك.

قبيل «رأس الحكمة» كنا قد عرفنا ما يمكن أن يعرفه راكبان فى قطار، كل عن الآخر. زحف الظلام فأخفى بين طياته الفراغ المرعب. تملأ الأشباح الدنيا صراخاً وضجيجاً. من مخابىء مجهولة تطل الهموم والزواحف.

«فى أى مكان من هذا الفراغ اللانهائى ترقد بقايا «بيتر» ؟

نامت كطفلة.

كيف يمكن أن تصدق أنها كانت زوجة قبل عشرين عاماً. قالت إنها فى الخامسة والأربعين. وجهها يصرخ مكذباً. يؤكد أنه لم يطالع الدنيا كل تلك السنوات بدقائقها وثوانيها.. بالحزن الكثيف والقلق الممض. كانت طفلة يوماً ما. ومازالت. كأنها منتزعة من العالم. تدور فى فلك غير فلكه. كان لها زوج وحبيب. فى هذه الصحراء المرعبة عاش. ركب هذا القطار يوماً. ضحك فى مكان ما منه. قتل فى بعض هذا الفراغ. فى نظرة العين شىء أعرفه. ولكن التذكار ابن القلوب الخالية.. آه: هى نظرة الجزع التى رأيتها فى عين «إيدا ريبك» يومذاك.

....

وكان صباح.

أخرجوا عدداً من المرضى. طردوهم من المستشفى. أرسلوهم إلينا فى الجنوب. كنا نعمل فى حفر الخنادق بأرض مغطاة بالجليد. فى يد كل منا جاروف. صوت الحارس يقودهم فى صف واحد:

– إلى الأمام سر.. واحد.. اثنين.. واحد.. اثنين.

تابعت صفهم وهو يتقدم بخطوات متعثرة بالارهاق. فى نهايته كانت «إيدا ريبك» لا تقوى على السير. تدور بنظراتها هنا وهناك فتعرض نفسها بذلك لركلات الحارس. بطنها مرتفع برغم الثوب المتسع الذى ترتديه. تحاول التجلد لكيلا تعرض نفسها للعقاب. انهمكت تعمل بسرعة ومن دون توقف. لا تضيع الوقت ولو حتى لكى تلتقط أنفاسها. تكاثفت حبات العرق فوق جبهتها. أفلتت يدها الجاروف. شحب وجهها. تتنفس بصعوبة وعلى وشك السقوط. اقترب رئيس الفرقة منها، تفرس فى وجهها، لكزها فى صدرها بشدة:

– اذهبى وخذى نصيبك من الشوربة.

أشارت «ألما روزى» بإصبعها إلى «إيدا»..

– إيدا.. استريحى أنت وسوف أحفر بدلاً منك..

فى اللحظة التالية ارتفع السوط فى الهواء بسرعة البرق.ضربات كالطبول تقدح رأسها بعنف. توقف الضرب:

– الكلام هنا ممنوع..

نظرة انكسار فى عينيها. اتجه الجندى نحوها. توقف على مقربة منها. شغل نفسه بتصيد قطع من البطاطس من شوربة الكرنب المخصصة لغذائنا. صغير السن كان. وجهه دقيق نضر. اقترب منه كلبه الصغير. أخذ يعابثه بإلقاء بعض قطع الخشب بعيداً ليعود بها الكلب إليه. يربت رأسه

برفق. يداعب قدمه الأمامية. ابتسم لى متابعاً إعجابى بالكلب. سألته:

– لماذا غضبت؟

وفمه محشو بالبطاطس:

– لا أحب أن يتدخل أحد فى العمل..

– المرأة حامل، ولا فائدة من عملها وهى فى هذه الحال.

– أتنصح بإعفائها من العمل؟.

برجاء:

– إذا سمحت.. يومان أو ثلاثة حتى تضع ما فى بطنها؟

يداعب كلبه هنيهة.

– وهو كذلك!!

اقترب منها. تناول الجاروف الذى كانت تعمل به.. اهتز قلبى بموجة فرح. تابعت بسمته مشوقاً. فجأة انهال عليها بضربات متلاحقة.. صرخت فى فزع. وضعت يدى على عيونى. رفع إصبعه محذراً. كف عن الضرب. ألقى بالجاروف إلى قاع الخندق. أمرها بإحضاره. حين كانت تقوم بهذه العملية للمرة الخمسين بعد المائة، كانت حبات العرق قد ملأت جبينها وسالت على عينيها.. ماتت الشمس عند حد الأفق!

....

عند «رأس الحكمة» استيقظت. ألقت نظرة عامة على المكان.

– بعد نصف ساعة نكون فى «مرسى مطروح».

مسحت وجهها بعطر فاح فعبق المكان بعبير ياسمين طازج:

– ستقيم فى «ريم»؟

– نعم ... أزرت مرسى مطروح قبل ذلك؟

....

أستطيع الآن أن أراها فأواجه فى سطوع الشمس حقلاً فواجاً. شعرها الأشقر الطويل ينسدل كجدول ماء على كتفيها. فى عينيها لمعة من انعكاس الشمس على سطح البحر. مزيج من الزرقة والخضرة. فى صفحتهما رأيت نفسى صغيراً كطفل. أسندت رأسى. نمت على مقلتيها. حلمت. سبحت فى الماء. هدهدنى بين الأجفان هدبها. على مرمى البصر كان البحر ساكناً. تناولت إفطارها برشاقة آسره.

ونحن نشرب الشاى:

- أجىء كل عام لزيارة «بيتر» وعدته بذلك قبل أن يموت.. ولكننى لم أزر مرسى مطروح إلا العام الماضى. فاتنة.. فاتنة.

ألقيت بحصاة فى البحر، تأملت الدوائر الصغيرة التى صنعتها.

- مازلت تحبينه؟

- كنا أصدقاء لا مجرد أزواج. كان صغيراً جداً عندما مات.

العظام البالية أحسن حظاً من الأحياء أحياناً. والعيون التى تتفرس فتنتها فى البنطلون الضيق متطفلة لكنها معذورة.

- لم ننجب أطفالاً.. كنت صغيرة جداً وقد أحببته بجنون. كنا نذرع الشوارع طوال الليل. وكان يهوى الأوبرا وسباق الخيل وموزارت. ويكره تشرشل وروزفلت وستالين. أتكرههم أنت أيضاً؟

ابتسمت:

- الضرب فى الميت حرام..

أمسكت كفى ونحن سائران بتلقائية:

- أنا أكرههم حتى الآن. كان «بيتر» فى صفوف الجيش الذى بدأ الغزو. شارك فى غزو بلجيكا وبولندا. كان يقول إن الحرب بالنسبة له ثأر شخصى. نحن أساساً من «السوديت».. وظل فترة طويلة ضمن قوات الاحتلال فى

بولندا.

خلعت بلوزتها. علقتها فى أسلاك الشمسية. فتحت سوستة البنطلون. استلقت مستريحة فوق المقعد. جلدها ناعم مشدود. كأنما لم تمسه حتى يدها.

– وأرسل لى من هناك رسائل شوق ملتهبة، ومرة كتبت لى الرقيبة على هامش إحداها تهنئنى لأننى وجدت رجلاً يحبنى بهذه القوة.

التفتت فجأة. وجدت عينى مركزتين على جانب وجهها. كانت تتكلم طوال الوقت وعيناها فى البحر. فكرت أن الأحلام زمن نتوالد أثناءه ذاتياً. رقصت على الماء. تطاير الرذاذ فقتل الحزن وسود الذكريات. متى تصرخ كما تشاء؟ ومتى تغنى بلا خوف؟

فوجئت بنظراتى. اهتزت أهدابها:

– لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟

ألقيت حصاة أخرى فى البحر:

– لا شىء.. عثرت على لحظة شبيهة باللحظة التى صور فيها «دافنشى» «الموناليزا».

أحمر وجهها:

– أنت مغازل ماهر.. كتب لى «بيتر» مرة شيئاً كهذا. الرسائل معى فى الفندق. هل رأيت صورته؟ هاهى.

فتحت قلادة صغيرة معلقة بسلسلة ذهبية فى رقبتها. انحنيت أتأمل الصورة: شاب صغير السن، ضاحك، ملامحه دقيقة. انحدرت عيناى إلى صدرها الأملس الناعم، وإطلالة نهديها: من أى مكان تنتشر هذه الرائحة المخدرة. أنهكنا حوار الخلايا داخل الرأس. وثمة معركة دموية فى الداخل. فأين ومتى يعود السلام؟ وحلمنا الآبق متى نلقاه؟!

في المساء الثالث لوحتها الشمس. بدا جسدها لامعاً في ثوبه البسيط. تحدثت مرحة عن رحلة الصباح إلى «عجيبة». قالت باعتذار:

- أخشى أن أكون قد تطفلت على وحدتك؟

.. «بالطبع نعم. كنت تحلم بفراغ ممتد: أنت والماء وما داخلك.. والغريب أن تطفلها يبدو كما لو كان هو حلمك».

- أحب الوحدة. لا صديق لي سوى نفسي. لا أشعر الآن أنني مع غريب..

«برقت عيناها في ظلام الليل. بددت وحشته».

- جئت أبحث عن حلم.. من يدري قد أجده.

ارتفع الضجيج في المكان. توافد الراقصون إلى «البيست» نظرت إليها مستفهماً. قالت:

- لا أحب هذه الرقصات الصاخبة. هل نغير المكان؟

من الشرفة بدا البحر ملتفاً بالظلام. متكلماً رغم الصمت. وأضواء خافتة تبدو من باخرة تسير في نقطة التيه منه. يتحرك ضوؤها الباهت ببطء. قالت:

- لم نكن نرقص هذا الجنون. أقصى ما وصل إليه جنوننا هو الرومبا وكان التانجو حلمنا الأثير.

- غيرت الحرب كل شيء.

- أشهدتها؟

«اللمعان في جسدها صنع الشمس والماء».

- لم تتوقف الحرب أبداً.. وكانت في بلدنا حرب منذ عام واحد.

وهي تتناول يدي ضاغطة:

- قرأت عن هذا وأسفت لأجلكم.. مات كثيرون؟

- عدة آلاف ردمتهم الصحراء..

مسحت بكفها فوق كفى:

- وستذهب زوجاتهم وأمهاتهم لزيارتهم هناك بعد ما تنتهى الحرب. وستبكين طويلاً. بكت «أم بيتر» عليه كثيراً.. وكذلك أنا...

«شكراً للضوء الضنين. طرقت الدموع أبواب العين».

- كتب لى من «طبرق» ومن «مرسى مطروح».. كان معجباً بالبحر جداً. قال إنه أجمل البحار، وعدنى أن نسبح فى مياهه بعدما تنتهى الحرب.. آه. قال إن جسدى سيكون جميلاً كفراشة. وتغزل فى «الفيلق الإفريقى»، وعندما سقطت «الضبعه» و«فوكه» أرسل لى برقية قال فيها: سنمضى الصيف فى «مرسى مطروح» أو «الإسكندرية» وكان هذا آخر ما كتب لى!

بعد لحظة صمت:

- لماذا تبدو حزيناً وشارداً دائماً.. أمات لك أحد فى الحرب؟!

نقرت بإصبعى على حافة الشرفة:

- نعم!

«أين تذهب وحشية الاستجواب إذا ما تحولت العيون الجميلة إلى علامة استفهام».

- من الذى مات؟

- أنا.

دعتنا أنغام التانجو فى الداخل. استكانت فى أحضانى كقطة تنشد الدفء. همست:

- أيضجرك حديثى المستمر عن «بيتر»؟

- أفكر فى أننى قد أكون قابلته فى مكان ما فى بولندا.

ملامحها كزهرة دانية القطوف. أضفت:

– دخل الجيش الألمانى «وارسو» وأنا هناك. وبعد فترة اعتقلت.

بدهشة أربكت خطواتها الراقصة:

– كنت هناك؟ اعتقلوك لماذا؟. أنت أقل من الأربعين بالتأكيد. ثمانية وثلاثون على الأكثر.. هل اعتقلوك وأنت طفل؟!

– هى حكاية طويلة قد أرويها يوماً.. لست صغيراً لهذه الدرجة.

اختلجت عيناها بنظرة قلق:

– أقابلت «بيتر» حقاً؟

– لا أذكر الوجوه بعد كل تلك السنوات. قابلت الكثيرين من الضباط الألمان فى شوارع «وارسو» وحدائقها وملاهيها.. وأيضاً فى «أوشفتز».

لمحة ذعر طافت بعينيها. زادت القتامة فيهما:

– أحقاً ما قيل عنها بعد الحرب؟!

– وأكثر: كنت أدرس الطب هنا.. ثم ذهبت لاستكمال دراستى، ولم يفرج عنى إلا بعد ما دخلت القوات السوفيتية بولندا، و...

ضحكت:

– ألهذا تحب ستالين؟

– هذا واحد من أسباب عدة..

برنة أسيانة:

– تعرضت لاشك لمتاعب لا حصر لها، ولكن «بيتر» لم يشترك فى هذا.. أنا واثقة..

– انتهى هذا كله من زمن..

بحزن أردفت:

– كان طيباً جداً. عندما يقبلنى كان يلوذ بأحضانى كأننى أمه.. لا يمكن أن يكون قد عمل فى «أوشفتز».. أنا متأكدة أنه كان فى القوات المحاربة.

- لا تشغلى بالك. انتهى هذا كله من زمن..

- هذه أشياء لا تنتهى.

....

«نعم وإلا فما فمعنى هذا الحزن المستكن فى الضلوع كبعض حفريات التاريخ. مضى زمن طويل حقاً. فمن ذا يهبك نسياناً لا ذاكرة بعده. أصبحنا نؤرخ به الأحداث الجليلة. وكان لذلك الحارس الصغير السن أم لا شك. كان يحب كلبه ويدلله. ظلت «إيدا ريبك» طوال اليوم تصعد بالجاروف من عمق الحفرة، فيعيد إلقاءه لتحضره من جديد. كانت «إيدا» فى أواخر أيام حملها. صعدت وهبطت، وهبطت وصعدت. رحمها الغروب. تلون الثلج بالدماء النازفة. ماتت الشمس. نزفت صديدها على الثلج. جرت «إيدا» أقدامها خمسة أقدام. على بوابة المعتقل تهاوت ساقطة. أقبلت سيدات من المستشفى. ظللن بجانبها فترة من الزمن. غفل عنا الحارس. ظللنا واقفين شاحبى الوجوه. صرخاتها تتعالى.. تتعالى.

حملت المرضات بين أيديهن ملاءة بيضاء عليها كومة صغيرة من اللحم.

صاحت إحدى الواقفات على رأس الوالدة.

- ماتت!

فى صوت غاضب قال الحارس:

- امرأة مزعجة.. لو خرجت روحها عند الخندق لدفناها هناك..

تنبه إلينا:

- إلى الزنازين.. تعال أنت.. وأنت : أحملا هذه البلوى إلى الغرن .

....

أكانت له زوجة؟

- كان له أم بالتأكيد.

....

عارية إلا من ذلك البكينى الضئيل. جسدها الرشيق شاهد على الطبيعة حين تصد هجمات الزمن. تنعكس الشمس على كيانها فتزيده لمعاناً. تبحث العين عن تجعيدة فلا تجد. كيف قاوم هذا الصبا المتفتح طعنات الزمن؟ وجنتاها عاليتان. مشدودتان. توارت العينان بمنظار أسود أنيق. على الرمال تستحم بالشمس:

- أوجدت حلمك الهارب؟

على مقعد خلفها كنت أجلس، أطل عليها من عل:

- ليس.. وهذا الزجاج الأسود يخفى عينيك!

ابتسمت بخفة. ثنت ساقها اليسرى:

- ما شأن عينى وحلمك؟

هربت عيناى للبحر. كيانها كله داخلى:

- أكره ألا أرى نفسى فى الآخرين. ربما أنت بالذات.

....

طفلى الذى كنته. تعال أحتضنك. مشوق أنا للدفء والعزاء. يارعب ليل الوحدة. نصف نائم كنت. صحوت. لم أجد أمى بجوارى. خرجت إلى باحة أمام الغرفة. شىء ما وجدته أمامى. لا أدرى ماهو بالضبط. وغالباً كان شبح أحد الموتى من أقاربى. صرخت. تسمرت فى مكانى. شل الرعب كل شىء فى داخلى. هبط قلبى إلى أقدامى. شقَّت صرخاتى المرتعبة طبقات الظلام والصمت. بلا مغيث. أنقذتنى أمى. أدخلتنى غرفتنا. دافئة كانت. أخذتنى فى أحضانها. تفصد بالرعب قلبى. أحاطتنى بذراعيها. تسلل الدفء إلى نخاعى. تشبثت ذراعى النحيلة بجسدها. هدأت. نمت على الأرض. أسندت رأسى على ركبتيها، هزتها هزات خفيفة. أشعلت ناراً فى

إناء فخارى. امتصت النار نظراتى الشاردة. غنت. لا أذكر الأغنية. نمت طويلاً. حلمت حلماً لا أذكره. مزدحماً كان الحلم: البحر والمطر والشمس والفراشات الملونة. موسيقى ساحرة. شجرة خضراء ضخمة، طيور ملونة تغنى. استيقظت على ضوء الشمس. وجدت أمى نائمة. مال جذعها على جسدى النائم.

....

سبح الجندول فوق الزرقة. فى مقلة الشمس كانت راقدة وأنا أجدف. شعرها الأشقر يتوهج. بعدت ملامح الشاطىء عنا. صعدت فوق السحاب.. ليهدأ كل شىء، يخفت الضجيج داخل الرأس. تبدو الدنيا واسعة بلا حدود. آه. بلا حدود.

– أود أن نسبح معاً..

– سأفعل ذلك يوماً ما..

قفزتْ إلى الماء فجأة، اهتز الجندول حتى كاد ينقلبْ.

سبحت أمامى. هذا التدثر بالقميص لن يمحى آثار الزمن فى بطنى. لا مفر من احترام جمال العيون. تخيل أن ترى عيناها بزرقتهما المخضرة ما آل إليه لحمك الحى؟

سبحت من تحت الجندول لفت فى حركة دائرية، ساقاها مرنتان ورشيقتان. استندت بكفيها على حافة الزورق:

– لا تجدف، اتركه للماء يوجهه كما يشاء.

تركت المجداف بجوارى. إستلقيت على مسطحه وهى مستندة بكفيها على الحافة، تدافع الماء فزاد من إطلالة نهديها، هذه الفتنة الطاغية قريبة من العين والقلب كأقرب ما تكون.

– فيم تفكر؟

- أقول لنفسى أنه يجب ألا أحبك..

انفرجت الشفتان عن شعاع بكر من أشعة الشمس.

- لماذا؟

اعتدلت فى رقدتى فوق الجندول، أصبح وجهى قريباً منها. ما بيننا أدق من أن يدركه بصر. فى عينيها رأيت نفسى صغيراً. تأملت صورتى بإعجاب:

- ستسافرين بعد أيام.. وسأحزن كثيراً.

عابثت أصابعها شعرى:

- حقاً؟ قضيت هنا أياماً ممتعة.. كنت أفكر يوماً فى الترهب.

«لم تعابثك الفكرة لحظة رغم ما تحمل للقلب. ألا يزال هناك أمل فى أن تعود الدنيا كما كانت، فترصف الطرق من فخاخ الشك ونظرات الريبة».

سبحت مرة ثانية كفراشة فى انسياب الضوء. أكان فى الحلم القديم فراشة بيضاء دقيقة؟ ربما. مرة ثانية عادت:

- حلمت مرة حلماً غريباً.. جاء «بيتر» فى المساء بملابس ملاك أبيض، ابتسم لى، فتح جناحيه، ضمنى إلى صدره، قبلنى فى جبينى ووجنتى وشفتى، اختفى ملوحاً بيديه، فى الصباح فكرت فى أن أدخل الدير، ولكن أمه منعتنى.

- ما أجملك فى ثياب الراهبات.

- لا جمال فى السواد.

....

«جريت فى شوارع قريتنا وراء نحلة أروم اصطيادها بقلنسوتى، قادتنى إلى الحقول. تاهت العين فى كون من الأخضرار الزاهى. على سطح الزرقة قاد الماء قاربنا إلى حيث لا نعرف. يسرى الخدر إلى كل ذرة فى جسدى

على السحابة الزئبقية رقصت. خفق القلب المكلوم فرحاً. من مقلة العين طار شعاع من بصرى إلى أوبرا «لاهاى». وتلك الراقصة كالفراشة كانت «ألما روزى». أدفأتنى أحضانها. أطعمتنى شفاهها المشوقة.

– لمن تغنين ياعزيزتى «ألما»؟.

– الليلة حفلة عرس.

– ومن يتزوج؟

– ذلك الطفل الذى كانت تحمله «تساريكا».

– ابن «اديث لينك»؟

– .... أما عروسه فهى ابنة آداريبك».

ياسيقانى المشلولة جاء أوان الرقص فوق السحاب.

....

وجدت شفتى بين شفتيها. امتص ملوحة البحر واحتضن تموجه وتدافعه، أسندت ذقنها على حافة الجندول، رشفتنى عيناها حتى آخر حسوة.

– أشعر ببرودة شديدة.

– نحن قريبان من الجزيرة.. أم تفضلين العودة إلى الشاطىء؟

تحركت فى اتجاه الجزيرة.

– لنزر مخبأ روميل.

حركت مجاديفى تجاه المخبأ، تسبح باسترخاء كفراشة نائمة .

صعدت على الرمال. ارتجف جسدها وهى تواجه سخونة الشمس. ضممتها. استنامت إلى ضمتى. ارتجفت شفتاها. سمعت صرير أسنانها. مسحت بكفى شعرها المبتل. بعد لحظة كانت قد جفت. جرت بمرح باتجاه المخبأ. جريت خلفها. فى ظلام البرزخ المظلم الذى يقود إلى الغرفة التى كان يختبىء فيها «روميل» أشعلت عود ثقاب. على الجدران توقيعات زوار من كل

زمان ومكان. أطفأت عود الثقاب بنفخة من شفتيها.. تقدمتْ إلى الغرفة وأنا خلفها.. فى الظلام لن تقتحم طبقات المشمع اللاصق، وتسلخات البطن جمال العيون.. والليلة ليلة عرس ابن «آديث لينك» على ابنه «آدا ريبك». فاحذر أن تدوس على بقايا مخ قد تكون خلاياه تبعثرت هنا..

وكانت ترقد فى ظلام المخبأ حيث لا أرى إلا صوتها الهامس:

- أنا.. هنا يا«بيتر»!

ولدهشتى تقدمت!

09

الوثيقة التاسعة

مقتطفات من كتابات مجهولة على حائط مرحاض عمومى

كان لابد أن أجده لكى يصدر حكم البراءة نهائياً وتاماً، وإلا فما معنى المحاكمة والشاهد الأساسى فى القضية مختف، مات كل الشهود، «أديث لينك»، «آدا ريبك» و«ألما روزى» والآخرون.. فمن يشهد بأن ماكان لم يكن حلماً أو وهماً؟

فى الجلسة الأخيرة صاح «وليام كالى»:

- كل هؤلاء الشهود كاذبون وقوادون. إنهم ضباط وجنود تحت إمرتى. بينى وبينهم ضغائن، فمن يشهد أننى قتلت سكان «ماى لاهاى»؟ هيه؟. الشهادة الوحيدة التى يمكن تصديقها هى شهادة أهالى «ماى لاى» أنفسهم.. ياحضرة القاضى، أطالب باستدعاء سكان «ماى لاى» كشهود نفى.

وقف المدعى العام متحفزاً:

- هؤلاء قتلوا، إن شيئاً لم يبق فى «ماى لاى»، فمن يشهد؟ هذه حيلة مفضوحة من المتهم.

ويليام كالى:

- وإذن فلا دليل حقيقى على الاتهام، وإلا فلتستنطقوا الجثث لعلها تبوح بما دبرتم.

لهذا لابد أن أجده. ذلك الرجل الذئب، بعيونه الجاحظة، بشاربه الهتلرى، برباط عنقه المبرقش، بقامته القصيرة المنبعجة، سأبحث عنه فى الخلاء

والزحام. فى دور الكتب والمتاحف. فى النظرات السارحة فى الطريق. بين نهدى حبيبتى، وفى المسافة بين إطباق كفى على كفها..

ولأن مدينتنا مزدحمة، فلابد أن هذا الوجه العابر هو. ربما ليس هو. تضحك «مرفت السويفى» ونحن نلتقى فى «برجولا» مزهرة فى «الماريلاند» وتتحدث عمن لقيت من رجال فى هذا العالم:

- أنت لا تعرف حبيبى الذى حدثتك عنه، كائن غريب. ومرة بكيت على صدره، فأخذ يفتش خلف كلمات طائشة، قالها رجل مجنون. وهو ما زادنى بكاء.

ساعتها كنت سارحاً فى ملامح النادل الذى أتى بالمشروب، فكرت أنه شبيه بالرجل الذئب. شككت فى ذلك. فى المساء كانت مثانتى تضغط على بشدة. قررت أن أتبول على حائط لامع من الرخام مقلداً فى ذلك صبياً متشرداً. آثرت - بعد تفكير - أن أبحث عن مرحاض عمومى أودى فيه هذه الوظيفة الهامة. أضنانى البحث. ساعتها اكتشفت أن المراحيض العمومية فى بلدنا قليلة جداً. وأن من كان مثلى محصوراً، عليه أن يلف أكثر من مرة لكى يتخلص من ذلك الضغط المؤلم على مثانته. سيبدو سخيفاً ومضحكاً أن أتبول على نفسى. وأن يبتل بنطلونى.

أخيراً وجدت مرحاضاً عمومياً - ظل عابر سبيل يشرح لى مكانه بإفاضة حتى كادت مثانتى تنفجر - ما كدت أقف أمام المبولة حتى تركت العنان للمياه المتجمعة لكى تنطلق فى اندفاع شديد، شعرت براحة عميقة. يبدو العالم هانئاً رغم الروائح النفاذة. أمتع مافى هذه الحياة: التخلص من الألم الضاغط على أسفل المثانة. يصطاد العقل - أثناء ذلك - فكرة سارحة. كل شىء يبدو ممكن الحدوث، آنذاك يمكن - ونحن نصل إلى آخر المياه الضاغطة - أن نتطلع إلى الحائط أمامنا. كتابة بقلم رصاص، من

يمنع عين المستريح أن تلتقطها:

- «أرجوك ألا تصدق الكلام المكتوب عنى على الحائط المقابل، إنه تشهير قذر».

ثم إمضاء غير واضح.

قلت إننى لن أقرأ الكلام المكتوب على الحائط المقابل. إن محاولة للتشهير بإنسان قد جرت ولهذا فلن أقرأه. لن أتطفل على أسرار غيرى. بعد لحظة فكرت فى أن أعرف اسم ذلك الرجل المشهر به. كانت آخر المياه تتساقط. إحساس غامر بالراحة. خف توترى. بدأت الرائحة النفاذة تضايقنى. وأنا أغلق زراير البنطلون. فكرت أن أقرأ الكلمات على الحائط المقابل. لم أقاوم الفكرة كثيراً. التفت. قرأت:

- «ألم أقل لك أن الكلام المكتوب تشهير. ومع ذلك أصررت على قراءته لأنك متطفل وأمك زانية فيك وهى حامل بك. ياقذر ياابن اللبوءة. ما لك وأسرار الناس. ها. ها. ها».

ثم توقيع غير واضح.

أحمر وجهى خجلاً. مضيت مسرعاً. وقف الحارس:

- شفيتم.

- عوفيتم.

بلهجة خاصة:

- يوجد مرحاض خاص نظيف. تحت أمرك... قرش واحد فقط.

مضيت إلى الطريق. فكرت وأنا مستريح فى أن كاتب هذه الكلمات رجل خفيف الظل . فى مدينتنا وربما فى مدن أخرى، عدد من التقاليد غير الصحية. غير أن أكثرها انتشاراً هو الكتابة على جدران المراحيض

العمومية. وكان ذلك مثار تعليق الصحف أكثر من مرة. ذلك أنه فى مراحيض دور السينما والمدارس والجامعات والمستشفيات والمطاعم الكبرى ينتهز بعض الناس فرصة اختلائهم بأنفسهم، والشعور بالراحة الذى يعطينا إياه التخلص من ذلك الضغط على المثانة والمستقيم، ليكتبوا - بأقلام من الرصاص - آراءهم فى العديد من المسائل. وبالطبع فإن هذا يتضمن آراء سياسية واجتماعية. كما يتضمن وجهات نظر فى العديد من الشخصيات اللامعة فى ميادين السياسة والفن والأدب والعلوم والعمل العام. فكرت فى أن تلك ظاهرة غريبة وبأن جمع تلك الكلمات وتحليلها قد يفيد فى قضيتى. وعلى الأقل فسوف يزيد ملف القضية ضخامة، وفى ذلك فائدة لاشك، إذ لابد من تطويل مدة نظر القضية حتى أعثر على الشاهد.

....

....

فى مساء اليوم الثالث ناقشنى طبيبى المعالج فيما فعلته خلال الأسبوع. كان الشيزلونج مريحاً رويت له قصة البحث المرهق عن دورة مياه عمومية:

- إنها مشكلة حقاً..

- أفكر أن أكتب مقالاً لصحيفة الصباح عن ذلك، وأخشى أن تعترض الرقابة.

- لماذا تظن أنها قد تعترض؟

- أقرأ صحيفتى اليومية دائماً فى دورة المياه فى منزلى.

- كثير من الناس تعود هذا.

«أغلق الباب بالمزلاج بعد أن أدخل، لا أحد بالشقة سوى قطتى وطفلتى ومع ذلك أصر على غلقه.. وبعدها أبدأ فى قراءة الصحيفة فى أمان تام.

أضحك على نبأ أو تصريح .. وأحيانا أبصق علي صورة أو مقال ، وقد أمزقه وأمسح به مؤخرتي . قائلا : أن كاتبه لا يستحق سوى ذلك . أعبر عن رأيي بحرية تامه، وأخيراً أخرج وأنا أشعر براحة شديدة. أظن أن هذا ما يفعله أيضاً الذين يكتبون على حوائط المراحيض العمومية. إن التخلص من ضغط المثانة والمستقيم شيء مريح جداً. وعندما يفعل الإنسان ذلك فى أمان تام فإنما يفكر أفكاراً عظيمة، ويرى غالباً آراء صائبة. لذلك يكتبها على الحائط».

وافقنى طبيبى المعالج بهزة من رأسه. قائلا: إن الكلام فى الطريق ليس مأموناً.

قضيت خمسة عشر يوماً ألف وأدور على المراحيض العمومية فى المدينة، فى دور السينما والملاهى والمطاعم وبعض المدارس، ومن المؤسف أن الظروف قد حالت دون دخولى دورات المياه الخاصة بالفتيات، إذ أن هذا ممنوع منعاً باتاً بحكم قوانين معمول بها فى مدينتنا. ولهذا فقد نقلت فى نوتة صغيرة ما وجدته من كتابات فى مراحيض الرجال، وقد رأيت حرصاً على وقار هيئة المحكمة ألا أنشر النص الحرفى لبعض هذه الكلمات، ذلك أن نشرها يعد خدشاً للحياء العام. وأظن أن القانون يعاقب على ذلك. وهذا هو النص الحرفى لبعض هذه الكتابات:

....

* إذا أردت أن تقضى ليلة مملكة، كلها حظ وفرفشة مّن مجاميعه. ولكل أصحاب المزاجات فاسأل على «أبو دومة» بقهوة المعلم سماعين الدباغ فى شارع القبيلة المتفرع من شارع كلوت بك.. وأدعى للى دلك على هذا المكان.

(فاعل خير - ١٧/٨/١٩٧٠)

(من دورة مياه ميدان التحرير)

....

* اللى عنده شقة فاضية فيها دورة مياه خاصة بها، يتصل بى فى العنوان أسفله، وله من الله الثواب. مستعد لدفع الخلو لحد مائة جنيه، بشرط أن أدفعه على أقساط كل شهر جنيه. المهم أن تكون فيها دورة مياه خاصة بها وليست مشتركة مع أحد.

(محمد مبارك على - ٣٠/١٠/١٩٧٠)
(٤٨ درب شعلان - تحت الربع)
(من دورة مياه باب الخلق)

....

* الكلب الواطى ابن الكلب (.....).[1] رئيس مجلس إدارة شركة المسبوكات الذهبية حرامى ومرتشى وبتاع نسوان وخمورجى وحشاش، وكل الناس عارفه ده. وإذا كنت مش عارف. فأنا قلت لك. وعلى فكرة عنده شقة خصوصى للهلس، عنوانها (.....) [2] شارع أحمد حشمت بالزمالك، وكل ده على حساب الغلابة.

(اسماعيل حسانين البهنسى - ١٧/٣/٦٩)
(دورة مياه ميدان عبده باشا)

....

* ملعون أبو حصر البول والإمساك.

(حمد الله سليمان - دون تاريخ)
(دورة مياه سينما قصر النيل)

---

١ - حذفت الأسم وغيرت أسم الشركة منعاً للتشهير.
٢ - حذفت رقم المنزل لنفس السبب السابق.

....

* هذه المراحيض عملتها الحكومة لراحة الناس، وليس لممارسة الحاجات غير الخلقية فيها بدفع رشوة للحارس. وأحذر العموم أن بوليس الآداب بيكبسها ساعات. فعيب يابن اللبوءة أنت وهو[٣].

(جرجس بقطر - محضر محكمة قنا - ١٢/٤/١٩٧٠)

....

* ممنوع كتابة الكلام البذيء على الحائط. عيب كده!

(حامد صقر وجدى - طالب جامعى)(٤).

(دورة مياه سينما قصرالنيل)

....

* بذيء إيه ياسى حامد يا ابن الزانية. طب (...) أمك، كفاية أدب بقى.. هما (لاطونا) إلا أننا مؤدبين وزى البنات البكر.. جتك خيبة فى أمك[٥].

(...... بدون توقيع)

(دورة مياه سينما قصرالنيل)

---

٣ - هناك عدد ضخم من المقتطفات يتهم كاتبوه الآخرين ببعض ألوان الانحرافات الجنسية وبالطبع فإن من الصعب نشرها، لأنها تعتبر تشهيراً خاصة أنه لا دليل عليها سوي هذه الكتابات. والحقيقة إن هذا الاتهام متكرر بكثرة وهو يتناول أفراد مجهولين، والعديد من الأفراد اللامعين في مجالات الحياة العامة المختلفة. ويشير التحليل الإحصائى الأولى لما جمعت من مقتطفات إلى أن ٨٣٪ من الذين أدلوا بآرائهم على حوائط المراحيض، يتهمون شخصيات بارزة من الرجال والنساء بممارسة الجنسية المثلية (أى ممارسة الجنس مع نفس الجنس سواء كان لواطاً أو سحاقاً). وهناك ٧٪ اتهموا آخرين (رجالاً ونساء) بأنهم يمارسون الجنس مع الحيوان. و٤٪ اتهموا غيرهم بممارسة اللواط مع النساء و٣٪ اتهموا غيرهم بممارسة العادة السرية، أما الباقى (٣٪) فهي إعلانات للدعارة كتبت علي لسان رجال ونساء يدعون الآخرين لممارسة الجنس معهم. وقد اتهم ٩٢٪ - من نفس العينة محل الدراسة - آخرين بالقوادة والتلذذ بمشاهدة الفسق بزوجاتهم وبناتهم.

٤ - لاحظنا أن «حامد صقر وجدى» المذكور كتب هذه الكلمة فى أكثر من دورة مياه، فكتبها فى دورة مياه ميدان عبده باشا وباب اللوق، وميدان عابدين وسينما الشرق بالسيدة.

٥ - اضطررت لتعديل هذا النص لبذاءته الشديدة، وكلمة الزانية الموضوعة هنا من عندى وهى ترجمة فصيحة للكلمة العامية والكلمة (.....) هى الأسم العامى لعضو التناسل لدى المرأة. كما أن كلمة «لاطونا» هى ترجمة فصيحة للكلمة العامية التى تؤدى معناها. ولم أفهم على من يعود الضمير فى هذه الكلمة.

....

* تحذير عام للكافة من هواة النساء الجميلات.. حافظوا على أسراركم الخاصة ولا ينفلت عياركم فى السكر والحشيش، محتمل يكونوا جواسيس للعدو.. أو أى شيء آخر.. وفى هذه الحالة تجدوا أنفسكم وراء الشمس بسبب فراغة عينكم وحبكم للنسوان.

(... بدون توقيع)

(دورة مياه حديقة الأزبكية)

....

* إلى كل من له بنت أو أخت أو زوجة تلبس الميكروجيب والمينجيب[٦].

تحذير وإنذار بدل ما تسيبوا لحمكم معروض للى يشترى فى الشارع، لموهم أحسن وبذل ما يقعدوا ينتفوا فى وشهم ورجليهم. خلوهم يستعدوا للحرب. ياعالم عايزين نحارب. ياولاد الكلب كفاية مسخرة ومرقعة وشغل (زنا)[٧]. سيبونا بدل ما نقعد نضرب عشرات [٨]. انتوا مش ناويين تحاربوا ولا ايه؟

(مراد ج. ع. عامل نسيج بمصنع)

٦- هنا خطأ إملائى ولعله يقصد الميكروجيب والمينى جيب.
٧ - الكلمة بذيئة ولهذا ترجمتها من العامية إلى الفصحى.
٨- تعبير عامى المقصود منه ممارسة العادة السرية .

10 الشهادة الرابعة
ثعبان الشراقي

لا منجى لكم من الثعبان . تحطمت سفينة نوح . أحرقت النيران كل الأشجار على شاطئ الترعة . وفى الأصيل أكل المنشار أصابع النجار الوحيد فى قريتنا .

فى طيّات الظلمة الكثيفة تبخر النهر ولم يُعد بخرة أمطارا ، وصوت البومة سمع فى أرضنا . مات الزرع وجف الضرع . تشققت الأرض أخاديد طويلة . فوهتها متسعة ، عمقها مخيف ، سكنتها الثعابين ، تحتمى فيها من الأقدام العابرة المنهكة .. ذاك زمن الشراقى .. ولا منجى لكم من الثعابين .

فى غبش الغروب قرأ الشيخ «وهدان» فى مأتم أبى :

– «وقال :

– اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ..

«وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ونادى نوح ابنه، وكان فى معزل :

– يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

«وقال :

– «سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء

قال :

«لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» .

تحركت فى الصدر نغزة حزن مستكن بين الضلوع، مسحت دمعة خفيفة.

تابعت انتفاخ عروق رقبة الشيخ ، وقلت إن انفجارا فى المخ هو الراحة الأبدية لمن كان مثلى . أما الحداد فهو يليق حقا وصدقا بالذين تجمعوا فى مأتم أبى ، يحتسون القهوة ، ويدخنون اللفائف الرخيصة ، ويثرثرون بأنباء الجفاف والأرض العطشى ، وما حدث فى الجمعية التعاونية فأين أنا من كل هذا . عند الضحى وسدناه التراب . لقن «الشيخ وهدان» أذنه الميتة ما يجب عليه أن يفعله .

- «إذا جاءك الملكان فسألاك عن اسمك ، فقل إني عبدالله «عطية ابن السباعى» . وإذا سألاك ما دينك ، فقل اللهم إنى مسلم ، عشت على دين الإسلام ومت وأنا فى زمرة الموحدين . أشهد أن لا إله إلا الله . وأن سيدنا محمدا عبده وآخر رسله .

ودعا الله له بالثبات ثلاثا :

- اللهم ثبِّته عند المسألة ..

- اللهم ثبِّته عند المسألة ..

- اللهم ثبِّته عند المسألة ..

تماوجت فى القلب ذكريات بعد بها العهد ، من لى بمن يدعو لى بالثبات عند المسألة ؟ .. وهل تدركنا رحمة الملاكين المصاحبين ، فيقدمان تقريرا طيِّبا ينقذنا مما نعانيه من تعاسة . ويظل السؤال حائرا فى رأسى المصدع :

- كيف مات الرجل ؟

قالت امرأته وقد ذرفت دمعتين كاذبتين - لذلك كان قوامهما خفيفا - إنه صلى العشاء ، وتلى الورد الأخير ، ودعا الله بصوت خافت خاشع «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك

علىّ وأبوء بذنبى . فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك» . واستغفر ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، ونوى أن يتوب توبة نصوحا . ثم قال :

– اللهم بارك ولدى شوقى ، واغفر له إنكاره ، وتب عليه ، واغفر لى أنى تركته يلقى نفسه بأحضان الكافرين بآياتك ، المنكرين عظمتك ، اللهم ارزقه اية تبدد الغشاوة عن عينيه ، وتمسح الضلالة عن قلبه ، وتعيده إلى رحاب ملكوتك تائبا ونادما .

ثم تلى اسمه تعالى «لطيف .. لطيف» ألف ألف ، وتدثر من برد الشتاء بغطاء صوفى ، وراح فى نوم عميق ، وعند الفجر استيقظ ، طلب شربة ماء. احتساها وراح فى غيبوبة طويلة ، لم يفق منها أبدا ..

تساءلت وساوس قلبى : ترى هل استفزت أنوثة المرأة الريانة الشباب العام السبعين من عمر الرجل ، فعاد يحاول ويحاول ، وانقصف حبل العمر ولم يعد هناك مفر من الرحيل ؟

فى الضحى تحركت طليعة الجنازة . طويلا ومتربا كان الطريق . نظارتى سوداء تخفى عيونا قلقة . قاد النعش خطواتنا . لامست الأرض ، قلت إن قدمى العاريتين قد سارتا فى هذا الطريق قبل أعوام تعب العقل من عدها : فماذا تغير فيها ؟ والأرض بلا زرع فأين الأخضرار الزاهى . وربما هنا أو فى مكان آخر ، جرى الطفل الذى كنته خلف فراشة بيضاء . تنمر لها . ألقى قلنسوته عليها . أمسكها فرحا ، ذاب جناحها الأبيض فى يدى . طارت، لفت لفات قليلة يائسة ، سقطت ميتة .

اقترب «الحاج عيسوى» منى . لم عباءته الفضفاضة . حبكها على جسده:

– البقية فى حياتك يا دكتور ..

شكرته بكلمات متلعثمة ، كان الغياب الطويل قد أنسانى ما يقال عادة فى مثل تلك المناسبات :

– غبت عنا طويلا ..

– الدنيا مشاغل ..

أقدام الرجال تدب الأرض فى صمت مثيرة الغبار .

– أى نعم . كان الله فى العون . كنا نراك أيام زمان ..

يذكر الرجل العجوز كل شئ . كنت انتقل كفراشتى تلك ، فماذا حدث !

– مضى ذلك الزمن يا حاج ..

– أى نعم .. لم نعد نقرأ لك ، وسمعت أنك أغلقت العيادة .

– تكاليفها باهظة والعائد قليل ..

تنحنح بشدة ، بصق إلى يسار الطريق .

– كانت تخدم المحتاج ...

كانت ملتقى لأبناء السبيل ، يدخلونها بأقدامهم الريفية المعفرة بالتراب ، وجلين خائفين ، ويشمئز «عبده التومرجى» ، وتقول عواطف :

– أووف ... !!

– أعلم أن لا بقشيش ولا يحزنون يا «عواطف» ، فلا تزعلى .. أولاد بلدنا .. وفى رقبتى لهم ديون .

– على العين والراس دكتور .

«منافقة من سلالة مهرجى السلاطين» .

– لديكم الآن مجموعة صحية فيما أظن !

– آه .. على بعد نصف يوم بالحمارة .. ولكن !

فى نظرته كثير من الشك فألف لعنة عليه .. كيف يفهم هذا الثور مشاكل

الكون الكبرى ، لو باح صدرها الريان بسر موت الرجل لوجدت حلاً لواحد من ملايين الألغاز التى أبحث لها عن حل . تذكرت إعلانه الغريب لخبر زواجه ..

- امرأة طيبة حقا وأنا أحبها ..

يا شهيد العشق لا دية لك !

سويت الأرض هنا ، هدم معمل تفريخ الدجاج . فى الشتاء كان دافئا . طيبا كان صاحبه. يمر فى القرية بحماره العجوز . يشترى البيض ثم يعود به إلى معمله . نتسلل خلفه ، نتأمل انشقاق البيضة عن دجاج صغير ، أصفر اللون ، خافت الصراخ . يضبطنا . يهشنا . نجلس حوله . تتقافز علامات الاستفهام : كيف تتحول البيضة إلى دجاجة ؟. يضجر الرجل فيلعن آباءنا فى طيبة . نجرى خائفين . فى شمس الشتاء الدافئة ، يدور بصغار الدجاج .

- لا يشترى الملاح إلا الملاح .

خلف جدار المعمل الذى كان، عرفت العبث الجنسى لأول مرة وكنت صغيرا جدا . وكانت العملية مرهقة . انتهت بفشل ذريع . قالت «سعاد» وهى تدفعنى بعيدا :

- أوع بلا خيبة ..

جرت إلى باب المعمل . على الباب كان صاحبه نائما . استيقظ على أقدامنا . هشنا ، عدنا إلى القناة . اصطدنا سمكة كبيرة رأتنا «عزيزة شرف الدين» ، صاحت :

- هات السمكة وخذ قطفا من العنب .

أعطيتها إياها . ناولتنا بضع حبات .. أوقدت نارا . شوتها .

- كيف حالها الآن ؟

الحاج عيسوى :

– تعيش أنت .. ماتت منذ شهور ..

حتى الذكريات المرحة أدركها الغناء ..

– ....

– سيأتى معزون من النواحى الأخرى ولابد أن تستقبلهم ..

...... ضاعف الانتظار اليومين إلى خمسة . الأذن صماء رغم كثرة الكلام . ويوما بعد يوم تحاول الذاكرة تجميع ملامح الماضى، فتهرب .

عند المساء دق باب الغرفة . دخلت . وضعت صينية العشاء على المنضدة، مدت يدها الأخرى بجوار السرير لتأخذ مطفأة السجائر ، رفعت عينى متتبعا يدها ، اصطدمتا بعينيها . نسيت ما كنت أود أن أقول . فى عمق العين شئ ما ، ليس غريبا ولكنه بعيد . قريبة كانت الكلمة التى وددت أن أقولها ، فكيف ضاعت ؟

– ازيك يا دكتور ؟

عرفت صوتها :

– سعاد ؟!.

ضحكة متوترة .

أرسلتها لتشترى علبة من السجائر . شجرة وحيدة صعدت أفرعها إلى شرفتى . نقيق ضفادع . صرير جنادب . وثغاء النساء فى باحة الدار الداخلية يعددن مناقب الميت . نمت وكبرت . يبدو ذلك عجيبا . لكنه ما حدث . لعلها أكبر منى بعامين ..... فى ذلك الزمان البعيد ، كانت أوفر عقلا وأكثر جرأة. وضعت علبة السجائر على المنضدة . همت بالمضى . أوقفتها بسؤال عن أحوالها . ردت ردا مقتضبا .

– كبرت يا سعاد !

بابتسامة مرة :

- كل صغير يكبر يا سيدى ..

جلبابها الأسود يغطى جسدا فارعا ، لفتاتها أمومية :

- مبسوطة ؟

نظرتها قالت أن السؤال لا معنى له . حرت كيف أسترده .

- تزوجت ؟

- هل نسيت يا سيدى ؟!

لهجتها ساخرة :

- ماذا نسيت ؟

أ نت رأسها ولم ترد . تحركت نحو باحة أمام الحجرة . أخفى السحاب الشمس ولم يأت المطر . انحنت تطعم عددا من صغار الدجاج . انهمكت فى ذلك . نسيتنى تماما :

- لديك أولاد ؟

- ..... ولد واحد ....

لهجتها باردة .

أطللت من فوق سور السطح . مقبرة أبى مازالت جديدة ، خطاط ريفى ينهمك فى كتابة بعض آيات القرآن على جدارها . وهى تتحرك خلف دجاجها الصغير ، احتك جسدها بى . لين ، رطب . «أبى لازال بين أيدى مستجوبيه فكيف كان حساب الحسنات . يسير الإنسان وحوله رقيبان ملازمان فماذا كتبا فى تقاريرهما عنه. ويوما كانت «عزيزة شرف الدين» تأخذنا فى خصها هناك عند شاطئ الترعة . تعطينا عنقود العنب الصغير . حصرما كان ، ولكن له لذته.

- ما اسمه ؟

رفعت رأسها :

- شوقى .

الاسم قريب منى ، كما لو كان اسم شخص أعرفه ، جاء صوت من بعيد نادى :

- شوقى .. شوقى ..

تلفت حولى ، أبحث عمن ينادى .. ومن ينادى :

- ينادون عليك يا سيدى .

صعدت إلى السطح . اقترب صوتها منا . وقفت على بابه :

- صباح الخير ..

رددت تحيتها بإيماءة من رأسى .

- الحاج عيسوى ينتظرك .

سبقتنى فى اتجاه الغرفة . ربما تكون زوجتى . تبعتها صامتا . قبل أن تدلف إلى الحجرة أصدرت أمرا لسعاد . لم أفهمه . تأملت كل منهما الأخرى .

- نمت طويلا أمس .

- .. كنت مرهقا .

فتحت دولابا فى ركن الغرفة . أخرجت جلبابا ومعطفا . خلعت بيجامتى. ارتديتهما صامتا . سألت :

- ألن نسافر ؟!

حيرنى السؤال : لماذا تجمعنى معها فى سؤال . قلت :

- آه .. بعد أيام .

تقدمتها نازلا . تبعتنى فى صمت . استقبلنى مرحبا . بعد لحظة ، كنا فى الشارع . تعرف عينى حيطان البيوت ، وتعرج الأزقة والحوارى ، ولكن

أين خفقة القلب الصغير ؟ . فى الأمسيات هنا . لعبنا مرات لا تحصى ، وسمرنا أيضا . ومرة حكت سعاد قصة سمعتها من جدتها عن «أمنا الغولة» ، عجوز حيزبون ، طويلة الشعر مهوشته ، براقة العينين تشعان نارا ، تأكل الحمل الصغير ، والطفل الوليد ، وتظهر فى ظلمات الليالى ، ليلتها خفت من الظلام ، وظهرت نواجذها خلف أى منحنى ضيق :

– ما العمل فى مسألة المياه ؟

هل يسألنى أنا .. وما شأنى ؟

أرض الطريق جافة هى الأخرى ومتشققة . كوخ عزيزة شرف الدين :

– مرضت ؟

– آه ... سل بعيد عنك !

اجتذبت شقوق الأرض الجرداء نظرتى السارحة .

قال الحاج عيسوى :

– نحن فى أيام الشراقى . الأرض عطشانة . سيأتى الماء بعد أيام قليلة .

وشقوق القلب متى تلتئم ؟

....

ألقيت السؤال على «مرفت السويفى» ، وكنا نشاهد مسرحية عبثية فى مسرح الجيب .

– أنت تتقمص الشخصيات التى تقرؤها أو تشاهدها !

– هذا تبسيط للمشكلة ، وبمثل هذه الكلمات يمكن أن نحل كل شئ .

فى عينيها السوداوين لمعة تفكير . تساءلت عابثة :

– هل كانت نفيسة المرادية جميلة ؟

مررنا إذ ذاك بعسكرى ، تفرس فينا لحظة :

– .... أظن ذلك . ولكن «شهد دار» كانت أجمل بلا شك !

سمعت بلا ملل ، فهل يستطيع هذا الجلف أن يفهم بعض هذه الحكايات..

....

مضى يتحدث عن الجفاف :

– مشكلتنا مع الماء مشكلة طويلة . وقد تأخر عدة أسابيع عن موعده ، ولذلك تشققت الأرض كما ترى .

سمعت بنصف وعى ونحن عائدان .

صلبوه ونحن أطفال صغار فى دوار العمدة . ربطوه إلى نخلة طويلة هنا ، أكل السوط فى لحمه ، حفر فيه أخاديد طويلة . فكرت أن أسأله عن تفاصيل الحكاية ، بيد أننى عدلت ، فمن المؤكد أن رجلا عجوزا مثله سيخجل من ترديد هذه الذكريات المؤلمة . كان الطريق من المقابر إلى القرية خاليا . امتلأت باحة المنزل فى الليل بالمعزين ، قال عيسوى :

– لابد أن تبقى هنا يومين أو ثلاثة .

نظرت إليه بضيق .

تنقلت أقدامى خفيفة تحاذر أن تقع فى الأخاديد العميقة التى شقت الأرض . على البعد كان مجلس الرجال .

– يتحدثون هناك فى المشكلة .

عن المياه تحدثوا : الأرض العطشى والزرع الذى اصفرت أوراقه.

تعجبت مما يقولون :

– ولكن السد العالى أنهى المشكلة ؟ . أليس كذلك ؟

شرحوا وأفاضوا عن الترعة البحرية ، وفم الرياح ، وأشياء من هذا

القبيل ، فهمت القليل . رجال خشنوا الوجوه والعيون . كنت ظمآنا بشكل لم أتعوده من قبل . تقدمت إلى الخص .. وجدتها هناك . سعاد الصغيرة . تقف أمام الخص. مسحت صورتها ، بعض تشتت الذهن وراء المستحيل . صبوحة الوجه كانت ، لسانها ألثغ . مرة تحدثت عن عصفور صغير تنوى اصطياده ، فشلنا يومها . سرقنا الخوخ من حديقة صغيرة على شاطئ الترعة ، وجرى الرجل خلفنا فأدركنا . ألمحت إلى الماضى . قالت :

– مازلت تتذكر ؟

رابتنى لهجتها :

– تتحدثين كأن النسيان قد طال أشياء أخرى ؟

مليئا حتى الحافة كان القلب . تحدثت «سعاد» عن «السيدة» بلهجة نحاسية. فكرت فى أن حديثها عن زوجتى بهذه اللهجة لا يلائم الاحترام الواجب . ضحكت من نفسى . قالت زوجتى :

– أحوالك غريبة ! ألا تريد أن نعود ؟

– ربما .. قريبا ..

نظرت من النافذة إلى القبور فى الطرف الآخر ..

– مضت أسابيع . كما أننى هنا قبل ذلك بأسابيع .

– يتحدثون كثيرا عن الأرض العطشى ، وقد يفيد وجودى .

ابتسمت ، مرقت قطة تحت أقدامها . جلست . أخذتها على حجرها . ربتت على رأسها . أخذت تدلك لها رقبتها . استنامت القطة إلى أحضانها .

– هى أيام الشراقى العادية . وسوف تأتى المياه ..

– تأخرت كثيرا .

– مجرد خيالات .

تركتها القطة . خرجت . وقفت أمام المرآة . مشطت شعرها . كانت فى جلباب نوم ريفى بديع التكوين على الصدر منه زخارف ساذجة . تأملتها طويلا . قلت إنه محكم الصنع . يصد يد المتلصص ، وتتوه العين فى زخارفه فلا تدرى أين حدود الثمار وأين حدود الجذع . جلست بجوارى على السّرير . وسدت رأسى ذراعيها .

– رأسى مصدع ، وحتى الآن لم أفهم أصل المشكلة رددوها كثيرا بيد أننى لا أملك التركيز الكافى .

– لم تعد تهتم بشئ .

– ... وأمس طمح «الحاج عيسوى» فى أننى قد أستطيع أن أكتب شيئا فى الجريدة ، يساعدهم ، ولكنى لم أتابع الموضوع ، وكدت أقترح عليه أن يقيم صلاة استسقاء .

....

لحظتها كان يشرح بإفاضة شديدة ، يشير إلى الأرض العطشى ونحن جلوس على كوم من التراب ، تحدث عن سنة الجوع التى سوف تهل إذا تأخر الماء . قادتنى «شهد دار» من ذراعى ، دخلت بى قصرها بالقرب من قنطرة الليمون ، طالبتها أن تغنى لى أغنية :

– هذه سنة بلاء ، لم يوف النيل بعد .. والناس فى حيرة وكدر ، فكيف أغنى وجرحهم طرى .

تحلم الآن بنغمة مطربة . ألححت عليها . قادتنى إلى الشوارع . فى الظل يجلس السّقاؤون وبجوارهم قربهم بلا انتفاخ . المدينة فارغة . واليوم قيظ . إلى جامع عمرو بن العاص قادتنى . تحدث الخطيب عن فساد القلوب والشر الذى ملأها حتى فاض ، وطالب الكل أن يطهروا قلوبهم من المرض كى يرفع الله نقمته وغضبه ، وترتفع المياه فى النهر . ودعا الله أن لا يأخذنا

بما يفعل السفهاء منا . وألا يحمل علينا إصرا حمله على الذين من قبلنا ، وتمتم الكل «آمين» .

تحدثت «شهد دار» بعد الصلاة عن سنوات البلاء الآتيات ، قلت لها :

– غن .

قالت :

– أما علمت بما حدث فى أيام الشدة المستنصرية ؟

– وما حدث ؟

– آه ... كانت سنوات جوع .. أكل الناس الميتة والكلاب والقطط ، حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير ، وبيع كل قط بثلاثة دنانير ، وقيل كان الكلب يدخل إلى الدار فيأكل الطفل الصغير وهو فى المهد وأمه وأبوه ينظران إليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة . ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه أحد ذلك . وصار الناس فى الطرقات إذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله .. وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب فى أسرع وقت ، فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه ، وقيل إن الوزير أمر بشنق شخصين ذبحا بغلته وأكلاها ، وعلقوهما على أعمدة الخشب فى ميدان الرميله . فلما أصبحوا فى الصباح لم يجدوا أحدا من المشانيق . أكلهم الجياع وهم فوق الخشب ، ولم يبق منهم غير العظام على الأرض..

صمتت قليلا ، يختنق النهار على مدى البصر ، بدت القاهرة والفسطاط وعليهما غبرة موت ، أردفت :

– وخرجت امرأة من أهل اليسار ومعها عقد من الجواهر قيمته ألف

دينار عرضته على جماعة من الناس ليعطوها عوضا عنه دقيقا ، فصار كل واحد من الناس يعتذر لها فى عدم الدقيق . ثم أن بعض الناس عطف عليها وباعها بذلك العقد دقيقا ، فأخذته فى كيس إلى باب زويلة حتى تكاثرت عليها الناس فانتهبوا ما كان معها من الدقيق ، فأخذت منه بجملة من الناس ملء يديها دقيقا ، عجنته رغيفا وخبزته . فلما خرج من الفرن أخذته على جريدة وتوجهت به إلى قصر الزمرد ووقفت تحته . ونادت بأعلى صوتها، ورفعت الرغيف وقالت :

– يا أهل القاهرة .. يا أهل بولاق والفسطاط ، ومصر القديمة .. ادعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله ، الذى أكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار .

....

– سألتنى المرأة التى اجزم الآن بأنها زوجتى: هل اقترحت عليه أن يقيم صلاة استسقاء ؟

نظرت إلى عينيها ، ليلهما كان حالكا .

– لا بالطبع .. قد يضحك منى .

فى عمق العين لحظة رغبة ، عرفتها بطول الخبرة ، هذه سنوات جوع . لم تحركنى النظرة كما كان يحدث فى سنوات الفيضان. فى أى أنحاء الغرفة توجد الكاميرا السرية : فى هذا العمود من السقف أو تلك المرآة ؟ . ربما فى قلب المصباح البترولى الصغير . ونحن فى الفراش تتباعد الحوائط. من الشوارع والمقاهى القريبة يأتى رجال متعددون ، معهم مقاعدهم ، يجلسون حول فراشنا ، يطلون علينا فى استغراق تام . وبينهم أراه ، بعينيه المتفرستين ، ووجهه المنتفخ ، ويحتج الذين فى الخلف لأنهم لا يرون جيدا ، فيطالبهم بالسكوت ، إذ ذاك كانت يدى التى تعابث صدرها تتوقف . تشل .

يدها تلمس رقبتى ، تتحسس صدرى ، عند البطن يصطدم بذلك الغطاء الكثيف من المشمع .

– لازلت تضع ذلك الغطاء ؟

– هذا أفضل .

مدت يدها معابثة تحاول نزعه ، صرخت بشدة .

– .... الجرح يؤلمنى .

– هو قديم جدا .

– كلما التأمت الأنسجة ، عادت فتمزقت ..

ربتت صدرى بحنو . أعطتنى ظهرها متظاهرة بالنوم . وصوت نشيجها يعكر الصمت . ولكن صوت الرجال الذين أخذوا يسحبون مقادمهم منصرفين فى تأفف غطى عليه . حين تأكدت تماما أنهم انصرفوا ، سحبت الغطاء على رأسى ونمت .

غابت الشمس وراء سحابات ثقيلة . أسراب كثيفة من العصافير تطير فى اتجاه الغرب . فكرت أن أسافر . لم أتخذ قرارا نهائيا . القناة جافة تماما . مياه قليلة فى قاع النهر تتقافز فيها بعض الضفادع . جلست على حافة المزارع ، أرسلت بصرى خلف الشمس المتوارية فى السحاب ، منتظرا أن تتكشف الغيمات عن الضوء . طال انتظارى . لمحت شبحا هناك عند بداية القناة . لم أستطع أن أميزه ، بصرى ضعف ، انتظرت حتى تقدم إلى الأمام . «الحاج عيسوى» . قادنى من يدى . تقدمنا داخل الأرض :

– يحزننى عطش الأرض .

– غدا تأتى المياه ..

تنهد ممرورا . فكرت أن حزنه ثقيل . أتراه قد نسى تلك الأيام الماضية . ألح على شعور طاغ بأن أفاتحه بالموضوع . جبنت فى اللحظة الأخيرة . ثبت بصرى على شق طويل . تنبهت إلى حركة متماوجة تحدث داخله . دققت البصر فيه . بعد لحظة أطل منه رأس ثعبان ضخم . أرعبتنى نظرته . قذف الحاج بطوبة صغيرة . اختفى الثعبان بين الشقوق. قال :

- ثعبان شراقى .. هذا مخبأ آمن .

....

تحدثت «مرفت» عن ليالى السويس المرحة ، فكرت فى أن أجابهها بما اكتشفته فى ذلك الصباح أثناء بحثى عن تاريخها بدار المحفوظات بالقلعة . كثيفا كان السحاب لذلك لم أتكلم . أطل الثعبان برأسه من الشق. حلقى جاف ومتشقق ، ولكن المياه الراكدة القليلة لم تكن تصلح للشرب .

ويوما قالت مرفت :

- اختفى السفروت من مدة !

- سافر .

- إلى أين ؟

- لا أدرى .

ضحكت فجأة :

- تعودت أن أراكما معا ، حتى خيل لى أنكما شخص واحد !

- صحيح ؟!

- إشاراتكما واحدة ، وخاصة إيماءات اليدين !

بعد لحظة :

- لا تؤاخذنى ، أحيانا تبدوان كدكتور جيكل ومستر هايد .

التفت خلفى تحت وطأة الإحساس بأننى مراقب . وأن عينين تندسان فى ظهرى . انغرست نظرته فى عينى . قبضت على يدها . اختفيت بها فى مدخل عمارة قائمة . همت أن تتكلم ، منعتها نظرتى . عصرت كفها بكفى . خطوات الرجل ترن فى الصمت المحيط بنا .

بعد أن مضى :

- ماذا حدث ؟

- لا شئ .. رجل من إياهم ..

تابعت ظهره المقوس وهو يختفى عند المنحنى .

- ولكن ملامحه تبدو عجوزة . ويبدو أجنبيا ..

لم أرد .. لم أكن متأكدا بأنه هو .. لكن الحقيبة الضخمة التى يحملها تتضمن لاشك وثائق وأفلاما عن تاريخ حياتى» .

....

فى طريق العودة زرنا قبر أبى . وقف الحاج عيسوى يقرأ الفاتحة تمتمت ببضع ألفاظ . أشار إلى قبر مجاور .

- هنا يرقد صابر ..

- صابر من ؟

- ناظر الوقف .

ضاع من الذاكرة كل شئ ، الوقف وناظره :

- طلب أن نغفر له قبل أن يموت ، فتعال اقرأ الفاتحة ترحما عليه .

يبدو شيئا مضحكا بلا شك أن اقرأ الفاتحة على روح رجل لا أعرفه، وأكثر إغراقا فى الضحك منه أن يطلب غفرانى ، هو ما يجب أن أكتشف

سببه (١) ، قرأت الفاتحة .

ونحن عائدان إلى القرية . وقف الحاج أمام كوخ من البوص على حافة الترعة .. قال :

- خص عزيزة شرف الدين (٢) ..

ونادى :

- بنت يا سعاد .. سعاد ..

خرجت من داخل الكوخ بقامتها الطويلة .. تأملت بشغف ملامح الطفلة التى كانتها يوما ..

- اعملى شايا ..

١- عثرت فى مجموعة قصاصات صحف احتفظ بها بعد عودتى إلى المدينة على قصاصة من جريدة «المصرى» بتاريخ ١٩٥١/٨/٢٧ تحت عنوان «عناصر مشبوهة تدعو الفلاحين للتمرد فى قرية» تقول فيها الجريدة «علم مندوب المصرى أن شكوى هامة قدمت أمس إلى معالى فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية من «صابر محمود سراج» ناظر وقف السيدة «حفيظة هانم الألفية». ذكر فيه أن طالباً بكلية الطب يدعي «شوقي عطية السباعي» قام بتحريض الفلاحين علي عدم ترك الأراضي التي طلب الناظر المذكور منهم إخلاءها. ثم قادهم في مظاهرة مسلحة، حيث حاصروا بيت الناظر المذكور في ناحية «بشلا» مركز «ميت غمر»، وهتفوا بسقطوه وحرقوا المنزل. ورغم ذلك تمكن الناظر بمساعدة عدد من خفراء الوقف من الهرب حيث أبلغ وزير الداخلية. وقد ذكر الناظر المذكور في بلاغه أن عاملاً من أبناء القرية يدعي «إسماعيل حسانين البهنسي» ويعمل «بكومبانيه» النور بمدينة «ميت غمر» شارك المتهم في تحريض الفلاحين، وقام بمعونة بعضهم بالهجوم علي مكاتب الوقوف القريبة واحتلوها لمدة ساعتين، ومزقوا الكمبيالات التي تتضمن ديون الفلاحين علي الوقف والتي كانت فداحتها وعدم سدادها السبب في طردهم من الأرض. اهتم معالي الوزير بالشكوي، وأمر بأن يقوم أحد مفتشي الوزارة بالتحقيق في الأمر، كما أبلغ الأمر لسعادة النائب العمومي الذي أوفد أحد رؤساء النيابة لنفس الغرض.

٢- عثرت أيضاً علي قصاصة أخري بتاريخ ١٩٥١/٩/٣ جاء فيها «استأنفت النيابة العامة التحقيق في قضية التحريض علي التمرد التي أشرنا إليها في الأسبوع الماضي وقد نفي المتهمان «شوقي عطية السباعي» و«إسماعيل حسانين البهنسي» علاقتهما بما حدث. وشهد عدد من نساء القرية بأن المتهم الأول لم يزر القرية منذ فترة طويلة ومن بينهن بائعة فاكهة تدعي «عزيزة شرف الدين» وفلاحة تدعي «فريزة بنت عبدالباسط» بينما شهد ناظر الوقف وخفراؤه بأن المتهم كان يقود المظاهرة بنفسه وقالت الشاهدتان أيضاً أن المتهم الثاني «البهنسي» يقيم في البندر ولا يزور القرية إلا لماماً. وأنه لم يكن موجوداً يوم الحادث.

كوخ عزيزة شرف الدين : نفس الأرض . الحصيرة الصغيرة . قليل من البرتقال فى «مقطف» بركن المكان . وذباب يلتصق بكل شئ . خرجت لغسل علبة الصفيح الصدئ ببقايا الماء فى قاع القناة .

انتقى الحاج مكانا على مبعدة . رفع يديه مكبرا . بدأ الصلاة . عادت تشعل النيران ..

– تعيشين وحيدة ؟

– مع زوجى ..

– من ؟

بضيق :

– بدوى .

تصدمك الأسماء كأنها من عالم الموتى تأتى ، تلقى بالاسم كأننى عرفته طول العمر . كل ما فى الكوخ لم يتغير ، هنا كانت تجلس عزيزة ، وعلى هذه الحصيرة القديمة تنام . لحظة تذكار باهتة الملامح تومض وتغيب فى الزحام . هل جئت هذا المكان يوما بعدما ولت سنوات الطفولة ؟. ومتى كان ذلك ؟. جسدها الملتف بالسواد يبدو أليفا ، كما لو كنت رأيته يوما ، وهذا التكور عند الصدر ، تبدو به آثار رأسى المصدع ، كأننى توسدته يوما .. وربما فى هذا المكان نفسه .

– ورثت هذا الكوخ من عزيزة ؟ بصوت غاضب :

– إنه ملك بدوى !

– ولكن عزيزة كانت تسكن فيه .. بنفس اللهجة :

– تزوجنى بعد وفاتها (٣) ..

٣– تبينت فيما بعد أن خطاباً ورد لي من والدي بتاريخ ١٨ يناير جاء فيه أن بدوي المذكور كان متزوجاً من «فريزة عبدالباسط» التي ماتت بالسرطان الذي أصابها في ثديها بمستشفى القصر العيني. ودفنت بمقابر الصدقة. وأرجح من مقارنة هذه المعلومات أن بدوي قد تزوج النساء الثلاث «فريزة» ثم «عزيزة» ثم «سعاد» علي التوالي.

صمت . شعرت بإرهاق شديد ، وقفت على حافة القناة . يصلى الحاج عيسوى الركعة الثانية . اطبقت الشمس الغاربة على الحقول نادت :

– شوقى .. واد يا شوقى ..

قفزت عينى إلى الطريق تستقبله ، تصاعدت خفقات القلب. فآلمت الضجة طبلة أذنى. خرج من دغل بوص قريب . تقدم نحوها وهو يقول : جاى يا أم ..

هو أنا .. أنا هو. ولكن كيف خلق هكذا ؟ . من ركب هذه الخلقة المرعبة : العين مكان الفم . الفم مكان الأنف . الأنف يطل من الجبهة . بلا آذان . وأين الأسنان . من أى مكان جاء . أى بطن ولدته . أكانت لحظة نشوة ؟ ولماذا لا تحمل النساء إذا ضربن بالسياط . يسألون عن الشياطين . إليك يا قاضى دليل على أن القانون ناقص ومبتور . متى رأيت نفسى هكذا : فى مرآة بمدينة ملاهى ؟. فى زنزانة بالفلاة؟ . انطبع ما بسطح بطنك على ملامحه. أى ليلة مرعبة صنعت هذا الأحدب المعذب المسكين ..

سلم الطفل على، وقفت هى على باب الكوخ، فى عينيها نظرة قاسية لم استطع ترجمتها.. شقت صرخة فضاء المكان. ترك الحاج صلاته وجرى فى اتجاه الحقل..

قال صوت:

– الثعبان يا آبا الحاج..

– ماله؟..

– لف نفسه على ساق الواد بدوى، كان سائراً فى الأرض فغرست قدمه فى شق فالتف الثعبان عليها.

دخل الصارخ من الخارج. حمل جرة ضخمة مملوءة للحافة بالمياه وانطلق يجرى بها.

كانوا هناك يسقون الشق بالماء وكان آخرون يجرون ومعهم دلاء مليئة بالمياه.

الحاج مجيباً على نظرتي المستفهمة:

- بمجرد أن يشعر الثعبان بالماء سيترك القدم ويسبح فيه آنذاك يسهل اصطياده.

حث الخطو في الطريق إليهم. تخلفت على مقربة من باب الكوخ. جرى الصبي في المقدمة. كانت «سعاد» تجمع الأشياء لتنطلق، اعترضت طريقها. دفعتها إلى الكوخ، حاولت أن أحتضنها. دفعتني بعيداً، اجتذبني مس جسدها. عاودت المحاولة، دفعتني بعنف، شعرت ببرودة شديدة. قلت:

- تذكرت كل شئ.. هذا المسكين هو ابننا.. حدث ذلك ونحن أطفال.

- أنت مجنون.

- كنت صغيراً وأنت كذلك فكيف حملت به وأنت طفلة؟

- مجنون..

- كانت نشوة غامرة فلماذا ظهر الطفل مشوهاً هكذا..

دفعتها هذه المرة كانت صلبة وقاسية. خرجت تجري.. قبل أن تغيب التفتت إلي.. قالت بصوت عال:

- «البهنسي» في مستشفى المجانين.. هل زرته؟

وقفت وحيداً.. والرجال هناك يسقون الأرض العطشى بما تبقى من مياه. تغطس الشمس الغاربة عند حد الأفق حيث يثوى قبر أبي.. وصوت «الشيخ وهدان» يخترق صمت المغارب:

«ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. قال : يا نوح إنه ليس من أهلك. إنه عمل غير صالح، فلا تسئلن ما ليس لك به علم. إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

١١

الوثيقة السادسة

طبعة مصورة من كتاب رجوع الشيخ إلى صباه في القوة والباه

قلت إننى« سأجده. حتما سأجده. لا تهز رأس اليأس يا قاضى. وأنت أيها السياف مسرور، أبعد سيفك ونطعك عنى، ألتمس التأجيل من عدالتك يا سيدى القاضى.

أنا أبحث عن شاهدى الأساسى، قطتى تؤيدنى. ابنتى تباركنى. الدموع المتحجرة فى العيون. لحظات الإشفاق فى قلوب الأمهات كلهم معى. أما النسيم والبحر والاخضرار فمعى شهادات مكتوبة وموثقة فى محكمة العدل الدولية بلاهاى، بأنهم جميعا فى صفى، فمن أستخبر بعد هذا؟: سراديب الليل؟ شقوق الأراضى؟ لحظات الكراهية؟

.. أما الليلة فكانت شاتية مظلة. كعادتى كنت ملولا. سألت رجلاً فى الطريق عن الساعة. أخرج من جيب جلبابه ساعة بسلسلة وظرفين، فتحها. قال:

– الساعة الآن الرابعة.

نظرت للسماء.. قلت:

– فكيف غابت الشمس؟

أعاد الساعة إلى جيبه:

– إذا لم يعجبك هذا، تستطيع أن تسأل غيرى.

عجوز جداً كان:

- ساعتك مختلفة مع الجميع.

برقت عيناه رغم كبر سنه :

- ساعتى تؤخر يوماً كاملاً، وتسير بالتوقيت العربى.

مضيت. سألقى الرجل الذئب. حتما سألقاه. شاهدى الوحيد على أن العذاب لم يكن وهما. وأن لحمى لم يشوه فى الخيال. فإذا ضاع فإن السيف والنطع ينتظران.

عبرت الميدان الواسع، تأملت صفوف الكتب المتراصة على سور الأزبكية. قلت إن على أن أبحث عن أقدم كتاب لأقدمه كوثيقة لقضاتى.. فى الغورية والصنادقية استنطقت الأماكن لعلها تروى تاريخها غير المسطور. شممت الأرض التى مشت عليها صديقتى شهد دار بحثت عن قبرها بباب النصر. سألت جيفة فى الطريق:

- كيف حال فتنتها..

كادت عربة تدهمنى، ناولنى موزع إعلانات إعلاناً. قرأته:

«إذا أردت أن تقضى ليلة. كلها حظ وفرفشة من مجاميعه. ولكل أصحاب المزاجات فاسأل على «أبو دومة» بقهوة المعلم اسماعين الدباغ بشارع القبيلة المتفرع من شارع كلوت بك.»

دعتنى رائحة الماضى فى الشارع الذى بدأ وكأنه بعض حفريات التاريخ. استظللت بأعمدته المزخرفه واسقفه المقوسه من الظلمة والخوف. ماذا وراءك يا أبا دومة، وأى سعادة تعد؟

رجل غليظ يكتب على الحائط.

- ممنوع التبول بأمر من المحكومة.

اقتربت منه :

- لماذا تمنع الحكومة التبول؟

- مزاجها.. هى حرة..

- من أنت حتى تكتب هذا ؟

- من أنت حتى تسألنى؟

- أنا سألت أولاً فأجبنى.

أدار ظهره كاتباً على الحائط. خطة ردئ.

- لم تجب على سؤالى؟

بشراسة:

- أى سؤال؟

- لماذا تمنع الحكومة التبول؟

صاح مغيظاً:

- امش من هنا وإلا بت فى «الثمن» (1)

الشوارع المرصوفة بالبهجة والمسرات طلوها بالقار. أين ذهبت أيام النشوة والحب؟. البيوت كابية مظلمة. ستضيع الليلة إذا لم أحسن استغلالها. الحنين جارف للحظة مسرة. فهل تعد بها هذه البواكي التاريخية، داخل الأحجار أو بين طيات الظلام الدامس. تقول اللافتة «شارع

١- يطلق الناس أسماء متعددة علي أقسام. ففي زمن قديم كان يطلق عليه «التمن»- وتنطق بعد قلب الثاء إلي تاء - وسبب التسمية أن المدينة كانت مقسمة إلي ثمانية أقسام فقط. أما الآن فإن بالمدينة أكثر من عشرين قسماً. وتقول إحصائية غير موثوق بصحتها أن خدمات الأمن قد تقدمت وأصبح لكل مائة فرد من السكان رجل أمن واحد وهي نسبة متقدمة جداً إذا ما قيست ببقية الخدمات فإن نفس الاحصائية - وهي مشكوك في دقتها كما ذكرت - تقول أن نصيب الفرد من الخدمات الطبية مثلاً طبيب واحد لكل عشرة آلاف من السكان.

وجدير بالذكر أن صحفياً كتب مرة مقالاً يقترح فيه العدل في توزيع الخدمات بنقل عدد من العاملين في جهات الأمن إلي جهاز الخدمة الطبية، لتحقيق التوازن المطلوب في كثافة الخدمات، وأظن أن هذا المقال لم ينشر. ومن ناحية أخري فإن عدد الجرائم لايزال فى تصاعد مستمر. وهو ما كان مثار عجب شديد للكثيرين.

القبيلة»: إلى يا أبا دومة. الظلام خانق والبيوت متلاصقة ومتزاحمة. فى هذه الدكاكين كانوا يمارسون الحب. فكيف أقفرت دنيا النشوة ومن لى بسفينة نوح. واجهة الدكان. تلتقط عين التائه لافتة «قهوة المعلم اسماعين الدباغ».

امرأة سمينة خلف المنصة، كفها رخصة، سلمت بشوق رافعة مبسم الشيشه، بدفقات من الدخان قال لسانها:

- «أهلاً وسهلاً»:

حاذر أن تغوص الأقدام فى الرمال.. أو تغوص الأصابع فى تلال الشحم المحيطة بعظم الحوض، واسمها نكتة سخيفة: «ليلى».

سألتها: العامرية؟ . لم تجب على السؤال الذى لم تفهمه. يا أولاد الكلب الشعراء، ضبطتكم، كالعادة، متلبسين بالكذب، وسأخطب من فوق جبل أردافها سائلاً الزمن عن سر أفعاله القبيحة:

- شرفتنا.

- الله يشرف مقدارك.

انحنى فتى أمرد مكحول العينين:

- كونياك.

لمعت عيناه الجميلتان بنظرة صد.. ردت المعلمة:

- لا نبيعه.. ولكن يمكن أن نطلب لك.

بإشارة من يدها انصرف. سحبت أنفاساً من الشيشة. قالت أذنى إنى جائع للسمر. حدثتنى عن سنوات العز الغابرات: شعلة ضوء كان الشارع: غناء ومرح وسكر. عراك وتشاجر وصبوات فتوة. شبق ينز وأنهار من الخمور، وغلالات تنحسر عن جوار وحوريات،، وولدان بالمباخر، ودعنى أدخل فى ليلين شعرك والدجى، وألثم كالصبح المنور فاك، واسقنى من حلو لماك يا غصين البان كالبدر، ولكن أين قدك المياس يا عمرى؟

إلى بالحذاء، قفوا صفاً واحداً يا شعراء الكلب، والعقوا نجاسة خيالكم الردئ!

- ... وأحبنى مشايخ وقسس وحاخامات.

«قفوا فى الصف مع الشعراء».

- والمعلم سماعين؟.

نظرة شوق عمرها نصف قرن، فأديروا أدباركم يا أولاد الكلب الشعراء.

- كان ذكراً لا ككل الرجال.

«أله وجه ذئب؟. أجاحظ العينين هو؟. وشاربه: أهتلرياً كان»؟

- تعرفين مرفت السويفى؟

- أأنت مخبر؟

بصقت على الأرض..

- لا تغضب.. أحياناً يرغبون فى زيادة الأتاوة، فيرسلون من يضايقنا..

- كنت أسأل عن «مرفت السويفى»..

- الأسماء كثيرة..

جاء الفتى بالكونياك.. وهز ردفه بين عينى.

رفضت دعوتى بنظرة:

- طبيبى داعر على المعاش.. حرم على الخمر.

كذبت كفها لسانها فازدردته الكأس.

«يا أولاد الفريسيين، بأى خمرة أنتشى وقد أكلتم كبدى نيئاً».

بائع بخت مر بين الموائد يحبس فئراناً بيضاء فى قفص على منضدة البخت. تلتقط بأسنانها أوراق الطالع..

قالت:

- لا يعرف اسمى الحقيقى سوى رجل واحد لا أعرف له اسماً.. نمت

معه مرة واحداة لا تغادر مسرتها القلب.

حكت عن رجل أسطورى «قوى وطيب وحنون.. كان يسعى إلى نشوتى لا نشوته. طالبته أن يناديني باسمى. لو لم يفعل لمت كمداً. حين نطق لسانه اسمى، سال شلال المسرات فغمرنى». قلت:

– افتح علينا يارب ببعض ما فتحت به عليه.

نافخة الدخان من نرجيلتها. ضربت بالكف صدرى. قالت:

– أدركنى اليأس من ربع قرن!

– الدهن فى العتاقى..

– كذاب وابن هرمة..

خفت لذعة الشراب. تراقصت النشوة فى أمعائى. دخل من باب المقهى. هو نفسه بجلبابه الطويل. بقامته الضخمة ولحيته الشهباء. وأين ذهبت ساعته التى تؤخر يوماً وتمشى بالتوقيت العربى، نقل خطواته بحرص. تلفت باحثاً عن شئ. جلس على مائدة قريبة. تابعت الفتى الأمرد وهو يضع كوباً من الشاى الثقيل أمامه. اختفت المعلمة. اكتشفت ممراً صغيراً بجوار المنصة. تبادلت مع الرجل العجوز النظرات. نقل شرطى خطواته أمام المقهى. فى لحظات نبتت.. كأنها ولدت من باطن الأرض. بلوزتها رخيصة وكذلك الجونلة. لا زينة ما عدا كحل ثقيل. وقفت مع بائع البخت تعابثه. ضحكتها عريضة. قدمت له قطعة نقد صغيرة. حمل فأره الأبيض وقرب فمه من أوراق البخت المصطفة على المنضدة. التقط الفأر واحدة منها تناولتها من فمه. فتحتها. نظرت فيها حائرة. اقتربت منى:

– اقرأ

- ما أنا بقارئ.

- لابد أن التعميرة من سيدنا الحسين!

تصاعدت شياطين العبث. أشرت على المقعد الذى غادرته المعلمة.

- اسمك؟

- عزيزة.

- الحقيقى؟

- عزيزة.. عزيزة شرف الدين.

- هل أنت من بشلا دقهلية!

قالت بحيرة:

- لا أعرف لى أماً ولاً أباً.. اطلع بباقى التعميرة!.. واقرأ البخت!

ضحكت لخاطر شيطانى:

- يقول إنك مدعوة لشرب كأس من الكونياك مع شاب طويل، وسيم نوعا ما، ثم العشاء والنوم والذى منه.

«نسيت أن أقول إنه حزين حتى النخاع، ووحيد، ويبحث عبثاً عن حائر السؤال».

بابتسامة ممرورة..

- غير هذا؟

قرأت ما كان مكتوباً فى الورقة الأصلية. أعادتها إلى بائع الطوالع. احتست كأساً قدمته لها.. قامت.. تابعت خطواتها الرشيقة الخفيفة. فكرت فى أنها قد لا تعود. أهى تلك الفتاة التى التقينا بها هناك فى حديقة الأطفال. نظر إلى الشيخ العجوز الجالس على المنضدة المجاورة. رفع يده

محيياً حتى لا مست عمامته:

– تفضل.

انتقل إلى منضدتى:

– أأطلب لك شاياً؟

تفرس فى:

– شربته الآن تواً.

إلى زجاجة الكونياك. أشرت. قلت:

– ليس لدى سواه..

«احتسى الكأس فى جرعة واحدة، فلماذا لا تزملوننى؟»

– لا بأس. ولو أنه لاذع الطعم، ولكن هذا شأن الخمر الجيدة. لا تصدق الذين يزعمون «الويسكى» و«الكورفوازييه» و«الشمبانيا» هى أفضل المشروبات. هذه كلها أشياء كالماء الممزوج ببعض الروائح. وهى فاتحة شهية لا أكثر. ومرة فى جزيرة «تاهيتى» قدموا لى شراباً من عصارة بعض النباتات فظللت ثلاثة أيام أحلم حلماً لا يتصوره عقل.

تدفق فى الكلام. هممت أن أقاطعه. تكاسلت. رفع الزجاجة إلي فمه متجرعاً.

مسح رذاذاً تساقط على لحيته.

– الظاهر أنك خبير بالخمور؟

اهتزت لحيته الشهباء مع ضحكته. دعك زبيبة الصلاة ضخمة فى منتصف جبهته.

– شربت مائة من أصنافها، غير الحشيش والمنزول والأفيون، والقات لعنه

الله عليه.

عثرت على تحفة بشرية، تستحق أن تقدم إلي محكمتى الغريبة: حذار أن يضيع كما ضاع شاهدى الوحيد.. دلفت «عزيزة» من الممر الصغير خلف النصبة، تفرست فيها وهى تتقدم:

- أهلاً.. كيف حالك يا سيدنا الشيخ.

صافحها بحرارة.. جلست معنا.

- تعرف الأستاذ؟

- أعز أصدقائي.

«قف فى صف الشعراء أيها الفريسى.. لن يدخل ملكوت السماء كاذب. ومعنى هذا أن الملكوت سيظل مهجوراً».

عزيزة وهى تقبل يده بخشوع:

- دخنت تعميرتين فاعتدل دماغي، وكف ضرس العقل عن نز آلامه.

مسح بكفه على شعرها الطويل مباركاً :

- أحسنت يا بنت، ولو انتظرت قليلاً لوهبتك تعميرة منّ الزيت الخالص جاءتنى توا من الهند.

- سآخذها طبعاً، ولكن بعد أن أكتب خطاباً للواد بدوى.

يبدو الاسم قريباً كأننى أعرفه.. دست يداً معروقة فى صدر تضخم من عبث العابثين. أخرجت الخطاب والورق.

- تسمح يا أفندى..

استسلمت بلا مقاومة. استندت بمرفقها على المنضدة. سهمت عيناها إلي الحائط.

أخرجت قلمى انتظرت حتى بدأت تملى. صوتها جميل رغم سذاجة الكلمات. غاب عنا الشيخ، عابثاً فى مسبحته، انتهيت من كتابة الخطاب

وسلمته لها، مضت كعصفورة تنشد الفرار[٢].

واعظاً قال إمامي:

– جميلة.. ولكن الجوع لعنه!

– تعرفها من زمن ؟!

هز رأسه هزة لم أفهمها – هممت أن أسأله عن ساعته.. ولماذا تبعنى منذ التقينا فى بداية الشارع الرئيسى. وأين ذهبت المعلمة؟. أهو نفس الرجل الذى أبحث عنه؟

أخرج من جيبه أنبوبة مستديرة صغيرة الحجم. فتحها. تناول شيئاً منها

٢– تبينت بعد عودتي إلي المنزل أن قلمي كان حاداً. وأن المجلة التي كنت أستند عليها طبعت على نوع من الورق شديد التأثر بالضغط. وهو ما انتهي بأن وجدت لدي نصاً كاملاً لما أملته علي «عزيزة شرف الدين» وهذا هو النص الكامل لذلك:

حبيبي ونور عيني، ومهجة قلبي وشريان دمي

إلي من أعشقه وأهواه ودائماً فكري معه ولن أنساه

إلي حبيبي بدوي:

أبعث إليك سلاماً لو طار إلي السماء لصار قمراً منيراً، ولو هبط إلي الأرض لأصبح شجرة خضراء، فروعها المحبة والوفاء، وجذوعها المودة والصفاء -أقول لك يا بدوي- أنني أحبك حبا لا مزيد عليه، ويعلم الله أن روحي دايبة فيك، وأن رؤياك أعز آمالى. وإنشاء الله يا رب انطس في نظري إن كنت باكدب، إني أحتاج إليك كمثل العليل يحتاج إلي الشفاء والزرع للماء والطفل الرضيع إلي ثدي أمه، أنت كويس كويس، يا بدوي، بس لو كنت تبطل الشقاوة وطولة اليد، عشان أقدر أتلم عليك، بدل ما كل يوم والتاني من تخشيبة لسجن ومن سجن لتخشيبة. عايزين نتلم يا بدوي، وتتجوزني زي ما قلت ونعيش حتي في خص علي ترعة، واهي عيشة والسلام بدل البهدلة والإهانة، وبدل ما يبيع فينا ويشتري اللي يسوي واللي ما يسواش. ربنا يهديك يا بدوي، وانشا الله تطلع قريب، وأنا كلمت المعلم وهانشدلك واحد أفوكاتو حتي ولو أبيع هدومي، بس أجمد أنت ولا يكونش عندك فكر، وكل كويس وبر نفسك وأيها حاجة تعوزها ابعت عليها مع حاملة الشاويش فرحات، ولا تتكسف من عزيزة؟ والنبي ما تعمل تكليف، أنا مني عيني أعمل لك حاجة. أنت ما تعرفش غلاوتك عندي يا بدوي. ابعت بس وانشا الله حتي أقطع نفسي – مع هذا فرختين بداره، وصندوق سجاير بلامونت بالهنا والشفا..

وختاما لك مني ألف سلام.

مرتك وخدامتك

عزيزة شرف الدين

على طرف عود ثقاب أذابه فى كوبى بعناية. فعل الشئ نفسه بكوبه. رداً على نظرتى المستفهمة قال:

– هذا نوع نادر من العنبر .. وهو مجدد للحيوية ومعيد للشباب.

أجاب على ضحكتى الساخرة بنظرة متسامحة:

– لا تسخر، إنه عنبر حقيقى أحضرته من «تايلاند»، وخلطته بنوع فاخر أعطانى إياه راهب بوذى فى مدينة سايجون. وقد جربته فوجدته أفخر الأنواع على الإطلاق.

– كثير الأسفار أنت يا حاج؟

– زرت العالم كله..

– هل أنت حاج أم مقدس؟

– يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

الرجل يعد بليلة مثيرة. لو عادت عزيزة.

– أتعمل بالتجارة؟

– تقريباً.. تعلمت على يد ناسك هندى أسرار الاحتفاظ بالشباب الدائم، وقد طفت العالم بحثاً عن العقاقير والكتب النادرة التى تعلم أساليب المتعة الحقيقية، ومن مكتبتى أبيع نسخاً لمن يريد، فهل بك حاجة إليها؟!

بلهجة إغراء وضاءة، أنارت زبيبة صلاته:

– لدى نسخة وحيدة من «الكامشوترا» أقدم كتاب هندى، وقد عثرت عليها لدى حفيدة حى لمؤلفه «فاتسيا يانا» عندما قابلته فى «حيدر أباد»، وهو ينبوع الشباب الدائم، ولدى أيضاً مؤلفات لم تنشر للمركيز دى صاد، عثرت عليها بدار المحفوظات بباريس، ونسخة وحيدة من شعر «أبى نواس» السرى، وطبعة لم تمتد إليها يد التهذيب من «ألف ليلة وليلة»، وكتاب «نزهة الأنس» للشيخ يوسف الشربينى، وكتاب «رجوع الشيخ إلى صباه فى القوة

والباه» لمولفه ابن كمال باشا، وقد أملاه رحمه الله على بنفسه.

قطعت تدفقه:

- هل كنت تعرفه؟

- بالطبع التقينا فى إحدى مكتبات أزمير. وصاحبته حتى مات.

«ارم عجزى بدائك يا بائع النشوات وانسل. إن كنت نبياً فإليك ميتاً يبحث عن معجزة. ما سر الشيب المبكر. وكيف ملك يوسف القدرة على صد امرأة العزيز. وما الفارق بين الزاهد والعاجز..».

مضى يتحدث عن كتبه وأدهنته. أين المعلمة. أيكون هو الذى نطق اسمها فسال شلال المسكرات وغمرها».

حوقل باسماً:

- مرة صادف الجاحظ امرأة تبكى على قبر بظاهر البصرة، فسألها من تبكى، قالت: زوجى، قال وماذا تبكين فيه، قالت: كان يجمع بين رأسى والساق فيهزنى هز الصارم الأعناق، فإذا ما ابتل ظهرى صرخت فسمع الناس فى السوق صرختى. فوالله الذى لا إلا هو، خدعتك امرأة تبكى زوجها لغير هذا.

اقترب رجل بمبخرته، وضعها على منضدتنا، أخرج إمامى من جيبه زجاجة صغيرة، سكب منها قطرات على النار، تصاعد دخان معطر، ترنحت أعضائى من عطر الرائحة، تفتح النوار فوق نارها، رقصت عزيزة شرف الدين فوق السحابة، وقطفت وردة قدمتها لى.. عزفت «ألما روزى» الفالس. وغنى فلاح من قريتنا. قالت «روكسانا».

- بيتر لم يفعل هذا. أقسم أنه لم يفعل.

قلت:

- أمامك الدليل عن أنه فعل. من ذا يقاوم فتنتك، وكيف أعجز أمام عالم

النشوات. إلا أن «بيتر» كان هناك.

صرخت.

– تلك أوهامك يا طفلي المجنون.. دع الأمر لي وستجد أنك طبيعي.. المهم أن تحاول..

– كيف أحاول ونحن في مخبأ هتلر..

أزاحت غلالات شعرها عن صدرها ودعتني للعبادة، لكنني عجزت.. وكان الصخر بارداً ومع هذا تفصد العرق من جبينها..

وحوح الرجل وهو يحمل المبخرة:

– يا قوى.. يا غنى.. يا كبير!

رفع الولد السوط وضربني:

– نم معها يا ابن الكلب.

تفجرت الدماء من شراييني فنزفت على الأرض. قامت روكسانا فزعة. رفع الرجل السوط وضرب. غنيت: «ليت للبراق عينا فترى ما أعاني من عذاب وبلا..» واصل الضرب. صرخت روكسانا:

– تعال ندفن بيتر!

هز الرجل مبخرته، وضع يده على رأسي.. تمتم أدعية.. قال:

– عن يوسف ابن الشربيني غفر الله له، إنه قال: ألذ الأشياء في الدنيا ثلاثة.. أكل اللحم.. وركوب اللحم.. ودخول اللحم في اللحم!

....

عادت عزيزة.. شمت رائحة الدخان في المبخرة.. قالت:

– ضع المبخرة بين ساقي وأرقني يا مولاي!

رفعت ذيل جونلتها القصيرة. مرت فوق المبخرة سبع مرات.

رأيت خلايا فخذها تتفتح كأنما تشرب الدخان.

قالت:

– جوعانة!

صحت:

– بركاتك يا سيدنا يوسف يا شربيني.. أكرمنا باللحم أكرمك الله!

أخرج الإمام من جيبه مظروفاً مستطيلاً:

– على هذا المظروف عنواني. وبه على سبيل التذكار مجموعة من الصور العارية لنساء من أسخن من عرفت. لقد لامستهن بيدى هذه. شعرت بفوران الدم فى شرايينهن. وقد صورتهن بنفسى، وصورت أكثر الرجال الذين عرفتهم فحولة، لكى أضمّن الصور طبعة جديدة وفريدة من كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه فى القوة والباه» بذلك أوصانى صديقى ابن كمال باشا قبل أن يموت وقد رأيت أن أتبع أساليب النشر العلمى فجمعت هذه الصور التوضيحية لما يحتويه الكتاب لكى تكون طبعته الجديدة شهادة على التقدم التكنولوجى فى عصرنا.

تركته يثرثر.. تناولت المظروف، تأبطت ذراع عزيزة. اتجهنا إلى الخارج وهى تترنح:

– خمسة وعشرون قرشاً. ولو كان معك أحد فأنتما الاثنان بأربعين قرشاً. وكل واحد زيادة عن ذلك بخمسة عشر. والأمزجة الخاصة بسعر خاص، والعشاء عليكم وكذلك السجاير، وننتهى فى الفجر.

وقعت على العقد بهزة رأسى، ضحكت ضحكة منكسرة :

– طلب الأفوكاتو عشرين جنيهاً، قلت المبلغ كبير، شخط فى قائلاً : نحن لا نبيع ترمس.

قبل أن نصل إلى مدخل الحارة. اعترضنا جسم أسود ثقيل.

بجزع قالت:

- الشاويش فرحات!

بلهجة مستريبة، قال الشاويش:

- إلى أين؟

- عندى شغل.

- أريدك الليلة.

- مشغولة.

برقت عيناه فى الظلمة..

- قلت أريدك وكفى

- سأمر عليك بعد عودتى.

- لا.. امشى قدامى.

عيناه تبرقان فى الظلام، جحظتا إلي الأمام، جسمه مكور وضخم. شاربه هل هو هتلرى؟!

معترضاً:

- هذا لا يصح يا شاويش..

جذبنى من يدى. قذفنى بعيداً..

- لا شأن لك يا أفندى.. انصرف.. أرنا عرض أكتافك.

فكرت فى أن أحتج. تطورت الحوادث بأسرع مما فكرت فيه. جرها من ذراعها بعنف. قاومته. نزعت يدها منه بشدة. سحبها من شعرها. ضربته بركبتيها بين ساقيه. صرخ متألماً. وقفت متنمرة. قذفها فجأة بمقدمة حذائه العسكرى الضخم فى قصبة ساقها. صاحت متألمة. فى لحظة خلع الحزام الجلدى الذى يحيط بوسطه. رفعه بسرعة.. انهال عليها ضرباً. أنتً بعنف. اصطدم جزؤه الصلب بمقدمة رأسها. تصاعد شلال الدم. لطخ وجهه. طالنى

بعض رذاذه.. كانت هى تئن.. وتئن.

....

جريت بأقصى سرعتى..

انعقدت الجلسة فى المساء. دق القاضى بمطرقته..

- المدعى العام..

وقف المدعى العام:

- إن المتهم يؤجل القضية بحثاً عن شاهد وهمى لا وجود له، وهذا دليل علي ارتكابه الجرائم الواردة في عريضة الاتهام..

قلت:

- يا سيادة القاضى، إن لدى دليلاً واضحاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هذا المظروف الذى أضعه أمامكم يتضمن صوراً جنسية مثيرة من ذلك النوع الذى يستخدمه المراهقون لشحذ خيالهم الجنسى. ورغم أن القانون يعاقب على حيازتها، فإننى أثق أنكم يا قضاتى الأماجد ستعذروننى لأننى أحتفظ بها، وسوف تقررون فى النهاية تأجيل قضيتى إلي حين أعثر على ذلك الرجل الذئب الذى يعرف كل شئ عنى، وأؤكد لكم يا قضاتى الأماجد أنه ليس من العدل أن يدان رجل لأنه فقد الذاكرة، بينما هرب الشاهد الأساسى بكل وثائق عمره... إننى أثق أننى إنسان طيب قمت بالعديد من الأعمال الخيرة. وذلك الرجل يحمل تاريخاً كاملاً لحياتى، لكل لحظة وكل خفقة. كما إنه قد ترك آثاراً هنا على بطنى يا حضرات القضاة، إننى آسف جداً يا سادتى لأننى لا أستطيع أن أكشف لكم عن تلك المنطقة التى أغطيها بمشمع طبى سميك. إن ذلك مخيف حتى لى أنا.. أؤكد لكم أن الرجل المذكور معه وثائق تدل على أننى رجل بشوش ضحوك وإننى لأضحك أحياناً فتنفرج شفتاى بزاوية مقدارها ١٨ درجة. وهى نسبة لا بأس

بها . وتتفق تماماً مع نصـــوص القانون. إننى أضع أمام هيئتكم الموقرة هذه الصور العارية لأجساد نساء ساخنات ورجال فوّارون بالرغبة ولست أقصد أن أثير شهـيتكم الجنسـيـة. كمـا إؤكد لكم أن حـيـازتى لهـا لا تـخـالف القـانون. الذى ينص على توافـر قـصـد الإثارة فى الحـيـازة. وأنا رجل لدى شـهـادت بأننى فـقـدت ذاكرتى الجنسـيـة. وكل مـا أقـصـده من حـيـازة هذه الصور – يا قضاتى الأماجد– أن أدافع عن نفسي.

....

فـتـح القـاضـى المظروف.. وهذه نسخ زنكوغـرافـيـة طبق الأصل من هذه الصور [٣] .

٣- أصل هذه الصور موجود فى ملف القضية دقم ٣٤٨٧ حصر أمن دولة عليا لسنة ١٩٧٠ .

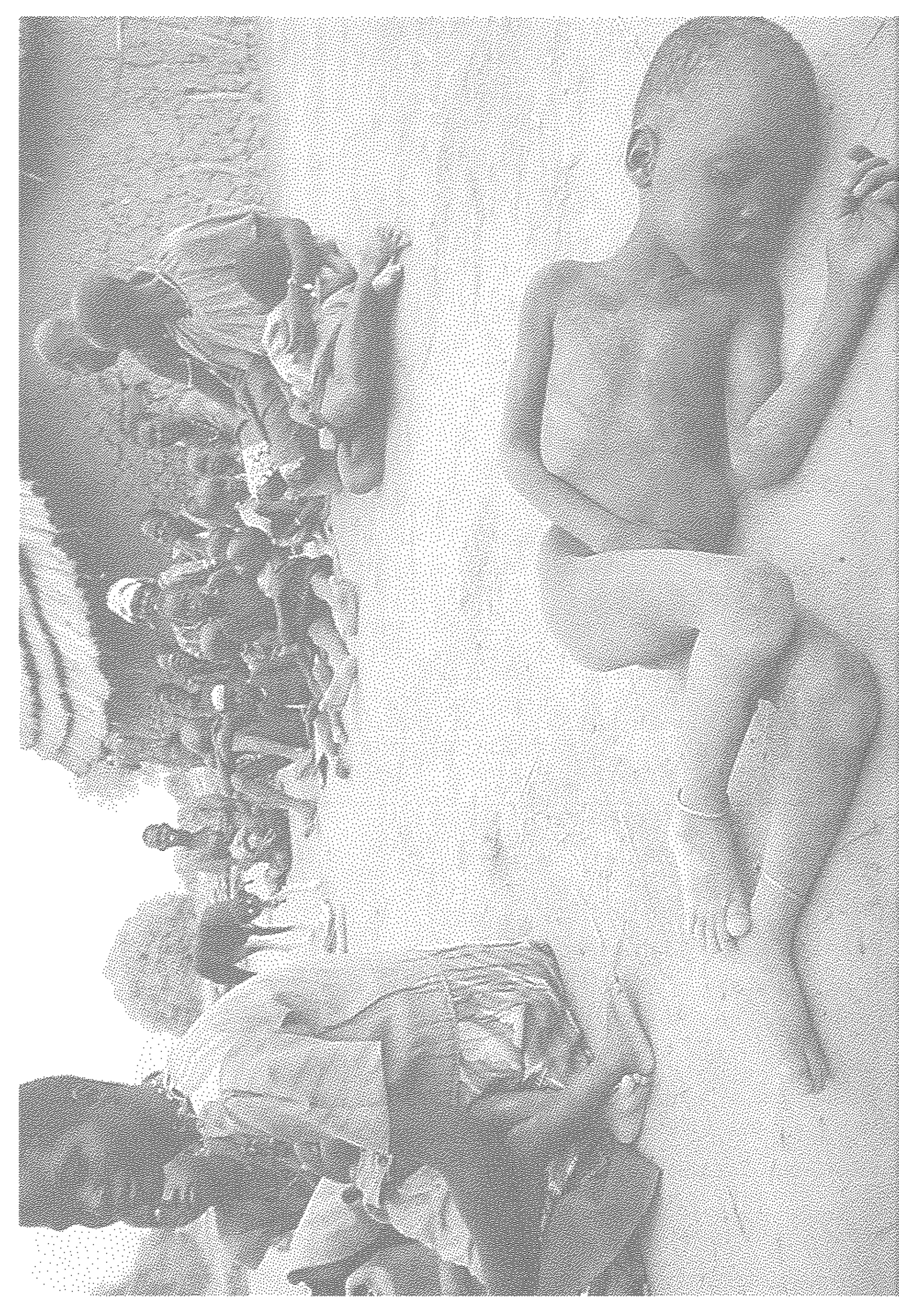


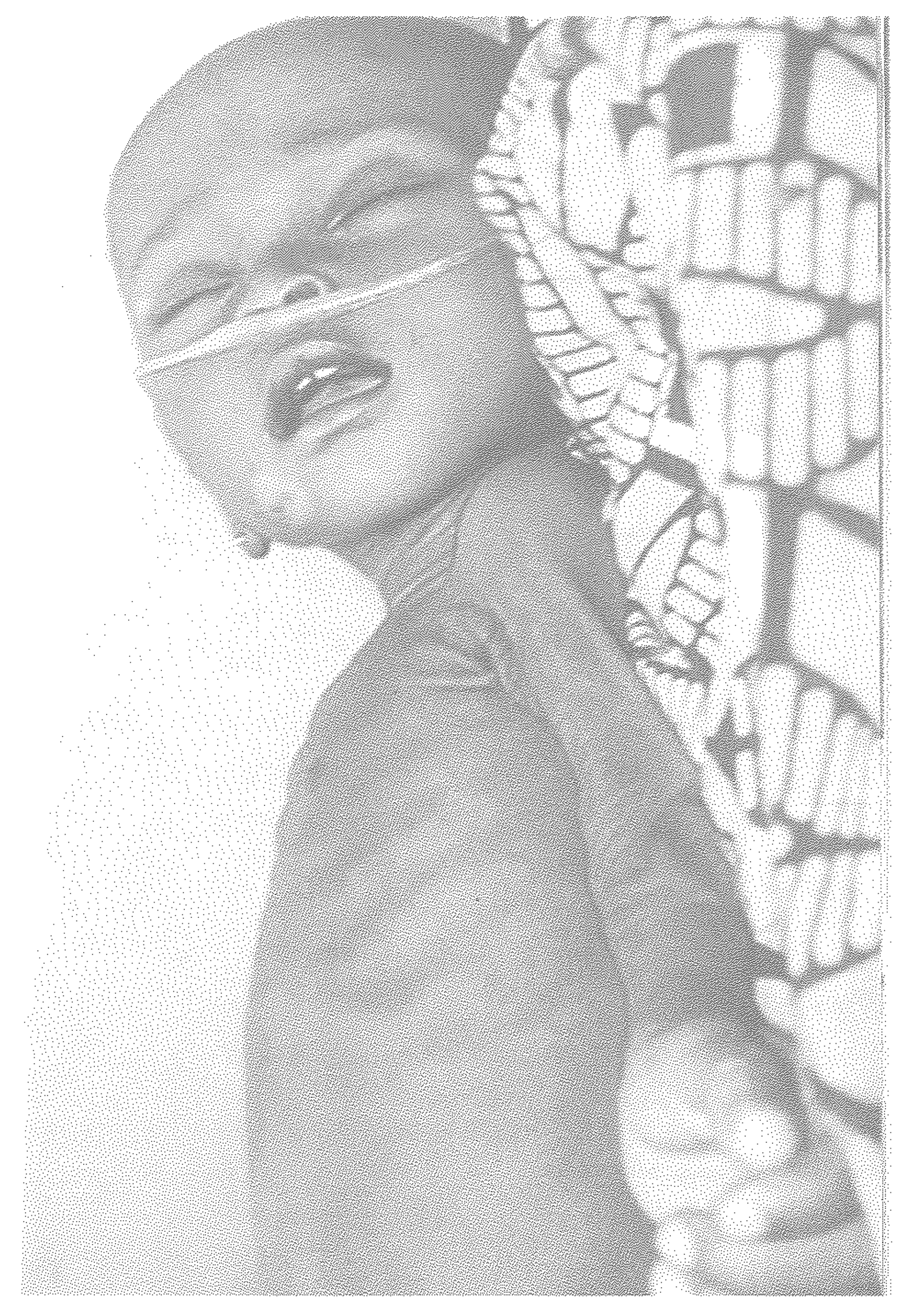
















12 الوثيقة السابعة
فذلكة تاريخية عن المواطنه ميرفت السويفى

من المؤكد أن المواطنة «مرفت السيوفي» (١٩٤٤ - ....) تحمل فى أعماقها تاريخا أطول بكثير من مجرد ربع القرن الذى هو عمرها الرسمى فى شهادة الميلاد، ولا أعنى بذلك أن خبرتها بالحياة، أعمق من مجرد هذا العدد المحدود من السنوات ، كما لا أعنى أيضا أن خبرتها بالحب وشؤونه وأشكال ممارسته، خبرة لا يمكن تحصيلها الا من خلال تجارب متنوعة وطويلة وممتدة، ذلك مالا أعنيه لآن تاريخها الجنسى ليس مهما بالنسبة لى ، إذ أن اهتمامى بهذا الجانب من الحياة، ليس نشطاً الى الدرجة التى تحفزنى للتأريخ له ، وبالرغم من أنه فى بلادنا - كما فى بلاد أخرى كثيرة - يهتم الكثيرون - وربما الأغلبية - بالنشاط الخاص لبعض أعضاء الجسم، دون النشاط الكلى لمجموع الأعضاء، فقد حاولت دائما أن أصل إلى درجة من التعادل فى نظرتى لنشاط الأعضاء المختلفة للجسم الانسانى .

وتجدر الإشارة الى أننى اهتممت بالترجمة لحياتها ، كجزء من مشروع ضخم لإعداد «دائرة معارف الشخصيات العادية فى عصرنا» . وقد نبتت هذه الفكرة على آثر مناقشة طويلة، بينى وبين صديقى الدكتور عمر مكاوى - الذى زاملنى فى معتقل طرة السياسى خلال عامى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ - ذكر فيها أن الرجل العادى Lay Man (وقد ذكرها صديقى بالانجليزية) والمرأة العادية Lay Woman (وقد ذكرها باللغة ذاتها)، سيكونان بطلى القرن الواحد والعشرين .

وعلل صديقى لرأيه بأن تقدم التكنولوجيا سيؤدى الى القضاء على أسطورة الرجال الأقوياء والموهوبين. وإذ ذاك سيكون الزمن زمن الرجل العادى والمرأة العادية، وكنت قد آمنت - بقلبى على الأقل - أن الحياة لايمكن أن تسير دون هذا القانون الأزلى : أن يكون هناك رجال أقوياء وموهوبين، يقودون الآخرين - ربما رغما عنهم - الى مصلحتهم التى يعمون عنها . ورغم شكى فيما قاله صديقى الدكتور عمر ، فقد كنت بعقلى لا أؤمن بخرافة الرجال الأقوياء . ومن هنا فقد فكرت فى الترجمة لبعض الناس العاديين فى عصرنا . وقد أورثتنى النتيجة التى وصلت اليها إحساسا بأننى كنت مقصرا، وبأن المؤرخين يرتكبون جرائم لا حصر لها، عندما يخفون عنا كنوزا عظيمة تنطوى عليها حياة العاديين من الناس، .كالمواطنة «مرفت السويفي» .

ويهمنى - بادئ ذى بدء - أن أذكر بالشكر الخدمات الجليلة التى قدمتها لى دار المحفوظات بالقلعة، ودار المحفوظات بعابدين. وموظفوا أرشيف المحكمة الشرعية العليا . وأمناء دار الكتب القومية، ومكتبة الأزهر . إذ أتاحوا لى جميعا فرصة الإطلاع على الكثير من الوثائق والملفات والدفاتر المتعلقة بهذا البحث . ليس هذا فقط ، بل لقد وضعوا تحت تصرفى خيرة مترجميهم المتخصصين فى اللغة التركية - على الطراز العثمانى - ليساعدونى فى قراءة بعض النصوص الهامة .

وإنى لأشكر أيضا أهالى مدينة السويس، وبالذات سكان حى الأربعين، ومشايخ الحارات بقسم ثانى ، الذين أدلوا بكل ما لديهم من معلومات عن المترجم لها . خاصة وأنى أقدر الظروف الصعبة التى يمرون بها الآن ، وهم بعيدون عن مدينتهم . ومواطن ذكرياتهم ، الأمر الذى جعلنى أقدر أكثر ، ارتفاعهم فوق الآلام والجراح ليقدموا مجهودهم لخدمة هذا البحث الذى

يستهدف وجه العلم وحده .

وإضافة إلى ذلك فقد زودنى بعض أصدقاء وصديقات «مرفت السويفي» بما كتبته لهم من خطابات وعلي الرغم من أن بعضها كان ركيك الأسلوب، فإنه أفادنى فى توضيح بعض النقاط الغامضة. ويستثنى من هذا ديوان شعر كتبه «مراد الثاني» حبيب مرفت ، فإنه دافئ الأسلوب، أنيق الصور ، بيد أن فائدته لهذا الجهد العلمى قليلة .

وبالطبع فإنى أشكر المترجم لها نفسها التى بذلت مجهودا جبارا فى التغلب على ذلك الستار الحديدى الذى يسدله كل منا حول عالمه الخاص ، فروت لى الكثير من التفاصيل، وأودعت لدى - بناء على طلبى واستكمالا للبحث - نصا كانت قد كتبته ، فيما زعمت منذ وقت طويل ، وعنونته بعنوان «دموع وآهات فى مذكرات وتاريخ حياة مرفت السويفي» كانت تنوى أن تقدمه لاحدى شركات الانتاج السينمائى لتصور فيلما عن حياتها.. وقد اقتطفت منه ما رأيته ضروريا لخدمة أهداف هذه الفذلكة المختصرة.

وتفرض على أمانة البحث أن أعرض لنقطة حرجة، ذلك أن العلاقة بينى وبين «مرفت»، قد توحى للكثيرين بأن هذه الفذلكة تفتقد افتقادا تاما للحياد الذى يتطلبه العلم . بيد أن هذا فى ظنى لم يحدث. كنت قد التقيت «بمرفت» ذات مساء ، فى أحد شوارع المدينة، وكان معى صديق ثالث، اختفى الآن ، ولا أدرى - ولعلنى لا أتذكر - أين هو ؟

....

كان قد مضى على ميلاد السيد المسيح، عشرون قرنا الا قليلا، وكان العالم ينزف صديدا من كل خلايا جسده الكروي، والنيران تشتعل فى أطرافه وقلبه . وفى تلك السنوات انتشرت أنماط غريبة من الحوادث، كانت تطالعنا كل صباح فى الصحف، وتقتحم آذاننا فى المذياع. ونواجهها كل

يوم فى الشارع. وبينما ذهب بعض علماء الكلام الى أن ذلك يعنى أن عالمنا غريب ولا معقول ، فإننى فقط، كنت أشعر أن الروائح العفنة تصيبنى بصداع مزمن، وكان هذا يضايقنى ، إذ تعودت أن أعيش مع العطور . وأيامها كانت بلادنا قد تعرضت لحرب ما . وقبل سنوات من تلك الحرب، غادرت منزلى فى مشارف فجر الى حيث لا أدري، بصحبتى رجل قصير وسمين وثقيل الظل الى حد غير معقول. وكان قطتى تموء بصوت مزعج فى بداية الليل. انتهزت فرصة فتحت فيها الباب فجرت هاربة الى السطح، تعبت فى البحث عنها . وعندما أفلحت فى الإمساك بها ، ضربتها بغيظ، ألقيت بها فى ركن الغرفة. كان الهواء العاصف يحدث صوتا مزعجا . جرت القطة الى ركن المطبخ . استيقظت زوجتى على الضجة. سألتنى بصوت نائم عما حدث، رويته لها وأنا أندس فى فراشى وأتدثر بالغطاء. وأعود لكتابى فى لذة مقرورة باحثا عن الدفء . بعد لحظات جاءت القطة، نظرت الى بعينين متسولتين، قفزت الى السرير وظلت تحوم حولى فى محاولة لاستكشاف الموقف . عندما أطمأنت الى أننى لن أكرر هجومى عليها ، مسحت رأسها فى ذراعى ، أخذتها فى أحضاني. نمت . فى الطريق كان البرد شديدا. جلس الرجل السمين بجوار السائق، جلست وزوجتى فى المقعد الخلفي، وبجوارنا رجل رفيع يلف عنقه بكوفية، ويقاوم رغبته فى النوم . تبادلت وزوجتى كلمات هامسة . وعندما قبلتها - أمام منزل أمى حيث تركتها لتقيم - بللت دمعة ساخنة خدي. لم نتبادل أنا والرجل أية كلمات . رفضت سيجارته فى تأ فف . مضت السيارة بنا الى حيث لا أعرف .

وعندما عدت ذات مساء، كان قد مضى على هذه الرحلة سنوات. وقدر لى حينئذ أن أعرف «مرفت السويفي» وأن التقى بها كثيرا. وبالطبع فإن ما كان بيننا لم يكن حبا ، كنا نتبادل أحيانا القبل وكنت أملك الحق فى أن أمد

يدى الى أى جزء من جسدها ، وكثيرا ماكنت أمزح معها ذلك النوع الأولى من المزاح الذى يحدث عادة بين الناس الذين ليس بينهم أية حواجز. أقول أمامها أى شيء، ومرة أسقطت مكعبا من الثلج بين نهديها ، وكانا يطلان عليّ من فتحة فستان ديكولتيه شديدة الاتساع . بيد أن هذا كله لم يكن يعنى أننا حبيبان، صحيح أننا لم نشترك معا فى الفراش – ذلك الاشتراك المعروف للجميع – ولكن هذا لا يبدو أساسيا. فكثير من الرجال والنساء يشتركون معا فى الفراش. دون أن يعنى هذا أنهم متحابون . كان بيننا شيء من الألفة الطويلة. كانت أحيانا تبدو كما لو أنها تخلقت من ضلعى الأيسر . وكثيرا ماناوشنى شعور بأننى هى . اذ ذاك أتحسس جسدى لكى أتأكد أننا كائنان لا كائن واحد . كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها . وفى هذه السن . يكون قد مضى أكثر من عام على تخريج البنات عادة من الجامعة. ويكن عادة فى تلك المرحلة من العمر التى تعجب فهيا الفتاة بالشعر وتدندن بالحان عاطفية. وتفكر فى الحياة بشكلها الرومانسى ، وهذا ما يقوله بعض الجهلة من علماء النفس ، اذ أن مرفت لم تكن كذلك .

ولا أزعم أن فى حياة «مرفت» – حتى الآن – أشياء فذة أو غريبة . فالحقيقة أنها حياة عادية تماما ففى أسرتها – كما فى العديد من الأسر – أفراد متعددون ليسوا جميعا من الطبقات العليا في المجتمع كما أنهم لم يعيشوا جميعاً فى الدرك الأسفل منه ، سنجد بينهم شيخا تقيا ، تبارك الناس فى قريتهم به . وقبلوا يده ، وطلبوا منه الأوراد والتعاويذ . ومن بينهم أيضا عساكر وضابط وحمال بالميناء ومدرس ابتدائى . وتاجر مخدرات بالتجزئة . وشاب طائش أحب آحدى راقصات الدرجة السابعة وتزوجها بعد معركة مع أسرته ، وأرملة تحيط بسلوكها الريب والشكوك، ومؤلف أغانى متوسط الذيوع، وعمال مطابع وفلاحون يعملون فى التراحيل،

وخادمات ومساح أحذية، وموظف بأرشيف وزارة الصحة ، ووكيل وزارة .. و .. و .. الخ .

وبالطبع فإن شجرة الأسرة متفرعة الى أفرع لا حصر لها ، على أن أقدم الفروع التى نعرفها عن أسرتها تعود الى منتصف القرن الماضي.

• عندما تقدم جدها الرابع المعروف باسم «الديب الكبير» ، للزواج من «زينب العرجاء» . ولا نعرف شيئا محددا عن «الديب الكبير» غير أن «مرفت السويفي» نفسها كتبت فى مذكراتها السالفة الذكر ، أنها سمعت فى أوساط الأسرة، من يقول «أن جدنا الأكبر كان من الذوات الكبار، وكان صاحب أرض كبيرة فى مديرية سوهاج» . ولكن يبدو أن هذا قول مشكوك فيه . إذ أنه من الثابت أن الجد الثالث «سطوحي» كان يعمل سقاء بحى الخرنفش بمدينة القاهرة . وقد تزوج فى عام ١٨٨١ من «سليمة محمود» التى كانت تبيع الحلوى للأطفال فى مدخل حارة «الخرنفش» . ولا تذكر «مرفت» فى مذكراتها تبريرا لأن يعمل «سطوحي» سقاء فى حين أن أباه كان صاحب أرض عظيمة فى سوهاج .

وقد ورد فى بعض محاضر التحقيقات التى جرت فى حوادث الثورة العرابية أن «سطوحي» قد تولى توزيع الشربات مجانا على الجماهير التى كانت قد تجمعت لتوديع «عرابى باشا» عند سفره الى رأس الوداى فى أواخر سنة ١٨٨١ . وكان بعض مخبرى الضبطية قد أراد من تقديم هذا التقرير السرى أن يتهم «حسن موسى العقاد» شهبندر تجار العاصمة بأنه الذى كلف سطوحى بهذا العمل . ولكن سطوحى أنكر ذلك فى التحقيق وذكر أنه قام بهذا العمل . بوحى من تفكيره الخاص، وعلى حسابه .

ومن المعلومات التى وصلت الينا أن سطوحى السقا، قد مات ميته غريبة.

فقد أصيب بروماتيزم وانحناء فى عموده الفقري، نتيجة لحمله المتواصل لقرب الماء . وتروى بعض الوثائق القديمة أن سطوحى السقا عندما اشتدت به العلّة، ولم يتمكن من الحصول على الدواء . تصدى ذات يوم لأفندينا «محمد توفيق باشا» . أثناء خروجه من باب الحرملك بقصر عابدين، ليركب متجها الى قصر القبة وصاح :

- ظهرى اتعوج يا أفندينا ... الله يلعنك .

والقى بقربة الماء التى كان يحملها نحو موكب افندينا . ولكنها لضعف ذراعيه.. أخطأت هدفها، ووقعت على الأرض فانفجرت وطال المقام العالى الخديوى منها رذاذ ضئيل [1] .

ونتيجة لهذا العمل المتسرع والخالى من الذوق، تعرض سطوحى لمتاعب لا حصر لها فقد أودع سجن «قره ميدان»، لعدة سنوات، وجلد مائة جلدة، بسوط طويل كان يوما عضوا تناسليا لثور سودانى والأرجع أن عملية الجلد هذه كانت بشعة جدا [2] .

---

١ ـ هناك بيان رسمي صادر عن هذه الواقعة، أصدرته «المعية السنية»، وقد وصف سطوحي في ذلك البيان بأنه «أفاقي محتال، مجنون ومأفون،حاقد ومدفوع» حسب ما ورد بالنص العربي أما النص التركي للبيان فقد ذكر انه «صعلوك تافه الشأن تجاسر علي مقام مولاه، ورب نعمته، ذلك الذي ربينا جميعا لحم أكتافنا من خيره العميم وعطفه الكريم» وقد كتبت مرفت في مذكراتها، أن البيان المذكور قد نشر بجريدة الأهرام بعدد ٦/١٢/١٨٨٦ ولكني لم أجده.

٢ ـ راجع ملفات مصلحة السجون المصرية بدار المحفوظات، ملف رقم ٧٤٦٧ جزاءات لسنة ١٨٨٧ وفيه أورنيك ذنب «خاص بسطوحي الديب، وتاريخ الأورنيك ٨ يناير ١٨٨٧، والجزاء مائة جلدة بتهمة سب الذات الخديوية والذات الشاهانية (أي السلطان التركي) وسب اللورد كرومر ومأمور السجن وضابط العنبر، ومحاولة الاعتداء علي الأخير، وتذكر «مرفت» في مذكراتها أن سطوحي جلد «ألف جلدة» ولم يتأوه. ورغم أن الأمر الرسمي بالتأكيد لم ينفذ بالدقة، فنحن لانميل لهذه المبالغة، وتعتمد مرفت في روايتها علي أن سطوحي عرف أوساط العائلة بلقب «سطوحي أبو ألف جلدة اللي ما طلبش رحمة»، أي سطوحي الذي ضرب ألف جلدة دون أن يطلب الرحمة (ص ١٣ من المرجع المشار إليه) .

وقد مات سطوحى فى السجن بعد ذلك بسنوات قليلة [٣] .

وفى تلك السنة ، كانت رسائل كثيرة ترد إلى مصر من بلاد بعيدة، من مصوع والشلال والخرطوم وبيروت ومن جزيرة كندى وسيلان واستنبول ، حيث كان يقيم فى تلك البلاد البعيدة عشرات من الرجال الذين نفوا من مصر بعد هزيمة الثورة العرابية ، وكان عدد منهم قد خرج من السجون والمنافى معتل الصحة والبدن وسقيم التفكير، وكان ثمة بحث فى إصدار قانون جديد للمطبوعات يقيد حرية الصحف فى التطاول على المقامات العليا.

وكان «سليمان سطوحي» قد ورث مهنة أبيه .

كان صبيا صغيرا أقرب الى البلاهة، عرف في أحياء الجمالية وخان الخليلى وقصر الشوق، باعتباره مجرد شيء ، يمكن للناس أعن يمارسوا أمامه ما يشاءون، تفتح له النساء الباب وهن شبه عاريات ، ويكلفنه بأخص شئونهن، وعندما بلغ الثامنة عشرة، الحق بالجيش وسافر الى السودان ضمن الحملة المصرية الانجليزية التى جردت لمحاربة الدراويش وزعيمهم المهدى وظل هناك عدة أعوام بعد انتهاء الحرب. وتزوج من جارية سودانية، ولدت له بنتين وثلاثة أولاد. وكان «عبدالواحد» أكبر أبنائه، صامتا، قليل الكلام، عاد بصحبة أبيه وأمه وشقيقتيه من السودان، فاستقروا بمحافظة الشرقية يزرعون قطعة صغيرة من الأرض، اشتراها الأب بما توفر لديه من مال قليل .

---

٣ - راجع تاريخ وفاة سطوحي في دفتر وفيات ناحية قسم الدراسة لعام ١٨٨٩، وهي تذكر أن سطوحي مات في ٣ فبراير من العام المذكور، بينما تذكر ملفات مصلحة السجون (ملف ٧٤٦٧ جـ/ ٣ إعفاءات) أنه صدرت إرادة سنية رقم ١٨ بالعفو عن المذكور في ٢ فبراير ١٨٨٩ ، وتفسر مرفت ذلك بأن سطوحي قد مات في السجن وأن المعتاد في ذلك الحين أن يستصدر عفو بتاريخ سابق علي تاريخ الوفاة، لكي لاتسجل حالات وفيات داخل السجن فيسود الشك فى أن سببه هو سوء المعاملة أو التعذيب، وقالت كذلك إنها سمعت في أوساط أسرتها أن سطوحي مات في معركة مع إدارة السجن، ولم يمت موتاً طبيعياً.

واذ بلغ عبدالواحد السابعة عشرة، زوجه أبوه من ابنة شيخ البلد. كان أسمر وهى بيضاء. عاش طفولته فى الأدغال والحروب. وهى ريفية ساذجة لم تر غير حدود قريتها . ولما كان متوقعا أيامها أن ترث بضعة أفدنة عن أبيها . فقد كرمت فى بيت زوجها .

فى تلك السنوات كان «مصطفى باشا كامل» يلف العالم. وكان شابا جميل الصورة حلو التقاطيع ، جهورى الصوت ، لذلك سمى «عبدالواحد» أول ابنائه باسمه ، واستبشر خيرا ، وطمع يوما أن يكون ابنه ذائع الصيت ، محبوبا كما كان مصطفى باشا، بيد أن الدنيا لا تسير على حال. فبعد أعوام قليلة مات «مصطفى باشا» بمرض غير معروف، وكان فى ريعان الشباب، وبعدها بسنوات قامت الحرب. وهجم جنود صفر الوجوه وزرق العيون ذات صباح على القرية ، واختاروا عددا من شبانها كان من بينهم «عبدالواحد» وأشيع فى القرية يومذاك أنهم ذاهبون الى حيث لا رجعة، وأنهم سيحاربون فى الشام فوق الجليد والصقيع، أو فى الصحراء القاحلة بلا ماء. وقد اندثر «عبدالواحد» فى مكان ما من الشام او صحراء سيناء. ولا تذكر كتب التاريخ شيئا عما حدث له ولغيره هناك .

فى تلك السنوات ، كانت الحرب العالمية الأولى تلقى بظلها الخانق على الرجال والنساء والأولاد فى القرى والحوارى والكفور . كان سعر القمح قد ارتفع الى أضعافه وكذلك سعر اللحم والخبز وعشرات السلع الأخرى . وكان معتقل جبل الطور قد فتح حديثا. ونفى عدد من الناس الى مالطة، وهرب «محمد فريد» الى تركيا. وكانوا يتحدثون عن جيش عثمانى سيأتى لتحرير مصر من الانجليز . وكان الناس يغنون لأفندينا عباس فى الطرقات بصوت خفيض. «الله حى .. عباس جاى .. ضرب البمبة فى ظهر العمدة

وهو جاي» .

كان ماحدث لعبد الواحد ، قد ترك آثاره فى ابنه (مصطفى الثاني) – وقد عرف بذلك تميزا له عن عمه (مصطفى الأول) الذى ولد فى عام ١٩٠٥ ، ومات بعد ذلك بسنوات طويلة فى مشاجرة ريفية ضخمة على حدود الرى – وهكذا عاش مصطفى الثانى، الذى ولد قبل خطف والده بثمان سنوات، حياة حزينة . كان أسمر اللون شاحب الوجه ممصوصا ، وكانت أمه تحبه حبا عظيما ، ليس لأنه ابنها الوحيد فحسب . ولكنت لأنه ذكرى السنوات القليلة التى عاشتها فى أحضان زوجها الذى لم تعرف له مصيراً أو قبرا تزوره . ومع ذلك فإن الناس فى محافظة الشرقية يذكرون أن – «ناعسة» وهذا هو اسمها – كانت تزور مقابر القرية فى المواسم مع كل الناس وتوزع الصدقة على الفقراء والمساكين ، وتطلب من الفقيه أن يقرأ لها سورة بجوار أى قبر : رحمة على روح زوجها الذى اختفى جسده ولم تعرف له رفات . ويروون أنها كانت تتطوع للندب فى المآتم وأنها ما تكاد تسمع عن مأتم حتى ترتدى ملابسها السوداء وتأخذ منديلها الأبيض الصغير ، وتتوجه إلى مكانه ، تبكى بحرقه وتنوح ، وتردد ما تحفظه من جنائزيات مصرية وسودانية . حتى أن كثيرين من المعزين الغرباء كانوا يخطئون فيظنونها بعض أهل الميت، فيعزونها . ولم تكن ترفض عزاءهن ، بل كان يستثير مكان الدموع فى مآقيها... فتبكى بحرقة . وقد عرفت لسنوات بأنها روح أى مإتم وأن الحزن لا يكتمل الا بها .

وفى سنة من هذه السنوات نشر كاتب ناشىء فى صحيفة «مصر» قصة ماحدث لـ «أوزوريس» على يد «ست الشرير» ، وتحدث عن ايزيس العظيمة، التى لفت القرى والكفور تبحث عن أشلاء زوجها الحبيب وتنتظر فى أمل أن يكبر «حورس»، لينتقم لأبيه من «ست» فتعود الروح لاشلائه الميتة. ولكن ليس

هناك أى دليل على أن ناعسة قد قرأت هذه القصة، ذلك أنها لم تكن تعرف القراءة.

وأيضا فإن مصطفى لم يقرأها هو الآخر، على الرغم من أنه كان يعرف القراءة ، وكان قد حصل على فرصة لم يحصل عليها أى من أفراد أسرته، إذ ألحقه أبوه - قبل أن يخطف - بكتاب يتعلم فيه القرآن والحديث ومبادئ الجمع والطرح . وقد دفع هذا الأم، الى الرحيل بعد ذلك بسنوات إلى مدينة السويس بعد أن أجّرت أرضها ، لتتيح لأولادها ، فرصة التعليم . ولتتزوج من قريب لها كان يعمل موظفا تافه الشأن فى الميناء . وهكذا استطاع مصطفى - وهو فى الخامسة والعشرين - أن يحصل على قدر عظيم من التعليم، أتاح له أن يجد عملا فى أحد المكاتب الناحلة بمعونة زوج أمه .

وظل مصطفى بلا زواج سنوات طويلة، ذلك أن الأزمة الاقتصادية العالمية كانت قد أطلت بوجهها فى تلك السنوات الكالحة الوجه . وكانوا فى البرازيل يلقون بأطنان من البن فى البحر لكى تشربه الأسماك . ويطعمون الخنازير الذرة فى أمريكا بينما ظل مصطفى عاطلاً بلا عمل ثابت سنوات ، مما كان مثار سخط زوج أمه ، الذى كان لا يدرى من أين يطعم هذا الكوم من اللحم البشرى ، وبينما كان تلاميذ المدارس الثانوية فى السويس والاسماعيلية والقاهرة ، وبقية المدن ، يدخلون معركة شرسة ضد «صدقى باشا »، كان مصطفى يقضى أيامه فى أعمال تافهة ، واضطر وهو راسب الكفاءة أن يعمل حمالاً فى الميناء لشهور قبل أن تتعدل الأحوال ويجد وظيفة.

فى تلك السنة ، كان أبى قد تزوج أمى فى قريتنا . وقد زفوه على ضوء المشاعل فى الشوارع ، وخضب كفاه وقدماه بالحناء ، وأكل ليلة الدخلة دجاجتين فقط . فالدنيا كان قد قل خيرها . ولهذا السبب فسر البعض نحول

جسدى ، بأنه من أثر قلة العشاء ليلة زفاف أبى .

وفى سنة ١٩٤٣ تزوج «مصطفى عبدالواحد سطوحى الديب» من ابنة عمه «منصور» ، وكانت قد ورثت عن أبيها - نقلا عن أمه السودانية - اسمراراً قليلاً ، وقد ورثت عنها بناتها هذا اللون الأسمر الرائق ، وخاصة أولاهن «نوارة» التى عرفت بعد ذلك باسم «مرفت السويفى» والتى نؤرخ لحياتها فى هذه الفذلكة .

وهكذا ولدت نوارة، عاشت طفولتها وشبابها الباكر فى مدينة السويس، عرفت البحر والجبل والصحراء وشباك الصيد، وبالرغم من أنها ولدت فى سنوات حرب، فإن أباها قد تمكن من تدبير مصروفات ميلادها من دجاج وخلافه، بأن حصل على قرض حسن بشروط ميسره من زملائه، وقد فعل هذا إرضاء لزوجته بالرغم من أنه لم يكن سعيداً بميلاد «نوارة» إذ كان يأمل أن تمنحه زوجته ولداً، وكان «مصطفى» شأنه فى ذلك شأن معظم الرجال فى بلادنا ـ يرى أن خلفة البنات لاتورث إلا المشكلات وأنهن يجلبن العار وقد عبر عن ذلك لزميله فى المكتب قائلاً:

ـ البنات مشكلة، يظل الإنسان طوال العمر يعمل من أجل سترهن، ولايطمئن باله بزواجهن، والحقيقة أن لا شىء يسترهن سوى القبر.

كانت الحرب العالمية الثانية آنذاك فى خريفها الأخير، وملايين الناس ماتوا فى ميادين القتال ووراء الخطوط. مدن بأكملها دمرت، وكان لحم الحيوانات غالياً لدرجة مذهلة، بينما أقسم جندى بأنه كان يقضى ليله مع أجمل عذراوات إيطاليا بكسرة خبز، وكانت المعتقلات قد فتحت من جديد فى «جبل الطور» و«ماقوسة» و«الزيتون» وأماكن أخرى من بلادنا، وكان عشرات الألوف من الناس يحرقون فى أفران «أوشفتز» الرهيبة، وكانت «ألما روزى» قد انتحرت فى أحد أيام الشتاء، أما «إيدا ريبك» فقد اعتقلت فى ذلك العام.

وعندما كان العالم يرقص فرحاً بعودة السلام، كان «مصطفى أفندى» يتابع فى الصحف أحلام مابعد الحرب، ويتساءل عما إذا كان السلام الموعود سيزيد مرتبه جنيهين، وسيمكنه من تجديد أثاث بيته، الذى كان ـ ككل الأشياء فى سنوات الحرب ـ غالى الثمن ورديء الصنف، وسرعان ما طاله الزمن فحطم المرايا وتقشر مسند السرير وكسرت قوائم المقاعد، وكانت زوجته تحمل كل عامين لتلد له بنتاً، وهو ما كان يزيد كآبته، خصوصاً أن الولد المأمول لم يكن يأتى.

وقد حدث ومرفت ـ أو نواره ـ فى السابعة أن شاهدتها أمها تعبث مع صبى صغير فى مدخل منزل مواجه لهم. ولم تكن تلك المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك، وقد خجلت مرفت من هذا العبث بعد سنوات. والذى حدث أن أمها رأت أن هذا عبث من النوع الخطر فاستخدمت فى تأديبها سوطاً سودانياً ضخماً، كان أحد موروثات الأسرة التقليدية من المرحلة السودانية فى تاريخها . وكان فى الأصل ـ ككل نوعه ـ عضواً تناسلياً لثور ضخم ولم يكن الضرب بالسوط مؤلماً فحسب، ولكنه ترك آثاراً بعيدة المدى فى حياة «نوارة»، فقد أصبحت أكثر ميلاً للإنطواء، وفقدت رغبتها العارمة فى اللعب والضحك ولعل هذا هو السبب أنها عندما بلغت طور المراهقة أصبحت شديدة الحساسية تجاه كل ما يتعلق بالجنس أو الحب.

وعندما بلغت السادسة عشرة، أحبت أول فتى قابلته. وكان مهندساً شاباً بشركة قناة السويس. وقصة تعارفهما عادية تحدث كثيراً فى مدننا الكبرى، يومها كانت ذاهبة إلى المدرسة، عندما عرجت على إحدى المكتبات تخطر من تليفونها المصلحة التى يعمل بها والدها بأنه مريض، ويطلب اجازة عارضة، وكان هو هناك فى نفس المكتبة للغرض نفسه إذ كان يطلب شركته تليفونيا لينهى إليها أمراً ما، والذى حدث أن تليفونات الشركة كانت مشغولة، فوقف

برهة ينتظر لعله يفلح فى إتمام الاتصال، وعندما ظهرت نوارة ـ أقصد مرفت ـ ونظرت إليه بعينيها، أفسح لها المكان لكى تطلب الرقم الذى تريده، ولكنه كان مشغولاً هو الآخر.

ولما كان هو ـ واسمه بالمناسبة مراد ـ من النوع المقتحم، فقد أخذ يتفحصها بنظرة فضولية، ولكنها مؤدبة، ولحظتها ندمت «نوارة» لأنها لم تمر بالمكواة على مريلتها المدرسية، وفكرت فى أن هذا كان سيعطيها أناقة أكثر، وقد ذكرت فى مذكراتها عن هذه المقابلة النص التالى:

«كان مراد يلبس جاكتة كحلية اللون، وبنطلوناً رماديا، وكانت أصابعه خالية، ليس فيها دبلة زواج أو خطوبة، وإن كانت أطرافها مصفرة جدا مما يدل على شراهته فى التدخين»، ودون إفراط فى تفاصيل لامبرر منها، فإن «مراد ونوارة ـ «مرفت» ـ قد تعارفا فى هذه المقابلة ونشأت بينهما علاقة حب من النوع الرومانسى الذى نعرفه جميعا.

وسعياً وراء تحديد دقيق للمصطلحات نقول أن هذا يعنى أنهما تبادلا عدداً من الخطابات استعانت نوارة فى كتابتها بالروايات والقصص، وبالكتب المخصصة لتعليم هذا النوع من المراسلات، كما يعنى أيضا أنهما تبادلا عدداً من القبل والهدايا.

وبالطبع فلم يكن فى استطاعة «نوارة» أن تجهر بهذا الحب، وقد لجأت إلى بعض الحيل البسيطة لكى تحتاط للمستقبل، وكانت قد تعلمت من الأفلام السينمائية والقصص الرديئة وتجارب الصديقات ونصائح الأمهات، أن عليها أن تحذر عند التعامل مع الشبان، وخاصة فى مسائل العواطف لذلك كانت تحرص على أن تكتب له الرسائل بيدها اليسرى، لكى لاتكون دليلاً خطياً يدينها لدى أسرتها، أو لدي زوجها فى المستقبل، وقد كبدها هذا مجهوداً مضنياً، كما أن ضرورات الحذر جعلتها تحجم عن إهدائه صورتها

التى طلبها منها، ولكنها أهدته صورة لها مع طالبات الفصل كانت قد التقطت لهن فى رحلة مدرسية إلى «جبل عتاقة»، وقد ذكرت فى مذكراتها المشار إليها، تبريراً لهذا التصرف «إنها خشيت أن يستغل الصورة فى أى يوم لتهديدى أو فضحى».

ولما كانت أجازة مراد من العمل هى يوم الأحد، فإنها كانت أحياناً تنصرف من المدرسة فى بعض أيام الآحاد، قبل نهاية اليوم الدراسى، بدعوى أنها مريضة أو مصدعة، وكان هذا يتيح لهما فرص لقاء خاطفة فى بعض المنتزهات، أو فى «الكابانون»، حيث كان مراد يأخذها فى سيارته الجيب الصغيرة، عبر طريق جبل عتاقة، وهناك على مسافة من المدينة، كانا يجلسان فى الكازينو المطل على البحر، ويقضيان اليوم فى الثرثرة، وتبادل النظرات.

وبالرغم من أن وسامته كانت تجذبها وتستثير أحياناً رغبتها فى أن تقبله أو تحتضنه، فإنها حرصت على ألا تبدى أى رغبة فى ذلك، بل إنها كانت تتعمد أن تبتعد عن مرمى هذه النظرات وألا تعرض نفسها له أكثر من ثوان، ومما زادها زهواً به، أن زميلاتها فى المدرسة، كن قد أعجبن به إعجاباً لا حد له، وكن قد التقين به فى رحلة مدرسية لزيارة منشآت شركة القناة، - وكان لها يد فى تدبير هذا اللقاء، وفى اقتراح مكان الرحلة ـ وقد تحدثن عن وسامته وخفة ظله كثيراً، وتمكنت هى، بحيلة دفعت فيها زميلة لها كمخلب قط، أن تجعل تلك الزميلة تلتقط صورة لهن معه، ومع مدرسهن، وبعض العمال ممن كانوا فى الموقع، وأضيفوا للصورة للتعمية فحسب، وهكذا تمكنت مرفت السويفى بعد مجهود شاق من أن تحتفظ بصورة تضمها هى ومراد معاً، وصحيح أنه كان بينهما حوالى عشرة آخرون، لكنهما كانا معاً فى الساحة المحدودة نفسها، هو ما أثلج صدرها، وزادها مرحاً.

وفى تلك السنة بالتحديد حدث ذلك الحادث المفاجىء الذى أشرنا إليه فى مناسبة سابقة، فى سياق مذكرة الدفاع المقدمة لعدالة المحكمة فى القضية رقم ١٠٧٣ جنايات أمن الدولة العليا، المتهم فيها شوقى عطية السباعى - نعنى به تلك المقابلة العاصفة بين مرفت السويفى وذلك الرجل الضخم الذى ضبطها وهى تسلم شفتيها لمراد فى لثمة خفيفة، عندما كانا يتنزهان يوماً على شاطىء القنال.

وقد ذكر لى خبير بهذه المسائل أن الرجل السمين وممن يمتهنون نفس مهنته يلجأون إلي أسلوب معروف، فهم غالباً يستطيعون من النظرة الأولى أن يخمنوا نوع العاشقين اللذين أمامهم، وهم .. يعرفون أن هناك محبين محترفين: عاشقة مدربة وعاشق مدرب، لا فائدة من إرهابهما أو تهديدهما بالافتضاح، ولأنهم يعلمون أن الرجال المتزوجين لايقبلون زوجاتهم فى الطريق العام، ونادراً ما يتنزهون معهن أيضاً، فهم يعيشون على إرهاب العاشقين العذريين، فغالباً مايكون الطريق العام هو المكان المتاح لهما لكى يتبادلا قبلة، أو يستمتعا بلمسة - والقانون فى بلدنا يعتبر القبلة من هذه الأنواع فعل فاضح فى الطريق العام - وهو ما يمكن أن يؤدى إلى الإضرار بموقف الفتى فى عمله أو دراسته، ومن ناحية ثانية فإن تحرير محضر للفتاة يشكل فضيحة بعيدة المدى لها، ويعرضها لأضرار بالغة، ومن هذا الفهم، فإن بعض الرجال ممن تتيح لهم سلطتهم الحفظ على الأمن والأداب العامة يستغلون هذا الموقف المعقد لكى يزيدوا دخلهم القليل، ولآن الحديث بالحسنى لا يفيد فى الحصول على الاتاوة بالقدر المطلوب، فإن الصراخ بصوت عال، وإسماع الفتى والفتاة، ألفاظاً سوقية مخجلة هى الوسيلة الوحيدة لتحفيز أحدهما - وغالباً مايكون الرجل - أو كلاهما، لدفع أى ثمن لإنهاء هذا الموقف المعقد والمخجل. وقد كان. ذلك أن الرجل بعدما قال كلامه

الفظيع ـ والذى لانستطيع أن نكرره حرصاً على عدم ارتكاب فعل فاضح وخدش أسماع المحكمة الموقرة وتعريض مذكرة الدفاع لغضب الرقابة على النشر ـ قد استولى على جنيهين كانا مع مراد، كما استولى على عدة قروش كانت «نوارة» تحملها فى كيسها الصغير.

وماحدث أن ذلك الرجل عرض عليهما أن يقضيا وقتاً ممتعاً فى ضيافته، وكان نص كلامه ـ نقلاً عن مذكرات مرفت ـ كما يلى:

ـ يا أستاذ، لماذا تبهدل نفسك فى الشوارع، هناك أناس طيبون مستعدون للخدمة، أعرف واحد صاحبى، ابن حلال تماما، متزوج وعنده أولاد، يعنى لايوجد أى شبهة على بيته، حضرتك تصل كأنك صاحبه، ثم تصل الست كأنها صاحبة البنات، ويضع تحت أمركما غرفة جيدة التهوية، بها سرير وملاءات نظيفة، ومناشف وكل شىء، والحمام لصيق بها، ولايزعجكم أحد، والساعة بجنيه والاشتراك الشهرى ١٠ مرات فى الشهر بخمسة جنيهات، وطبعا لن تحتاج لأكثر من هذا إلا إذا كنت فحل جاموس.

ضحك الرجل، وبالرغم من أن «نوارة» حاولت ألا تسمع الكلام، فقد سمعته، وفهمت ـ رغم قلة خبرتها ـ مرماه، وقد ختم الرجل حديثه بقوله:

ـ وقتما تحب دور على، قهوة الفردوس بجوار سيدى الأربعين.

كانت مرفت لحظتها تتمزق، وكانت تود أن ينتهى الموقف بأى ثمن، وقد سارا صامتين، ولم تكن تفكر فيما سمعته، بقدر ما كانت تحاول أن تتخيل مايفكر فيه هو، كانت تسترجع الحديث لترى انعكاسه عليه، وقد تذكرت لحظتها أن الرجل قد تحدث عن جزء مستور من جسدها ووصفه بأنه أحمر اللون، كانت تخجل من تلك المنطقة من جسدها، وترى أنها ليست جميلة كما ينبغى، فهل يفكر مراد الآن أن شعر عانتها أسود اللون؟ وأن به براغيث

تلدغها وتدفعها لطلب أى رجل فى الطريق العام كما تفعل الكلبة.

ومن الصعب بالطبع وصف ماحدث لها، ذلك أن الاحتفاظ بالتفاصيل الدقيقة لذلك عسير بل يكاد يكون مستحيلاً.

ولكن حلماً رأته مرفت فى تلك الليلة ـ وربما بعدها بأسابيع ـ قد يفيد، كانت قد عادت من الخارج ودخلت حجرتها حيث التفت بالغطاء، ولم تنم على الإطلاق، كل ما كانت تريده ألا يراها أحد أو يكلمها وكانت تريد أن تنفجر فى بكاء حاد وطويل، وكان مصطفى أفندى ـ والدها ـ قد بلغ الخامسة والخمسين فى تلك السنة، ومع ذلك فقد تزايدت عليه الأمراض والعلل، لذلك فنادراً ما كان يغادر حجرته بعد عودته من العمل. وعندما عادت هى كان نائماً، أما أمها فكانت تعجن بعض الدقيق لتصنع منه فطيراً يأكله جيش أطفالها فى وجبة الصباح، لم تبك ، لم تنم، ظلت تتقلب على فراشها، حتى أدركتها رحمة الإغفاء قبيل الفجر آنذاك حلمت حلما غريبا، رأت نفسها تسير فى أحد الشوارع فى عز الظهر، وزحام شديد حولها، رأت فيه عشرات الوجوه التى تعرفها : ناظرة المدرسة، المدرسات، الطالبات، «مراد»، العمال الذين كانوا معه يوم الرحلة، أمها، أباها، شقيقاتها الصغيرات، مئات غيرهم، وفى وسط الشارع وعند مقام «سيدى الأربعين» كان الرجل السمين يجلس على مقهى الفردوس، قام، رفع معولاً، أوقفها وسط الطريق، شق الجونلة، فوجئت بنفسها عارية، وضعت يدها لكى تخفى شعر عانتها الطويل، ضحك الرجل، ضربها على كتفها الأيمن عند اتصال الذراع به، وضربها بنفس الطريقة على كتفها الأيسر، والغريب أن ذراعيها شلتا تماما، لم تستطيع أن تحركهما لتخفى بهما ما ودت إخفاءه عن أعين المتلصصين.

ضاحكاً وقف الرجل ينظر إليها، حشرات متعددة تملأ شعر عانتها، ضحكت التلميذات والناظرات والمدرسات، أما أمها فكانت تلطم خديها فى

جنون، تناثرت الحشرات فى الشارع، بدأ الرجل ينظف منطقة الحشرات بمعوله وهى تجرى فى أرض الشارع، ولاتدرى كيف وجدته فى داخلها، هكذا فجأة، كان هو نفسه، بجسده السمين داخل جلدها، فى تجويف الجسد، يستند بساقيه على عظمتى حوضها، استقامت قامته، رفع معوله، كادت قدمه اليمنى تنزلق من فوق عظمة الحوض، استنند بذراعه على الرئة اليمنى حتى استعاد توازنه، أعاد رفع المعول، خبطة هتكت منطقة الصدر، تناثر مزقا كقالب من الطوب اللبن، خبطة أخرى فتتت القلب إلى ذرات من الرمال، ظل يعمل، ويعمل، تعب، لهث، تفصد العرق من جبينه، تدلى لسانه ظمآنا، مد يده، جذب شريانا من شرايينها، وضعه فى فمه، تدفق الدم من الشريان إلى فمه، ساعتها خافت «نوارة» جدا، صرخت، استيقظت من النوم وهى تبكى.

وكما يحدث غالبا نسيت «نوارة» الحادثة تدريجياً، بعد أن خلفت فى قلبها مرارة شديدة، بعد ذلك بأشهر، ظلب منها مراد أن يلتقيا فى شقته، وقد برر ذلك بأنه يلاحظ كثرة تلفتها وهى تسير معه، أحزنها ما طلب، أغضبها إلى حد تملكتها لحظة ازدراء له، صاحت:

ـ ماذا تظننى؟.

عجب «مراد» لغضبها، استفزه، وقد ذكر له حينئذ أن الرجل كان يصيح بين ما صاح قائلا:

ـ علىّ أنا.. أتستغفلنى أنت والشرمو......... التى معك. كل يوم تسحب لى واحداً وتأتى به إلى هنا، هل أنا متفرغ لها ولعشاقها!.

وبالرغم من أن «نوارة» لم تكن قد تنبهت لأهمية هذه الكلمات ـ إذ لم تكن أبشع ما قيل ـ فإنه وفى ضوء تكرار «مراد» لها فى ذلك اليوم، وفى أيام أخرى تالية بدأت تهتم بها.

والحقيقة أن مراد كان قد اقتنع بأن «نوارة» فتاة عابثة ، وقد جمع عدداً من الشواهد القليلة على ذلك، منها أنها لم تقاومه عندما حاول تقبيلها أول مرة، ومنها أنه فى إحدى القبلات قد ضغط على ردفيها ضاماً نصفها الأسفل إليه، فاستنامت لذلك، بل وحركت هذه المنطقة من جسدها فوق نظيرتها من جسده، هذا بالإضافة إلي شهادة الرجل بأنها كانت تذهب إلى مكان لقائهما كل يوم مع شاب من نوع مختلف.

وكان ذلك نهاية قصة حبهما القصيرة، ذلك أن «مراد» كان قد عدل نهائياً عن فكرة الزواج منها، ومزق تخطيطاً مبدئياً لمنزلهما، كانا قد قضيا يوماً كاملاً يعدانه فى شرفة «الكابانون» المطلة على البحر، ومع أن حديثهما عن بناء يريد أن يبنى المنزل فى سفح جبل عتاقة. لم يتوقف إلا أنه لم يعدل تماماً عن فكرة أن «نوارة» فتاة عابثة، بل إنه أخذ يؤنب نفسه لأنه أضاع وقته معها دون أن ينالها وأخذ يرسم الخطط لكى يقتنص منها لحظات متعة، وأصبح ذلك كل همه.

وكانت هى ماتزال تجاهد فى يأس لإثبات نقائها.. بيد أن الأحلام المزعجة كانت تطاردها، وقد تذكرت تلك الحادثة القديمة التى حدثت فى طفولتها، واقتنعت لفترة بأنها ولدت بغياً، وأخذت تتابع أحلام يقظتها القديمة، وكان بعضها أحلاماً جنسية ـ لتفسيرها فى ضوء خبرتها المحدودة، وكثيراً ما كانت تسمع ألفاظاً من ذلك النوع الذى ينطلق فجأة فى الطريق العام فتتصور أنها المقصودة به، وأن كل الناس يعلمون قصتها، ويطلعون على رغبتها الدفينة.

وفى ذلك الغروب عندما أوقف مراد السيارة فى منتصف الطريق بين جبل عتاقة والمدينة، وزعم أن الموتور تعطل، كانت تعلم أنه يكذب، وأن تلك حيلة لاصطيادها ولكنها لم تقاوم، كان الطريق خالياً والشمس تغرب هناك

خلف الجبل والغازات المتصاعدة من مداخن معمل التكرير تحترق فى الهواء صانعة شعلة تضىء مهبط الليل، وكان البحر يومها هائجا وأمواجه عالية، يتسرب إليهما على البعد هديره المرعب، وكانت رأسها خاوية من كل شىء.

كف «مراد» عن محاولاته المصطنعة لإصلاح السيارة جلس بجوارها محاولاً الضغط على البنزين، ثم تحركت يده لتسقط فوق ركبتها وتعرى جونلتها كاشفة عن مقدمة فخذيها، انحنى ليقبلهما، لم تقاوم، تركت يده العابثة تفك زراير البلوزة، وتسقطها بعد قليل على المقعد الخلفى للسيارة.

فى تلك الليلة بكت مرفت طويلا، ثم تقيأت كل شىء أكلته.

أيامها كانت الدنيا مليئة بالمشكلات، كانوا قد أرسلوا قمراً صناعياً جديداً إلى الفضاء، واكتشفت أدوية جديدة لعلاج الجلطة وضغط الدم، وكانت مغامرة خليج الخنازير قد فشلت، وكان لومومبا قد مات قتيلاً فى الغابات الاستوائية، وتزايد أيضا مايدفعه «مصطفى أفندى» من نقود ثمناً للأدوية، وكان قد بلغ السادسة والخمسين وأحيل للمعاش بسبب عدم قدرته على العمل، فقد أصيب بروماتيزم فى العمود الفقرى نتيجة لإقامته الطويلة لمدة ثلاثين عاماً متواصلة فى حجرة واحدة رطبة، هى المكتب الذى كان يعمل به.

رسبت «نوارة» ثلاث سنوات متواصلة فى الثانوية العامة، وكان الكحل قد عرف طريقه إلى عينيها، عرفت أيضا الملابس الداخلية الملونة، والعابثة، وبدأت تزيل الشعر من كل مناطق جسدها وهو أمر من المتعارف عليه أن العذراوات لسن فى حاجة إليه، وكان التدهور يصيب علاقتها بمراد الذى كان قد ندم على مافعل بها، وقد حاول أن يصلح الأمر بالامتناع عن تكراره، ولكنه كان يضعف كل مرة، وكان شىء ما يشعره بأنه مجرم وأنه اغتال براءتها، كانت ماتزال عذراء بيد أن جسدها عرف الرجل معرفة كاملة، ولم

يعد مبرر لأن يلتقيا فى الطريق أو الكازينو، ولم يعودا يفكران فى الزواج واستخدما الرسم الذى أعداه يوما لشقتهما فى إشعال الفحم الذى دخنا به نفساً من نوع نادر من الحشيش، كان مراد قد عثر عليه مع مهرب دولى نزل المدينة فى جوله سريعة عاد بعضها إلي باخرته التى كانت تعبرالقناة فى طريقها إلي الهند .

وفى تلك السنة عرفت «مرفت» رجلاً آخر، ولم يكن سوى مهندس إيطالى يعمل فى إحدى شركات استخراج المنجنيز التي تعمل فى سيناء وقد التقت به فى «الكابانون» وقدمت نفسها له باسم «مرفت»، سعياً وراء اسم جميل، وتقنعاً من عيون الفضوليين وخوفاً من ثرثرة الرجال المباهين بعلاقتهم.

وهكذا أصبحت «نوارة» شيئا آخر غير الذى كانته.. وتعودت أن تتعرف بالرجال باسمها المستعار الجديد.. وكانت قد اكتسبت خبرات جديدة، منها كيف تستدرج شاباً يركب سيارة لكى يتبعها، ويقلها فى سيارته، وكيف تبتز منه ثمن الهدية، وكيف تغيب يومين فى رحلة مدرسية بينما المدرسة تظنها قد اعتذرت عن الرحلة.. وأصبح لها صندوق يضم ذكرياتها تحتفظ فيه بالرسائل الغرامية التى ترد إليها ـ وخاصة من الرجال المتزوجين ـ أملاً فى أن تستفيد منها ذات يوم.

وعندما غادرت «مرفت» السويس لكى تلتحق بالجامعة، كان أرشيفها السرى يضم عشرة من العشاق، وكان أبوها قد أصيب بالشلل، وباع قطعة الأرض التى ورثها عن أبيه ليعالج نفسه وينفق على أسرته، وكانت أمها تجاهد ليستمر باب بيتهم مفتوحاً، وكانت مرفت قد وضعت خططاً لاستغلال المدينة الكبيرة وابتزاز أموال الرجال ذوى الكروش الضخمة، والشبان الوافدين من عالم البترول الرحيب!.

ولم يكن صعبا أن تشق «مرفت» طريقها إلى المستقبل الباهر الذى

وجدت نفسها تسير فى طريقه.. بيد أن كلمات الرجل الضخم الجثة كانت تفقدها أى متعة، وكان عدد من عشاقها يعرفون طبيعتها العصبية، كانت لاتستسلم إلا وهى تحت وطأة مخدر، بل إن بعض نوي الخبرات المتجددة فى هذا المجال، كان يزعجهم تدهورها، ورغم أنها كانت تضحك إلى حد القهقهة، وتشرب كثيراً، فإنها كانت كما قال أحدهم وهو طالب بترولى مردسيدسى ـ تمثل بنفسها، أكثر مما تمارس الحب، تدمر كل شىء، قاسية على نفسها وعلى من معها إلى الدرجة التى لاتطاق، تردد ألفاظاً سوقية شديدة الابتذال وهى تمارس الحب، بدرجة جعلتنى ـ والكلام للطالب البترولى ـ أخجل أنا من نفسى رغم المخدر، ورغم أننى الرجل، والغريب أنها فى نهاية كل لقاء كانت تبكى طويلاً وتخفى وجهها فى الوسادة ثم تنسحب لتتقيأ الخمر والطعام والنشوة.

فى تلك السنة كانت الامبريالية الأمريكية قد صعدت غاراتها ضد «فيتنام الشمالية» وكان جونسون قد منع القمح عن مصر، وكادت تحدث مجاعة، وكانت «أم نوارة» قد توصلت إلى حل لمشكلتها، فعرضت حجرة من شقتها للإيجار فى موسم الصيف، وبالرغم من أن الشقة كانت فى حى شعبى عتيق، فقد وجدت من يستأجر الحجرة التى عرضتها، بحثا عن مسكن رخيص نوعاً ما، أو رغبة فى استكشاف الفتيات الجميلات اللواتى كن يحضرن ساعة توقيع العقد.

وفى صيف ما، بدأت الحرب .. هجمت الطائرات على السويس وعلى المدن الأخرى وقتل أكثر من عشرة آلاف من الجنود والضباط، وامتلأت الصحراء على الضفة الأخرى للقناة بالدم، وتهدمت احياء بأكملها من مدينة السويس، وردمت جثث القتلى تحت الأنقاض، وكان من بين هؤلاء «مصطفى

عبدالواحد سطوحى الديب» وبناته الثلاثة وزوجته، وكانت مرفت حينئذ فى القاهرة.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مرفت بلا أهل، وقد بكت طويلاً، واستضافتها صديقة عدة أشهر، وفى النهاية صرفت لها وزارة الشئون الاجتماعية تعويضا ومساعدة. لكنها وبعدما انتهى موسم الأحزان، وكفكف كل الناس دموعهم الغزيرة، خلعت السواد، واستقرت فى غرفة بأحد البنسيونات، وألحقها واحد من معارفها السريين بعمل فى إحدى الشركات كضاربة على الآلة الكاتبة.

وذات غروب ـ وبعد سنوات من عودتى من أوشفتز ـ كنت أتحدث مع صديقى محمود حسن السفروت عن نظرات الشك وفخاخ الاتهام، وعن العودة من الحياة بقبض الريح، وعن حلمنا القديم بالهجرة إلى عوالم النشوة الأصيلة، وجدتها أمامى، ترتدى ميكروجيبياً قصيراً، وكانت (كما اعترفت لى فى لحظة صفاء بعد ذلك)، تستدرج خلفها شاب قرمزى الوجه والشفاه، من ذلك النوع «البترومارسيدس» .. لحظتها انحنيت أمامها بأقصى قدر من التهذيب، قلت لها:

ـ أود أن ألفت نظرك يا آنستى، إلى أن ركبتيك تثيران الاشمئزاز وأن محاولتك لإزالة الشعر عن فخذيك واضحة، لذلك فإنه لاداعى لهذا الميكروجيب على الإطلاق.

الشهادة الخامسة

13 المخلِّص

سألقاه حتما سألقاه ، هنا أو هناك. تحت صفصافة على شاطىء الترعة ، أو فوق لوح من الخشب فى عمق البحر. ذلك أن هذا البحث الطويل بطول العمر، لا يمكن أن يذهب هكذا هباء. وأمس جاءنى القاضى وهيئة المحلفين ، شاركونى شراب وحدتى بشرفة شقتى. حكي سيادته طويلا عن بعض القضايا التى ينظرها قال :

– إن «يوجين ويليامز» يسأل عنك ؟. وقد طلب من محاميه أن يبلغك تحياته .

وضحك طويلا ، ثم اردف :

– ظن المدعى العام أن بينكما علاقة ما، وطلب من الشرطة أن تتحرى عن العلاقة بينكما ومن رأيه أنه حرضت ويليامز على أن يدفن نفسه عنوة فى أرض الولايات المتحدة الأمريكية .

– لم يبلغنى المحامى الرسالة .

– مرض المحامى عندما اطلع على أوراق القضية .

– اسمه ؟

– ابراهام لنكولن .

صمت القاضى طويلا . اقتربت قطتى منه. ماءت قليلا اخذها فوضعها على حجرة بدأ يداعبها . سألنى .

– هل تعرف رجلا يدعى «تمر» .

- اسم غريب ؟

- كان معروفا قبل سنوات . وقد عمل فترة حاجبا للحجاب. وتولى ولاية القاهرة . ومات فى عام ١٤٧٥ميلادية .

جـــاءت زوجتي بقهوة المساء . وضعتها على منضدة صغيرة قالت :

- كنت تتكلم قبل لحظة ؟

نفيت ذلك . نظرت فى عمق عينيها الهادئتين . أحببتها من أجلهما. احتسيت بعض رشفات القهوة . اتستريب فى عقلى ؟ ربما .

- ألديك مواعيد الليلة ؟

«نعم ورائى ذلك البحث عنه بلا يأس إذ ولو يئست لسلمتهم رقبتى بلا مقاومة، وهذا لن يحدث»..

- سأخرج بعد قليل .

خبا لمعان عينيها . وقلت أنهاتعانى ألما داخليا ، ولكن ما العمل ؟

- ظننت اننا سنمضى الليل معا ..

- سأعود .

يبدو وجهها كالطيف ، انعكست صورتها داخل رأسى . لم أكن انظر اليها مباشرة .

عذبتنى نظرة العتاب المريره . فكيف يصد القلب المطارق الثقيلة ، ويوما كانت خلايانا تتداخل فأصبحنا كمغموسين بالزيت. ينزلق جسدانا. ينفصلان ، ولا أمل في أن يعود كل شيء كما كان .

- هذا ماتقوله عادة ، ولا تعود إلا مع مطلع الفجر .

- ورائى أشياء لاحصر لها .

- يشكو طبيبك أنك لا تواظب على حضور جلسات الكهرباء.

يشكو الطبيب والقاضى ، ولا أمل إلاّ فى أن اجده: فى هذه الغابة

الكثيفة من الرؤوس الصلعاء والمشعره، لابد أن رأسه المتكور بينها ، ولقد انسى كل شيء إلا ملامحه ، حفرها على شرايين القلب وفوق سطح الجلد بآله دق الوشم ، رسمها بسوطه المرتفع المعقود الاطراف . الهابط والصاعد بخطوط من الدم على كل عصب. لابد أن الذئب البرى موجود في هذه الغابةالبشرية اللاهية ، وإلا فمن أى مكان ينتشر العفن . وأين مستقر الجيف فى مدينتنا الواسعة ؟

سأجده حتما فهو شاهدى الوحيد... هو بين هذا العالم كله يستطيع ان يشرح للمحكمة ويوضح. يسمعه القاضى الكبير. يهز رأسه ويطلب منه المزيد . وقد تقولين ياعزيزتى «شهد دار» أننى أنتظر كائنا غير موجود . صنعته الوحدة وانجبه الوهم والقلق، اقسم بعينيك إنه موجود - بالزيت، سد مسام جسدينا، بنى جبال الثلج فى فراشنا، إنه موجود . سأبحث عنه في الزحام والخلاء . فى النور والظلمة، وسط نظرات الشك وفخاخ الاتهام . فى عظام القبور وتجاويف الجماجم، بينى وبينه الزمن بلا انتهاء - الصحراء القاحلة بلا دليل، ولكنى أثق أنه موجود . شاهدى ذاك الوحيد موجود ..

قلت لمرفت السويفى .

- أظنه ذلك الرجل .

ضحكت . ازاحت خصلة شعر تنوش جبهتها :

- من حسن الحظ أنه ليس امرأة وإلا طالنى شكك القاتل .

يتكلم واحد عن شيء ما بحماس البكارة . هممت بالتعليق. عدلت. داخلنى إحساس مريب بأنه هو . قال : «نحن نعرف عنك كل شيء، السر والعلن وما تخفى الصدور». ذلك الزحام الكثيف ، هنا داخل هذه الجمجمة يتصارع التاريخ : الماضى والحاضر والمستقبل. تبدو الجماجم الفارغة - كتلك التى على مكتبى - أسعد الكائنات إطلاقا .

أيقظنى رنين التلفون المتصل. وقالت الساعة إنها الظهر، أماهو فقال لى بعد أن حيانى :

- هل انتهت اليوميات .

اعتذرت بكلمات نائمة .

- لا داعى للاعتذار . توقعت هذا فكلفت آخر بالكتابة على سبيل الاحتياط ..

تحدث طويلا عن بعض الانباء استمعت بنصف وعى . قال :

- كل هذا فى صحيفة امس . ألا تقرأ حتى الصحيفة التى تكتب فيها..

تتابع الرنين المتصل . ما حدث لعزيزة شرف الدين يصلح قصة للصفحة الأخيرة. تأملت وجهى فى المرأة متعجبا من فكرتى كيف اندست فى رأسى ..

بصقت فى المرآة .

الشارع طويل بلا انتهاء . ملتو كثعبان ميت. مزدحم بالوجوه ولكن أين وجهه ؟ . من تسأل فى هذه المدينة الطافحة بالقانورات . ضعف البصر حقا . أم هى مجرد أوهام ككل شئ؟. قال الطبيب :

- لا تفسد الصدمات الكهربائية بمزيد من الانفعالات . اقترح ان تسافر الى مكان هادئ الاسكندرية او «مرسى مطروح» مثلا .

كسنام الجمل قفاه : «لا تنفعل» ها .. ها .. ها ... فلتوقف الفلك الدائر إن استطعت ولتجب على قاسى السؤال . ولتقتل القتل والفقر والعذاب والوحدة فى حالكات الليالى . ولتهدم الأسوار والسجون وشر الأنفس .

لن أموت قبل أن أجده مهما حدث. فليرينى عزرائيل قوته . قد يكون شاخ أو مات . ولكننى سأجده، ولوكان فى بطن الحوت أو عند حد الافق.. سأحييه لو كان العظام وهى رميم . سأطير وراءه بأجنحة نفاثه لو كان فى

مدار القمر. إنه الأمل الوحيد والباقى، لكى لا يضحك قاضى ، ولكى يكون حكم البراءة مدويا . ولأغلق ملف قضيتى آنذاك لا يكون شىء قد ضاع عبثا . ويحين وقت المسرة الخالصة.

الى ذلك القصر المملوكى القديم دخلت . نظر إلى بوابة نظرة نائمة . سجلت اسمى فى قائمة الداخلين. هنا دبت يوما اقدام «شهددار » و «نفيسه المرادية» رائحة الزمن المفقود . كانت الحياة بحر راحة : القناديل والارض التى غطاها المخمل والحرير والديباج، قاعات الإفراح بلا حدود. والموت لأن تلالأ من النشوة قد ناء بها قلب العاشق . هذا جدار صافحته عيناها لذلك يشع منه الدفء . حنون بمثل حضن الأم فى زمن لن يعود . من النافذة تبدو القلعة وقصر الجوهرة، من هنا كانت تسرح الطرف الكحيل الى المزارع والبيوت. وتنتظر بلهفة الشوق عودة الفارس . خفف الوطآ على السلم الحلزونى وعلى الأرضية الخشبية، وحذار ان تخدش الاظافر الجدران، فى الاعماق منها تستكن نظرات ولهى وقبلات ساخنة. لحظات نشوة ما أشوق القلب اليها .

زاحمت أكداس من الكتب والمجلدات اقدامى السائرة حتى وصلت الى قاعة المطالعة . عدد قليل من الرواد . بينهم فتاة جميلة انهمكت وراء مجلد ضخم وأخذت تنقل منه بسرعة. عيناها الخضراوان تخترقان اكفان الماضى بدربه . فماذا يعنى لها ؟

بجوارى مباشرة كان يجلس : طويل القامة . ملامحه ذائبة لا شىء يحددها. أنفه رفيع بلا خطوط تفصله عن الوجنتين . أمامه أكوام من مجلدات الصحف القديمة يقلب صفحات إحداها بعجلة شديدة . يقف أحيانا امام بعض الصفحات ، ينفخ بغيظ وضيق لا عنا الدنيا ومن فيها . جاء أمين المكتبة بمجلد طلبته. قلبت صفحاته . أكلت الحشرات صفحات الماضى

الجميل . فمتى تموت الثعالب الصغيرة المفسدة للكروم . صورة قديمة لفاطمة رشدى . ريانة الشباب بسمتها عالم أخر. ذهبت العيون الجميلة . ارتخى الجلد المشدود . تراكمت أكياس الدهن تحت العيون . نفخ جارى يائسا..

– أأنت مشغول بشىء ؟

حائرا :

– نعم .. كما ترى ..

تناول سيجارتى المشتعلة وكانت مستندة الى المطفأة . سحب منها نفسا طويلا .

– يمكننا ان نتعاون .

ملابسه قديمة . أثار رتق على مرفقه الأيمن . أنبأته نظرتى أننى لم أفهم ما يقصد .

– بدلا من أن تبحث عن موضوعك فى كل هذه المجلدات ، وأعيد أنا البحث فيها عن موضوعى . تبحث أنت فى نصفها عن موضوعى وموضوعك، وأبحث أنا عن الموضوعين فى النصف الآخر.. بهذا يوفر كل منا نصف مجهوده ..

أعجبتنى الفكرة .. سألنى عما أبحث عنه ..

– أبحث عن شيئين أولهما قرار رسمى بسلبى حريتى واسمى بالمناسبة «شوقى عطية السباعى» ،أما الشىء الثانى ، فهو صورة شخص قابلته وأريد أن أجمع عنه معلومات لأتوصل الى مكانه .

رفعت البنت الصغيرة رأسها ناظرة الينا .. عتبت عيناها الخضراوان فمتى تفرغ من الحزن لنسرى فى مدائن العيون .

– وما اسم هذا الرجل ؟

- لا أعـرف إنه سـمـين الوجـه . ذو شـارب هـتلرى . عـيناه زرقـاوان ذئبيتان هذا كل ما أعرفه عنه ؟

ابتسم ابتسامة واسعة . بدا لحظتها كطفل ساذج .

- ولكن البـحث عن شخص مثل هذا كالبحث عن إبرة بين كوم القش.. هناك ملايين تنطبق عليهم هذه الأوصاف . هل له مهنة محددة .

بدا السؤال عسير الإجابة :

- إنه مجرم ، ولكن هذا لا يعنى أن تبحث عنه بين المجرمين .

نفخ ضاحكا . أعاد رفع سيجارتى الى فمه . قال :

- ليس ما أبـحث عنه أيسر من مـهـمتك . إننى افتش عن شىء بسيط ولكنه معـقـد للغـاية . فلسبب لا أدريه تدخلت قـوة خـفـيـة . ومـحت وجـودى نهائيا.

ويل للشجى من الخلى. وقعت فريسة لعابث أو لاه. فـهل هو مسطول أو مجنون أو كلاهما ..

- بالطبع سيبدو ذلك غير معقول . ولكن أى شىء معقول ؟! قد تظن بى الجنون. ولن أغضب. لو فعلتهما قبل عشرة اعوام، لخسفت به الارض ولكنى تعـودت الأمـر . تـعـودت ان أبـحث وتـعـود أن يظن بى الناس الخـبل . هذا لا يهم. ما ظنك فى رجل بلا مستندات تثبت وجوده ..

- ....

- أقول لك : ليس لدى أى ورقة رسمية من أى نوع ، ليست لى شـهادة مـيلاد، ولا شـهادة تطعيم ضد الجدرى، ولا شـهادة حسن سير وسلوك ، ولا بطاقة تحقيق شخـصية ولا الشـهادات التي نلتها وهى بالمناسبـة : الابتدائية من مدرسـة خليل أغا الابتـدائيـة برقم جلوس ٨٦٧ سنة ١٩١٧، الدور الأول

امام لجنة خليل آغا. اكتب عندك الأرقام من فضلك ، ثم الكفاءة من مدرسة الخديوية الثانوية وأمام لجنتها برقم جلوس ٢٤٦٧ سنة ١٩١٩ثم التوجهية سنة ١٩٢٠ من نفس المدرسة برقم جلوس ٧٤٣٢ ثم بكالوريوس فى الهندسة قسم مدني سنة ١٩٢٥ ودكتوراه فى الهندسة من جامعة دبلن سنة ١٩٣٠ . هل كتبت هذه الارقام .؟

ثم وهو يتنهد حزينا ..

– ضاع كل شىء .. فقدت الأوراق. سرقتها يد مدرية.. فوجئت وأنا ذاهب الى عملى يوما بالبواب يعترضنى ويحك آثار الجدرى فى وجهه، ويقول لى :

– إلى أين تذهب يا أفندى ؟

– صباح الخير يا عم بيومى ..

قال ان الصعود ممنوع لغير الموظفين . قلت : إننى موظف هنا وأنت تعرفنى . وهناك ألف واحد يعرفوننى فى هذا المبنى. نظر الى . سألنى عما إذا كان لدى بطاقة تثبت هذا . قلت إن البطاقة سرقت. أبى الاستماع . . انتظرت حتى نزل الموظفون . سلموا على بشوق . حكيت قصتى الضاحكة مع عم بيومى للمدير العام ونائبه . اقترحت احالة «عم بيومى» بواب شركتنا الى المعاش .. هز مديرنا العام رأسه . قال:

– عليك يا دكتور ان تبحث عن شهاداتك بدلا من الطعن فى عقل موظف محترم يقوم بواجبه مثل عم بيومى .

ذاهلا :

– ولكنك تعرفنى يا سيادة المدير العام. . الست أنا الدكتور «جورج البرمكى» .

– نعم انت الدكتور «جورج البرمكى» .

– ألم أعين ، (أعنى ألم تعينوا سيادتكم) الدكتور جورج البرمكى المذكور مديرا لادارة القوى البشرية فى المؤسسة .

– نعم حدث هذا .

– وبما أن «جورج البرمكى» هو أنا . وحيث أن «جورج البرمكى هو مدير ادارة القوى البشرية. اذن فاكون أنامدير ادارة القوى البشرية ويحق لى بهذه الصفة دخول المؤسسة[1] .

وقد استمع المدير يصبر الى براهينى . قال :

– ولكنك يا «دكتور جورج» لاتحمل أية بطاقة .

– لقد سرقت البطاقة يا افندم .

فكر المدير قليلا ثم شرح لى الموضوع بطريقة رياضية[2]. وأنهاه قائلا:

فى البداية اعتبرت الموضوع نكتة ، لكنه تجدد فى المنزل ، ذلك أن زوجتى رفضت أن تدعنى أنام معها فى حجرة واحدة. صرخت وبكت وأكدت اننى مادمت لا أحمل وثيقة الزواج فأننى لست زوجها ، وَأذهلتنى حين قالت آن هناك شخصا آخر جاء وقدم لها الوثيقة. وانهما ناما معا واستراحا

---

١ – يهمني أن أذكر أن جورج البرمكي شرح المسألة للمدير العام بطريقة رياضية. وقد ذكر لي أنه أخذ المدير الي مقهي قريب، وتناول ورقة وقلما . وكتب الموضوع بالطريقة الهندسية، علي النحو التالي :

بما أن مدير إدارة القوي البشرية بالشركة يحق له دخول الشركة من الباب الرئيسي وبما أن جورج البرمكي هو مدير ادارة القوي البشرية في الشركة . وبما أنني أنا ،جورج البرمكى، اذن أنا يحق لي دخول الشركة من الباب الرئيسى.

٢ – الذي حدث بالضبط أن المدير أمسك ورقة وقلما وكتب المسألة بالطريقة الرياضية علي النحو التالى:

بما أن هناك ورقة بتعيين جورج البرمكي مديرا لإدارة القوي البشرية بالشركة .
ويما أن .. مدير القوي البشرية بالشركة يجق له دخول الشركة .
إذن جورج البرمكي يحق له دخول الشركة .
ويما أن .. جورج البرمكي لايملك ورقة بأنه جورج البرمكي .
اذن .. جورج البرمكي ليس هومدير ادارة القوي البشرية في الشركة.
واذن .. .. جورج البرمكي لايحق له دخول الشركة .

مقدار ساعتين فى فراشنا. وأكدت انها تعتبر من يملك هذه الورقة زوجها الرسمى والشرعى . وفى كل مكان حدث نفسى الشىء. لقد طردونى من لجنة الانتخابات لأن بطاقتى ضاعت، صرخت فيهم :

– ولكننى مواطن وموجود وبى لحم وشحم وأعضاء ودماء وشرايين وقلب ومخ وأمعاء وذاكرة وذكاء وأجهزة جنسية وأخرى بولية وجهاز هضمى كامل وعشرة اصابع فى اليدين ، وعشرة فى القدمين وعينان إحداهما ٦ على ٦ وأخرى على ٩ وأذنان وشعر وحاجبان ، وأنف ولسان يتكلم العربية والإنجليزية والألمانية ، وأحفظ أغانى عبدالوهاب القديمة. وأغانى أم كلثوم وقرأت أكثر من عشرة آلاف مجلد .. لم يصدقونى فالشهادات غير موجودة .

صمت الدكتور «جورج البرمكى» لحظة توقفت البنت الصغيرة عن العمل وضعت القلم بين أسنانها .

– لماذا لم تستخرج بدل فاقد ؟

تسولت نظرته سيجارة . أخرجتها من جيبى . أشعلتها له . نفث الدخان فى تيار متواصل وقوى. مر أمين المكتبة حيا وهو ينظر إلينا نظرة ماكرة.

قال :

– صباح الخير يا «دكتور جورج» .

رد التحية باقتضاب . قال الأمين :

– هل تشرح للاستاذ المسألة .

هز رأسه. وقالت لى عيناه أننى وقعت.. بعد انصرافه.

– يظننى مجنونا وهذا لا يهم ..

فى عينيه بريق غريب . سألته .

– وبدل الفاقد للمستندات الضائعة ؟

أسند وجهه إلى كفه :

- تلك هى المعضلة ضاعت أصول جميع المستندات . كشطوا اسمى من دفتر المواليد بناحية «ترسا» مركز طوخ بمحافظة القليوبية حيث ولدت . محى اسمى من جميع أعداد الوقائع المصرية التى تتضمن قرارات منحى شهاداتى . محى ايضا من دفاتر جامعة «دبلن» التى حصلت منها على الدكتوراه. فقدت جميع نسخ الرسالة التى تقدمت بها الى الجامعة عن «التخطيط العمرانى لمدينة يوتوبيا فى ضوء واقعها الحالى» ..

- هذه مشكلة حقيقية ..

لفتت ضحكته العالية أنظار الفتاة. تأملته دهشه :

- يتم التزوير بطريقة دقيقة جدا .. لا يستطيع أحد اكتشافها .

تناول احد المجلدات امامه :

- اليك مثلا قرار وزير المعارف العمومية بمنح الأسماء الموضحة فيما بعد شهادة الكفاءة فى سنة ١٩١٩.

أغلق المجلد ويده عنه الصفحة .

- هذه هى «الوقائع المصرية»، وهى جريدة رسمية كما تعلم .

وهو يشير باصبعه :

- الأسماء مرتبة ابجديا . وها هى «جورج اسعد».. ثم «جورج جمال»، كان المفروض أن يكون اسمى حسب الترتيب الابجدى بين هذين الاسمين . ولكنه غير موجود . وكذلك الارقام المسلسلة جورج اسعد ١٧ جورج جمال ١٨ الرقم متسلسل وصحيح .

بدأ الأمر معضلة .

- وكيف تفسر هذا ؟

ازدرد نفسا طويلا من سيجارتى. نفثه من طاقتى أنفه. خيل إلى أن الدخان المنطلق كثيف جدا واكثر بكثير مما ازدرده جوفه. ملىء بالدخان فكيف حدث هذا ؟

- استبعد خصومى العدد سرقوه وأعادوا طبعه من جديد بعد حذف اسمى ..

....

تحسست اقدامى الهابطة السلم الحلزونى .. قال الأمين وهو يسلمنى حقيبة كنت قد تركتها بالأمانات .

- مسكين كان الله في عونه .. عامان يأتى ويبحث .. ولا أمل ..

- أين تظنها ذهبت ؟

بنظرة دهشة :

- أصدقته ؟ .. لا مستندات هناك ولا يحزنون ..

هذا يحدث كثيرا، والمشكلة إن أحدا لا يصدق . حاذرت الحفر الصغيرة أن يكون فى أحدها شرك قديم .. وقلت إن الجد الأكبر للدكتور جورج البرمكى .. قد قفز من هذا السور .

- كلماته الأخيرة ماتزال تسكن أذنى :

- من فعل هذا ؟ .. هل هذا سؤال أنت لا تعرف تاريخ أسرتنا ، نحن مضطهدون من قديم الزمن سأريك شجرة أسرتنا ، إننا منسبون ومن الاشراف . إننى احفظ تاريخ اسرتى من أقدم العصور ، إن أبى هو الحفيد السابع والثلاثون لجعفر البرمكى.. وأمى حفيدة «أمين بك» الأمير الوحيد الذى نجا من مذبحة المماليك. وفى أصول شجرة اسرتنا أسماء كثيرة منها الإمام الحسين رضى الله عنه .. وهذا ثابت فى شجرة نسب اسرتنا التى كانت مودعة فى نقابة الاشراف لكنهم سرقوها ، كما سرقوا كل أوراقى .

يدور الزمن ليعود من حيث بدأ : الامام الحسين .. جعفر البرمكى. أمين بك ... شهدار. شاهدى الذى أبحث عنه؟ سيقول رجل أننى مجنون . يستشهد علي ذلك بأننى أتعرض لصدمات كهربائية. ولن احصل على حكم البراءة إلا إذا ظهر شاهدى ذاك . الليل يتقدم . صاح صوت بعيد :

– قف من أنت ؟

فى السواد برق السونكى مشرعا :

– عابر سبيل .

– هذه منطقة عسكرية . ابتعد ..

– أردت أن ازور القلعة وأرى قصر الجوهرة .

– أمش، أو تقتل !.

ازاح كشاف سيارة مقبلة مساحة من الظلام . دقت اقدامى الاسفلت. قد أجده فى المقابر .

....

مرفت السويفى :

– من هو ؟

– رجل ما .

– ومتى قابلته وعرفته ؟

– ربما لم أقابله قط .. ولكنه مهم جدا لى . قد أموت إذا لم أجده.

ضحت بصوت عال :

– أحوالك عجيبة !.

شعرها الطويل ينسدل علي كتفيها ، بلوزة شتوية مغلقة عند الرقبة .

اطلقت بصرى من الشرفة حيث كنا نجلس لتجوس بين تلال المقطم البعيدة. غابت فى تضاريسها المعتمة عينى المرهقة .

- لا أحد يفهمنى .

- يقول محمود إنك تحب زوجتك ..

- جدا ..

مصمصت بشفتيها متعجبة .

- أفكر فى أن أقبلك من شفتيك .

استلسمتُ بلا ممانعة دست شفتها السفلى بين شفتى ، انزلقت. لم أحاول استردادها . كل شىء مغموس فى الزيت. متى تجف المشاعر اللزجة؟.

- تحب زوجتك .. فلماذا .. ؟

غرست عينى فى عمق عينيها . أخرست النظرة لسانها فلم تكمل. أكملت لننسى استرسالها المصادر ..

«إذا كنت تحب زوجتك فلماذا أنا أو غيرى ؟ ». لامعنى لشىء .

- لماذا تستأجر شقة المقطم هذه ؟!

- فيها استريح وأكتب أحيانا أو أختفى... لا أحد يأتى هنا ألا أخص الأصدقاء .

ابتسمت ... قالت بدعابه :

- أفهم من هذا أننى من هؤلاء .

فى حياتها سر غامض . زعمها بأنها طالبة في الجامعة اكذوبة من أكاذيب هذا الزمان التي لا تنتهى . شيطان الاستجواب يتلبسك. يدفعك الى

استدراجها . الرطوبة شديدة . ينعقد العرق حبات فوق الجبهة ..

- الجو حار .

خلعت بلوزتها . وقفت بالجونلة والجزء الأعلى من كومبين اسود يتشكل مع استدارة ثدييها . جادت الصحراء ببضع نسمات عابثت شعرها.. مر عابر ، غاب فى اتجاه الشمال ارتدت إلى الغرفة مسرعة حتى مضى :

- شخص مريب .

- من ؟

- قد يكون شرطيا .

- تهتمين أكثر مما ينبغي بالشرطة ..

اقترحت ان ندخل . «كانت تشكو الحر قبل لحظات فماذا حدث ؟» . جلست على شيزلونج فى مواجهته الشرفه .

- تخافينهم كثيراً ؟

- أكرههم .

- ضايقك أحدهم مرة فى السويس ؟

توترت طاقة أنفها ، فتحت الراديو . أغلقته . كان يغنى أغنية حزينة ..

- أسألك : ماذا فعل ؟

- لا شىء .. قال كلاما سخيفا .. وكنت صغيرة .. آلمنى الكلام. تعرف كثيرا ما يقفز إلى ذهنى دون مناسبة وفى أى مكان فيفقدنى القدرة على الاستمرار فى الحديث . ومرة كنت فى حفلة فى الكلية . كنت أمثل «أوفيليا هاملت» . وأنا فى قمة انفعالى بالدور . قفز الكلام فجأة . ملأ المسرح حولى . كنت أراه . هه .. هل تتخيل معنى أن يتحول كلام ما إلى شىء يرى ويلمس . لم أستطع أن أكمل الدور وخرجت جارية .

لمعت عيناها بدموع غير منسكبة . ناولتها سيجارة . دخنتها ببطء .

- كنت بالمدرسة .. فى نهاية التعليم الثانوى . سبعة عشر عاما ، خرجت وصديقى نتمشى على شاطىء القناة ، لم نكن نفعل شيئا . تعودنا أن ننتهز فرصة لنتبادل القبل . كنا نطل على القناة ، ويده يحيط بخصرى ، عندما ظهر من تحت الأرض .. وضع يده على كتف صديقى وسأله : ماذا تفعلان هنا ؟. وبعد لحظة كان قد قال كلامه الفظيع .

عادت إلى الصمت . تلتهم الأنفاس بشراهة .

- ماذا قال ؟

- لا داعى ..

رفعت ذقنها إلى . قبلتنى بلا رغبة تقريبا :

- إنه كلام فظيع ..

- نحن أصدقاء ،

- خمنه بخبرتك .

- أريد أن أعرفه منك ؟

بصوت متردد :

- .. يرتدى ملابس بلدية من ذلك النوع الذى يرتديه المخبرون .. أنفاسه بخراء .. عاملنى كبغى .. كنا قد تبادلنا قبلة .. أظنها كانت لثمة سريعة . حاول صديقى التفاهم معه قائلا له أننا خطيبان. أخرج من أنفه صوتا قبيحا ، وصاح : على أنا يا أولاد الكلب .. أنت والشرمو .. التى معك ؟. هل تريد أن تمتطيها أمام الناس وأقف أنا لأتفرج . هل ترانى وقد نبتت لى قرون فوق رأسى ؟. وإذا كان ما بين فخذيها يأكلها فلتبرده فى خرابة أو تحت منحنى السلم وليس فى الطريق العام .. هه . إذا كنت لا تملك أجر

حجرة ، ولاتملك هى أيضا ، فلماذا تمارسان الحب فى الطريق العام .[٣]

قطعت مرفت الحديث وانخرطت فى بكاء حار

***

بينى وبينه الزمن ، وضعف البصر والذاكرة ، وزحام الحياة وفراغها . يغيض الأمل فى وجوده . وتمر أيام وأيام . رفرفى يا أعلام اليأس . يجود الفجر بأول خيوطه على قدمى وهما تبحثان فى حوش مقبرة ، يؤذن الظهر فى مسمعى وأنا فى حجرة سيئة التهوية بدار المحفوظات أبحث فى تاريخ حياة مرفت السويفى ، بين أطنان من الورق المترب الذى أكلته الهوام والحشرات . فهل تكتشف وثائق «جورج البرمكى» ، أم تجد ورقة تنير الطريق إلى الرجل الذئب فيستريح القلب من عناء البحث . وتكف عينا زوجتى عن نز نظرات العتاب، ومن الذى قال : لابد لمدمن القرع أن يلجا ، ها قد أدمناه فما ولجنا ، ودميت قلوبنا وأكفنا . وتضحك تلك التى كانت تبكى قبل أيام . وفى شقة المقطم أيضا تقول :

– سافر محمود وتركنى فى حوزتك والظاهر أنك لا مؤاخدة .

بأصابعى عابثت خدها الضامر . انحدرت إلى هوة لا قرار لها . كما انتهت حياة «إسماعيل البهنسى» الفاجعة ، بذلك النشيد التافه .

---

٣ – كان بودي بالطبع أن أورد الكلام كما قاله الشخص المذكور . وهو ما تحفظه مرفت السويفي بنص دقيق . . تقسم علي صحته وتؤكد أن صديقها يستطيع أن يقسم علي ذلك أيضا . بيد أن ظروفا يعلمها الجميع تحول دون ذلك ، وألفت النظر إلي كلمة (تمارس الحب) هي ترجمة للفظة العامية التي تؤدي معناها . وبالرغم من أنها وردت علي لسان شخص رسمي هو «المخبر» فإن الرقابة علي النشر لا تبيح نشر جميع الأقوال الرسمية . وعلي الرغم أن كلمة «الشرموطه..» من الكلمات التي لاتبيح الرقابة علي النشر استخدامها . ويعتبرها بعض نقاد الأدب كلمة عارية عن الجمال. فقد استطعت أن أقنع الرقابة بأن أديبا كبيرا هو توفيق الحكيم قد استخدمها في رواية «عودة الروح» . والهدف من ايراد هذا النص هنا هو اقناع عدالة المحكمة بدقة الشهادة.

.. وفى المستشفى وقف أمامى يصيح :

– أولاد الكلب .. أقول لهم اسمى المسحوق رابسو .. فلايضدقوننى .. ماذا يختلف عنى ذلك الأرنب الذى يقدمونه فى التليفزيون مصرا على أنه المسحوق رابسو .. إن معى شهادات يا أستاذ بأننى مسحوق... ورابسو أيضا .. اسأل مدير شركتنا وصراف بلدنا مخلوف أبو أحمد .. والحاج عطية السباعى .. وولده شوقى .. اسأل كل الناس .. إن أبى هو المسحوق تايد وجدى هو المسحوق سافو فكيف يزعم هذا الأرنب التليفزيونى الرقيع أنه من أسرتنا . فيصدقونه .

بكيت وأنا أخرج .

فى المساء قالت زوجتى :

– أنت مرهق وفى حاجة إلى الراحة .

أين توجد . دلونى لأنشر أشرعتى . أسبح ألف ليلة بألف نهار : آخذ معى كل قنينات العطر والخمر . ومن كل دابة زوجين اثنين أقول :

– « يا رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » .

***

.. كأننا على موعد كنا . فى ذلك المكان الذى لامسته أقدامى أول مالامست أرض الانسان. قال :

– اجمع حاجياتك ..

طيلة سنوات تنقلت بين زنازين متعددة . عرفت التشتت بين المنافى والسجون البعيدة والقريبة . فهل آن للقلب السجين أن يرفرف، للعين المرهقة أن ترى ضوء الشمس. أن تعرف لونا غير الأزرق الداكن وترى وجوها تبتسم بلا شماتة .

بعد أن أنهيت جمع حاجياتى القليلة قال :
- ستذهب إلى بيتك .
.. يدق قلبى فرحا واشتياقا . انتهى الحصار حقا ؟. أنرى الشوارع والبيوت ؟ ونشم الروائح ؟ ونلمس الهواء الطليق ؟ تغيب فى بحر العين الحنونة النظرات ؟ فى الطريق أنت مرة أخرى . عند المشى آلمتنى ساقاى . هدهما طول الرقاد علي أسفلت الزنزانة. شدت عضلاتهما . نزتا ألما لايطاق . انعكس وهج الشمس على عينى غلالة من الدمع تعلقت بين الرموش . مدينتى مضمومة الذراعين فلمن فتحت ذراعاك حاضنا .
نسيتنى الوجوه . أتت أخبار السوء بأن العديد من الأصدقاء قد رحلوا عن العالم . وكل شىء يمضى فى يسر . كأننى لم أغب كل تلك السنوات فى تيه الصحراء منفيا معذبا . وها هم يتمتعون بحريتهم ، ويمارسون حياتهم بلا اهتمام . على بطنى دليل حى على عالم لايعرفونه . من يصدق هذا أو يغضب له ؟. من يستطيع أن يصل إلى عمق الحزن: يشق الصدر يستخرج القلب، يحصى تجاعيد العذاب على سطحه الأملس . يشم رائحة كبدى المحترق. يلمس خوفه ووحدته ، لا أحد يريد أن يفهم .
فى ذلك المكان بالتحديد كان علينا أن نلتقى أنا وهو . فى طريق المطار، حيث وجدت نفسى ذات صباح حرا .
رأيت شبحا ينتحى ركنا فى الصحراء . جالسا على صخرة وحيدة يتأمل السماء . شىء ما قال إنه هو . شىء فى القلب الذى حفر اسمه وملامحه بالسوط عليه . عرجت عن الطريق الاسفلتى . ليلة صيف يجود منتصفها بنسمات قليلة ولكنها تكفى . خاضت أقدامى فى الرمال . اقتربت . لم ينتبه إلى . واجهته ، فوق القمر مرت سحابة ، فقدت ملامحه تحددها ، حييته ، رد تحيتى بإيماءه . قلت :

- ألديك ثقاب ؟

على ضوء قداحته الثمينة رأيت ملامحه . لم تبح بشيء . ضنت عليّ بالسرّ الذى ابحث عنه . رائحته هى التى قالت إنه هو . ازدردت نفسا ، وآخر، واصل إطراقه ، رفع رأسه إلى النجوم . أخذ يعد :

- واحد .. اثنان .. ثلاثة .. لا .. هذا نجم قطبى .، اثنان ... ثلاثة ... أربعة ..

بنفاد صبر .

- لا فائدة ..

رفع رأسه . رآنى . ارتعب . مرت السحابة . أرسل القمر أشعته إلينا . تأكدت ساعتها أنه هو .

- من أنت ؟

- أشعلت لى السيجارة منذ لحظة .

تنهد بارتياح . ضحكته مرتبكة :

- أهو أنت ؟

- نعم ..

- ظننتك «هو».

- «هو» من ؟

وقف .. تمطى :

- « هو» الذى أنتظره ..

- أتنتظر أحداً ؟ ..

- أنتظره «هو» .

كالأصدقاء القدماء سرنا معا . قامته قصيرة مكتنزة . بنفس ملامحه تقريبا . بدا للوهلة الأولى وكأن الزمن لم يغير فيه شيئا. خرجنا إلى الطريق

الاسفلتى . رأيت ملامحه بنظرة خاطفة على ضوء سيارة مسرعة : تهدل شاربه وبدت التجاعيد وكأنها حفرت على وجهه بآلة حادة . وعندما جلسنا فى ذلك البهو المتسع ، تمكنت رغم خفوت الضوء أن أستخبر الزمن كل آثاره . أن أراه مطلا فى نظرة عين شاردة منكسرة فأين اتساع حدقة الافتراس القديمة . قال :

– يبدو أنك تعرفنى ؟

– نحن أصدقاء قدماء .

تسللت موسيقى بدائية من قاعة رقص مجاورة . جاء النادل بالعشاء . أكلنا فى صمت نسبى .

– آكل هنا باستمرار . هذا مكانى المفضل . ونادرا ما تجدنى فى أى مكان آخر . إذا لم أكن هنا فأنا عند الربوة انتظره . قلت :

– من ؟

– انتظره «هو» ..

بعد لحظة أضاف :

– لا أغير منضدتى . من هذه النافذة أطل على الصحراء ، لأرى الربوة . أتابع أى شبح يتحرك خلفها .. ربما يكون «هو» ..

كفه الممسكة بالسكين . عروقه التى نفرت وهى تصعد وتهبط . تحولت إلى خطوط زرقاء بارزة . تلبية لإشارة منه جاء النادل . انحنى بصينية عليها كأسين . تناول واحدة ، وأنا أتناول أخرى ، همس له بشىء ما . عاد النادل بعد لحظة بحقيبة جلدية منتفخة وضعها على مقعد بجواره . بشبق تأملتها . تحوى هذه الحقيبة كل ما أبحث عنه . شهاداتى ووثائقى وربما شهادات جورج البرمكى . بقلق تابع نظرتى :

– هى من جلد الثعبان . وقد أهدانيها «هو» عندما افترقنا هنا .

متغابيا هززت رأسى . كل شىء يبدو ميسرا . الرجل لايتذكرنى . وليس على إلا أن أستدرجه إلى شقة المقطم . حيث أقدمه لزوجتى ولقاضىّ . أقول لها : هذا الرجل هو الذى يسحب - بنظراته - الجدران من حول فراش غرامنا. ينام كالزيت بين جسدينا الملتحمين . هو حديد الجرح الذى لم يلتئم .. والنار التى لاتزال تشوى الكبد ... أما أنت يا قاضىّ فهذا الرجل هو تهمتى ودفاعى . نصوص القانون وحيثيات العدل والدموع التى تضن بها العين . فأصدر حكمك بالبراءة مدويا .

قال :

- يبدو المكان غريبا عليك ؟

- لم أره قبل الآن .

- أنشىء حديثا .

- كنت هنا أمس ولم أره.

فى صوت أزيز طائرة تهبط ضاع بقية ما قال . تطير داخل رأسى . فى عجب تأملت الحوائط : النقوش الغريبة والحجرات المنحوتة فى جوف الصخر فى إحداها نجلس، على مقربة من شرفة تطل على الصحراء . لا يواجهنا سوى البار ، ضوء كشاف باهر بسقف الصالة يضىء وسطها ولا يتعداه :

- أهو بار ؟

هز رأسه . كم من الكوؤس شربت الآن : سبعة أم ثمانية . وثمة خاطر يلح على أننى فى «ستريو المطار» يبدو هذا غير حقيقى . فهل أسأل النادل. الكأس الثالثة عشرة . لا أحد بجوارى . كنت أتكلم مع واحد الآن . أظنه كان هو . أين ضاعت فرحتى بلقياه ؟. مع الكأس السادسة عشرة وصل ... قال :

- هو مشروع سياحى عظيم . هذا مجرد واحد من أقسامه الألف . وهو

فسيح جدا متعدد الطوابق . تستطيع أن تقوم بجولة فيه لو أردت .

يريد أن يتهرب منى . أتاك قدرك فمن يهديك مخرجا أو منفذا . وأقسم بكأسى السابعة عشرة أن أقودك إلى المحكمة مكبلا بعذابى وبحثى المجدب ودموع زوجتى . قلت :

– سأفعل هذا فيما بعد ..

نظف أسنانه بعود ثقاب :

– من يضمن لك أن تأتى هنا مرة أخرى ..

فلنختبر نيته :

– لا مانع لدى .. ستصحبنى طبعا ؟

هز رأسه نافيا :

– ليس بوسعى أن أفعل ذلك .. سيمنعنى حراس الأبواب .

برح الخفاء . محاولة مفضوحة للهرب . لن أتركك ولو انطبقت السماء على الأرض . سأقودك بحقيبتك المنتفخة تلك إلى منصة الشهود . إلى كاميرات التليفزيون والسينما ، وإلى ركنى المهجور فى صفحات جريدتى . إلى ميكروفونات الإذاعة والقمر الصناعى . أدق على المنضدة بمجمع قبضتى حتى تؤلمنى . أو لتدمى وتتحطم : وجدته يا حضرات القضاة . وجدته . لست مجنونا ولكنى معذب . لا أسير ببطن الأرض . لكن روائح سطحها تزكم أنفى . واسألوا تجاعيد القلب سوف تجيب. وإليكم شاهدا أننى لا أكذب . ودليلا أن طبيبى خائب . لا أسير ببطن الأرض ، بل أسير ببطن أصبحت يوما مطفاة سجائر مشتعلة، فهل يعنى هذا شيئا لكم؟. بقلق قال :

– تنظر إلى الحقيبة طويلا ..

– جميلة .. ماذا بها .. ؟

عبرت وجهة نظرة قلق :

– أهو مهم لك ؟

– .. مجرد سؤال

– أوراقى الخاصة وبحوثى .

فكرت فى أننا لم نتعارف بعد .. لا يبدو هذا مهما ... أو لنؤجله إلى اللحظة المناسبة : عندما يكون الانقضاض ساحقا وماحقا . أما الآن فلنحتس هذه الكأس . هل تعود سنوات النشوة حقا ويصدر حكم البراءة مدويا . فتموت الخبائث وتجتث الأكذوبة من الأرض وتسوى فخاخ الشك وشراك الريبة . فلا تشعر وأنت سائر بكل عصب وكل عضلة فى قدميك . آنذاك تملأ الراحة القلب . كهذه الموسيقى العذبة . فما أجملها .. ويا لموجات الفرح التى تتدافع فى القلب .

– موسيقى جميلة .

– .. هنا أشياء لايتصورها عقل . فهذا مشروع كبير وضخم ، الهدف الأساسى منه علاجى .. كثيرون يأتون من أنحاء العالم خصيصا لكى يخففوا عن أنفسهم عناء الحياة . هنا يتمتع الناس بالطبيعة الجميلة . بالفن والموسيقى والثقافة والرياضة . وأيضا بالغذاء الجيد... إن أعظم عقول عصرنا قد شاركت فى تصميم هذا المشروع والإشراف عليه . لذلك فهو المكان المفضل لكل عروسين من كافة أنحاء المعمورة . وهو أيضا المكان الذى يولد به معظم الأطفال الجدد .

تحدث طويلا عن المكان . وصف طرقاته المليئة بالخضرة الزاهية . والفراشات الملونة وتحدث عن الأنهار والبحار . والنساء الجميلات تتفجر وجناتهن بالحمرة وتنفرج شفاهن عن الابتسام الدائم ترش عيونهن الفرح والعطر.

- لا أستطيع أن أصف كل شيئ .. وبهذا لن أصف شيئاً . هنا نخيل وأعناب وأنهار من اللبن والعسل المصفى والخمر لذّة للشاربين .. هنا أجمل مكان يتبادل فيه عاشقان الحب دون أن يضايقهما أحد أو شيء .

صحت :

- يبدو ذاك مبهجا .

ولعل الحلم قد طاف بالقلب يوما، فما تاريخه ؟. وأثناء تدفقه بالحديث نسيت كل شيء، حتى ما كنا بصدده . فهل يتحدث الرجل عن مشروعه السياحي لكي أنسى مهمتي الأصلية؟. الأفكار تشكل في عيني نظرة ريبة .

قال :

- لماذا تنظر إلى هكذا ؟

- أفكر في أننا لم نتعارف ..

- سيحدث هذا قطعا .. ولكن المكان لايجذب اهتمامك .

بضحكة :

- حلمت مرة بمكان مثل هذا . ولكن للأسف لا أؤرخ أحلامي . وما يشغلني هو سبب وجودك هنا .

- أنتظره ..

تبدو اللحظة مناسبة لكي أكشف بعض أوراقي . بلهجة انقضاض قلت:

- اسمي شوقي عطية السباعي..

اختلجت عينه اليسرى تحت نظرتي الفاحصة.

- وأحيانا كانوا ينادونني بالأرقام : ٧ و ١٣ و ١٤ ، وأخيرا ٢١ .

ظلت عيناه معلقتين بعيني :

- ألا يعني هذا لك شيئا ؟!

- يعني أسمك .

- ألا تفكر أننا ربما تقابلنا فى مكان ما ذات يوم .

- لا أظن .

ينكر كل شىء . كمستجوب محترف. هذا طبيعى . ولكن لابد أن يعترف حتى لو اضطررت إلى جره إلى حجرة الهواء البارد أو إلى أفران الحريق فى العنبر ٢٥ (أ) .

- أتعرف جورج البرمكى ؟

بدفعة قالت :

- لا .

- أتعرف عزيزة شرف الدين رقم ١ زوجة الواد بدوى !

- لا .

- أتعرف عزيزة شرف الدين رقم ٢ زوجة إسماعيل البهنسى .

- لا .

- أتعرف عزيزة شرف الدين رقم ٣ ؟

- لا .

وقفت .. قلت :

- ظننت أنك تعرف هؤلاء .

تنهد وقد شعر بانتهاء الاستجواب :

- ولم تظن ذلك ؟

- ذكرك بعضهم فى أحاديث معى .

- هل يعرفون اسمى ؟

- يصفونك فقط ، لا أحد يعرف اسمك فيما أظن .

- ولا أنا نفسى ؟ لقد نسيته .

- لماذا طردوك من هذا المشروع السياحى ؟

- اسألهم .

- تعرف مرفت السويفى .

- لا ..

- ربما تعرفها باسمها الحقيقى «نواره مصطفى عبدالواحد الديب» .

- لم أسمع بها أبدا .

- ولكنك التقيت بها مرة على شاطىء القناة فى سنة ١٩٦١ وأسمعتها كلاما قبيحا .

صمت طويلا . خلا المكان من الناس . أين ذهب الجرسون والمتردوتيل وعامل البار وبقية الرواد؟ لا أحد . والضوء الساطع يتحول تدريجيا إلى احمرار قان . ينظر من النافذة . بقايا الطعام أمامنا . أمسكت بالسكين تحسست بأصبعى شفرتها الحادة. قلت :

- لماذا تنظر إلى الخارج .. أتظنه سيأتى ؟

- وعدنى بهذا عندما فارقته ؟!

- من هو ..

- رجل من «الزُهرة» ..

يتصنع الجنون :

- أسافرت إلى هناك !

خلع جاكتته مجففا عرقه :

- جئت أصلا من هناك . إننى منهم . فقدت أحد «عناصرى» وبهذا لن أستطيع العودة إلى كوكبى إلا إذا أتى «هو» ليأخذنى ، أنتظره من ألف عام ولم يأت.

ما يقول غريب :

- ولماذا أتيت ؟

– نسيت السبب . كنت مكلفا بمهمة ما . تعرضت لشيء أفقدني دليل العودة ، وحطم الخلية المخية التي تتضمن خريطة طريق العودة من الأرض إلى «المريخ» لاستكمل من هناك رحلتي إلى «الزهرة» ، وبهذا فإن على أن أنتظر حتى يأتي، أو تنجح بحوثي في اكتشاف الطريق . وهو ما أفعله كل يوم ..

كل شيء يبدو ملغزا . انتهى البحث الطويل بديناصور خرج من تحت جبال الثلج أو تكشفت عن هيكله رمال الصحراء . لا يذكر شيئا على الإطلاق . مجنون أو ذاهل ؟ هو ، لو تجمعت كل عيون الأرض لتنكر ذلك فعيناي هما الصادقتان وقلبي هو قائل الحق الوحيد وسط بهتان الأكاذيب . أسألوا ألمي وصراخي وهواني . ولا تسألوا المتدفئين في أبراجهم وسط بحر العواصف. بوسعي أن أجبره على الحديث .

– قف .

أجبرته نظرتي على الاستجابة للأمر . كذلك أجبرته السكين المشرعة . استقر طرفها المدبب فوق صدره .

– افتح الحقيبة .

– ولكن .

– أقول لك افتحها .

فتحها مستسلما :

– إنها أبحاثي .

– بها ملفي والأفلام الخاصة بي .

– لا أفهم .

ضغطت بسن السكين على صدره :

– أين الفيلم الذي صورتموه لي في غرفة نومي .. وأين التقارير التي

كان يكتبها عنى مخبروك ؟..

اخترقت السكين صدره .. مزقت القميص . غارت داخل اللحم . لايبدو عليه أى ألم . تركتها معلقة فى صدره . أخذت الأوراق فى عجلة شديدة . قلبتها أكثر من مرة : أوراق بيضاء فارغة تماما . لم يخط أحد فيها سطر واحد. ضحكت .. ضحكت ... ضحكت .

– لماذا تضحك ؟

– أتلك أبحاثك ؟

بغضب ..

– لا أسمح لك بإهانة مجهودى العلمى .. إن أكاديمية العلوم الفرنسية قد أرسلت لى ٢٤ خطاب شكر متتالية .

– على هذه الأوراق البيضاء ؟

بالنبرة المتعجرفة ذاتها :

– ولكنه ورق من أفخر الأنواع . لقد اشتريته خصيصا من أفخم مكتبات العاصمة .

قطعت الضحكة فجأة . مازالت السكين معلقة فى صدره . سحبتها . لم يكن بها آثار دم .

– كيف دخل السكين صدرك دون أن تنزف قطرة واحدة ؟

وهو يعيد الأوراق إلى الحقيبة باعتناء :

– لعله دخل فى إحدى الحفر بصدرى . إنه ملىء بها . وهى كثيرا ما تحوى أشياء عجيبة .. ولا علاج لها

هجمت عليه . مزقت قميصه . لم يقاوم . مزقت فانلته . وقف أمامى خائفا ونصفه الأعلى عار تماما . ملىء بحفر عميقة بعضها واسع وبعضها ضيق . تنتشر فى كل مكان . تأملتها بذهول :

- ما هذا ؟

- جروح قديمة !

- سببها ؟

- أحاول أن أتذكره . ساعدتنى البحوث التى سخرت منها . ولكن النتائج التى توصلت إليها ليست نهائية . أظن أنها من تأثير الضرب بالسياط . ضرب قاس وطويل ..

- هل ضربك أحد ؟

- ربما .. لا أذكر تماما . ولكن الأرجح أننى كنت أضرب إنسانا ما . وكان السوط طويلا .. وكنت منهمكا فى ضربه بطريقة أنستنى نفسى . فكان السوط يلتف على صدرى فى عودته ويحدث هذا التأثير . وبالتأكيد فإنه كان خفيفا فى البداية ولكن بمضى المدة أحدث هذه الآثار . إنها كهوف تمتلىء أحيانا بالهوام والحشرات والزواحف ، وتحرمنى النوم .

تركته يتكلم .. وكان لا يزال يتكلم حين هجمت عليه فجأة .. لكمته لكمة تحت ذقنه . أوقعته على ظهره . ظللت واقفا مستعدا لأى مقاومة يظهرها . قام صارخا فى رعب :

- لا تضربنى .. لا تضربنى ..

استمر يصرخ ويصرخ . ردد الفراغ حولنا صدى صرخته المرتعبة . صوته يندغم حتى بدا كما لو كان صوت ذئب أو كلب جائع أو خائف . أخذ يجرى ونظراتى تطارده . ظل يجرى ويجرى .. وصرخاته تتوالى .. وتتوالى .. والفراغ يعيد صداها المرعب .

فى ذلك المساء ... قال قاضى ..

- فتحت الجلسة .. المتهم ..

وقفت ..

- موجود يا أفندم ..

- هل حضر الشاهد ؟!

- لا يافندم ..

- لماذا ؟

- هرب فى الصحراء ..

المدعى العام :

- المتهم يضيع وقتنا فى بحث لا معنى له عن شخص وهمى .

- وجدت الشاهد بالفعل ياسيدى القاضي. وتشاجرت معه أمس وهذه الآثار التى فى وجهى نتجت عن مشاجرتنا معا .. وقد هرب فعلا ولكنى سأواصل البحث عنه .

المدعى العام :

- هل أنت واثق ياسيد شوقى أن الإصابات التى فى وجهك بسبب مشاجرتك مع شاهدك المزعوم .

- نعم ..

- إذن فأنا أودع مكتب المحكمة هذا العدد من صحيفة «روز اليوسف» الصادرة فى صباح اليوم وأشير إلى الخبر الوارد بها فى باب «أسرار» [٤]

تناول القاضى المجلة .. نظر اليها طويلا .. تمعن فيها .. قال :

- تضم للملف .. ياسيد شوقى .. أين التقيت بالشاهد .. وماذا جرى فى هذا اللقاء . حددت المكان بدقة . وجه الى المدعى العام أكثر من سؤال . ضحك أخيرا وقال :

---

٤ - هذا هو نص الخبر الذي ورد في الباب المذكور «كاتب معروف كان يعمل طبيبا.. سكر في أحد ليالي الأسبوع الماضي بـ «ستريو المطار» . والظاهر أنه أثقل «حبتين» فأخذ يتحدث مع المقعد الذي كان بجواره على المنضدة حديثا فلسفيا وسياسيا لا يمكن نشره . ثم أنهي المناقشة بملاكمة المقعد على طريقة «محمد علي كلاى» . أخذت عليه السلطات المسئولة تعهدا بعدم السكر بعد ذلك» .

- ياسيدى القاضي، ان المتهم يكذب فى جميع أقواله. لقد سألته هيئة المحكمة الموقرة فى الجلسة الماضية عما اذا كان يعرف «تمر» حاجب الحجاب فنفى ذلك. وهاهو يلتقى به، إن المكان الذى وصفه المتهم هو مقبرة تمر . والأوصاف التى يتحدث عنها هى أوصافه بالدقة كما وردت فى أرشيف الشخصيات المهمة فى تاريخ زماننا .. والى هيئة المحكمة الموقرة محضر التحريات رقم ١٨ لسنة ٨٨٠ هـ، الموافق ١٤٧٥ ميلادية. يقول المرشد السرى الرقيب أول «محمد أحمد الحنفى الشهير بابن اياس» فى محضر تحرياته عن السنة المذكورة المعنون «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» مايلى بالنص.. «وفيه توفى تمر حاجب الحجاب، وكان ظالما غشوما ، عسوفا، شديد القسوة، تولى ولاية القاهرة وحجوبية الحجاب، وكان فى أيام ولايته صارما على العبيد والغلمان وغير ذلك. وقتل منهم جماعة كثيرة حتى قيل «أحصى من قتله فى أيام ولايته فكان زيادة على السبعمائة انسان . فلما مات ، قال جماعة من أهل الصحراء ، إنهم سمعوه يعوى فى قبره كما تعوى الكلاب. نعوذ بالله من ذلك ..»».

....

رفعت الجلسة ..

فتحت عينى .

نظرت الى المئذنة الأثرية أمامى .

كانت العصفورة تعود مع مهبط الغروب ..

انتهت

صلاح عيسى

معتقل طره السياسى - ٩ يناير ١٩٧١

الفهرس



« صلاح عيسى »

كاتب وصحفى ومؤرخ. ولد فى ٤ أكتوبر عام ١٩٣٩ فى قرية «بشلا» بمحافظة الدقهلية. حصل على بكالوريوس فى الخدمة الاجتماعية عام ١٩٦١ ورأس لمدة خمس سنوات عدداً من الوحدات الاجتماعية بالريف المصرى. بدأ حياته كاتباً للقصة القصيرة، ثم اتجه عام ١٩٦٢ للكتابة فى التاريخ والفكر السياسى والاجتماعى. تفرغ للعمل بالصحافة منذ عام ١٩٧٢ فى جريدة «الجمهورية». أسس وشارك فى تأسيس وإدارة تحرير عدد من الصحف والمجلات منها: «الكاتب» و«الثقافة الوطنية» و«الأهالى» و«اليسار» و«الصحفيون» ويرأس الآن تحرير جريدة «القاهرة». اعتقل لأول مرّة بسبب آرائه السياسية عام ١٩٦٦، وتكرر اعتقاله أو القبض عليه أو التحقيق معه أو محاكمته فى سنوات ١٩٦٨ و١٩٧٢ و١٩٧٥ و١٩٧٧ و١٩٧٩ و١٩٨١ وفصل من عمله الصحفى لمدّة عشر سنوات. نشرت مقالاته وأبحاثه فى معظم الصحف المصرية والعربية. أصدر أول كتبه «الثورة العرابية» عام ١٩٧٢. وصدر له ٢٠ كتاباً فى التاريخ والفكر السياسى والاجتماعى والأدب منها: «تباريخ جريح» و«مثقفون وعسكر» و«دستور فى صندوق القمامة» و«رجال ريا وسكينة». له تحت الطبع عشرة كتب منها: «الأوراق القضائية للشاعر أحمد فؤاد نجم» و«البرنسيسة والأفندى» و«مأساة مدام فهمى». له ـ غير هذه الرواية ـ مجموعة قصص وروايات قصيرة نشرت بعنوان «جنرالات بلا جنود» (دار سينا/ ١٩٩٣).

هذه الرواية

على امتداد فصول هذه الرواية ـ التى كتبها مؤلفها أثناء فترة اعتقاله فى معتقل طره السياسى بين عامى ١٩٦٨ و ١٩٧١ يبحث بطلها «شوقى عطية السباعى» ـ وهو طبيب و صحفى مصرى ـ عن شخص لا يعرف له اسما أو رسما، قام بتعذيبه وحول بطنه إلى مطفأة للسجائر، فى سنة ما لا يذكرها، وبلد لا يحدده، ليقدمه ـ كشاهد نفى ـ لهيئة المحكمة الموقرة، التى كانت تحاكمه بتهمة مخالفة قانون أ صدره المجلس البلدى، يلزم جميع المواطنين بأن يبتسموا بحيث تنفرج شفاههم عن زاوية لا تقل عن ١٨ درجة.

ولأن هذا الشاهد المجهول يملك كل الوثائق والمستندات والتقارير المتعلقة بأدق تفا صيل حياة شوقى السباعى الخا صة والعامة والتى تدل على أن مخالفته لقانون الابتسام الإجبارى، هى مجرد حالة عار ضة من الاكتئاب النفسى، تقترب من الفصام، فهو يصر على البحث عنه، ليلتقى أثناء ذلك بنماذج من البشر، تضعه فى مواجهة مع منظومة القهر التى تصوغ العالم والتاريخ، وتهدر كل حق للإنسان فى أن يعيش حرا، فتحا صره بالتلصص والتنصت والمطاردة، وتحيطه بنظرات الشك، وتملأ طريقه بفخاخ الريبة، وخلال ذلك جمع «شوقى السباعى» هذه المجموعة من الشهادت والوثائق لخدمة تاريخ زماننا، التى قدمها للمؤلف لينشرها فى هذه الرواية، على الرغم من أنه عاد من رحلة البحث المجهدة، من دون أن يعثر على الشاهد، أو المتهم الحقيقى، الذى كان يبحث عنه، إذ كان القهر قد دمره، كما دمر ضحاياه، فإذا لم تصلح هذه المجموعة من الوثائق والشهادات لكى تكون رواية، فهى تصلح لأن تكون صرخة دامية ضد القهر.